باولو كويلهو

إحدى عشرة دقيقة

رواية







ترجمة: روز مخلوف

باولو كويلهو

إحدى عشرة دقيقة

رواية

ترجمة: روز مخلوف

• باولو كويلهو
• إحدى عشرة دقيقة
• ترجمة: روز مخلوف

• الطبعة الأولى 2004
• موافقة وزارة الإعلام رقم 77806
• الناشـــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سورية ـ دمشق ☎ 3321053 ـ 5141441
• الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
• الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
• التـــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ـ 5141441 ص.ب 30249

العنوان الأصلي للكتاب
Onze Minutes

في 29 أيار 2002، قبل بضع ساعات من وضع نقطة نهاية هذا الكتاب، ذهبتُ إلى لورد(*) في فرنسا، بحثاً عن قليل من ماء النبع الخارق. كنتُ في فناء الكاتدرائية، عندما خاطبني رجل يناهز السبعين من عمره، قائلاً: «أتعلم أنك تشبه باولو كويلهو؟». أجبته بأنني باولو كويلهو. عانقني الرجل وقدم لي زوجته وحفيدته. قال لي كم كانت كتبي مهمة في حياته، وختم قائلاً: «إنها تجعلني أحلم». كثيراً ما سمعتُ هذه الجملة، ولطالما بعثت السرور في نفسي. إلا أنني شعرت في تلك اللحظة بقلق حاد - أعلم أن كتاب إحدى عشرة دقيقة يتناول موضوعاً حساساً، مزعجاً، مكدِّراً. مشيت حتى النبع لأملأ قليلاً من مائه الخارق، ثم سألتُ الرجل عن مكان سكنه (شمالي فرنسا، غير بعيد عن الحدود البلجيكية) ودوّنتُ اسمه.

موريس غرافلين، هذا الكتاب مهدىً إليك. عليّ واجب إزاءك، إزاء زوجتك، حفيدتك، وإزاء نفسي: أن أتكلم عما يقلقني، وليس عما يحب الناس سماعه. بعض الكتب تجعلنا نحلم، وأخرى تذكّرنا بالواقع، لكن أياً منها لا يمكنه الإفلات من أمر جوهري بالنسبة لكاتب: النزاهة التي يكتب بها.

(*) مدينة لورد في البيرينيه. بنيت فيها كاتدرائية في موقع فيه مغارة ينبثق منها نبع ماء تُنسب إليه قدرات شفائية خارقة.

وإذا امرأةٌ في المدينةِ كانت خاطئةٌ إذْ علمث أنه متكئٌ في بيتِ الفريسيِّ جاءت بقارورةِ طيبٍ ووقفتْ عند قدميهِ من ورائهِ باكيةً وابتدأتْ تبُلُّ قدميهِ بالدموع وكانت تمسحهما بشعرِ رأسِها وتُقَبِّلُ قدميه وتدهَنُهُما بالطيب فلما رأى الفريسيُّ الذي دعاهُ ذلك تكلَّمَ في نفسه قائلاً لو كان هذا نبياً لَعَلِمَ مَنْ هذه الامِرأةُ التي تلمسه وما هيَ. إنها خاطئةٌ. فأجاب يسوع وقال لهُ يا سِمعانُ عندي شيءٌ أقولهُ لكَ. فقالَ قُلْ يا معلِّمُ. كان لمُدايِنٍ مَديونانِ. على الواحد خمسُمئةِ دينارٍ وعلى الآخرِ خمسونَ. وإذْ لَمْ يَكُنْ لهُما ما يوفيانِ سامَحَهُما جميعاً. أيُهُما يكونُ أكثرُ حُبّاً لهُ. فأجابَ سِمعانُ وقالَ أظُنُّ الذي سامَحَهُ بالأكْثَرِ. فقالَ لهُ بالصَّوابِ حَكَمتَ. ثمَّ التَفتَ إلى المرأةِ وقالَ لِسِمعانَ أتَنْظُرُ هذه المَرأَةَ. إنِّي دَخَلْتُ بيتَكَ وماءً لأجْلِ رِجْلَيَّ لمْ تُعْطِ. وأمَّا هِيَ فَقَد غَسَلَتْ رِجلَيَّ بالدُّموعِ وَمَسَحَتْهُما بِشَعْرِ رَأْسِها قُبْلَةً لَمْ تُقَبِّلْنِي. وأمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبيلِ رِجْلَيَّ. بِزَيتٍ لَمْ تَدْهَنْ رَأسِي. وَأمَّا هِيَ فَقَد دَهَنَتْ بالطِّيبِ رِجْلَيَّ. مِنْ أجْلِ ذلكَ أقولُ لكَ قدْ غُفِرَتْ خَطاياها الكَثيرةُ لأنَّها أَحَبَّتْ كثيراً. والذي يُغْفَرُ لهُ قليلٌ يُحِبُّ قليلاً».

لوقا 7، 37 ـ 47

لأنني الأولى والأخيرة
أنا المبجّلة والمحتَقَرة
أنا البغيُّ والقديسة
أنا الزوجة والعذراء
أنا الأم والبنت
أنا ذراعا أمي
أنا العاقرُ وأبنائي لا يُحْصَون
أنا المتزوجة والعزباء
أنا الوَلودةُ والتي لم تلد أبداً
أنا عزاءُ آلامِ الوضْع
أنا الزوجةُ والزوج
ورجُلي هو الذي خلقَني
أنا أمُّ والدي
أنا أختُ زوجي
وهو ابني المنبوذ
احترِموني دوماً
لأنني الشائنة والرائعة

نشيد إلى إيزيس، القرن الثالث أو الرابع
بعد الميلاد، اكتُشف في نجع حمادي

كان يا ما كان، كانت هناك مومس تدعى ماريا.

لحظة. «كان يا ما كان» هي أفضل طريقة لبدء حكاية للأطفال، بينما كلمة «مومس» هي للراشدين. كيف يمكننا أن نبدأ قصة بهذا التناقض الظاهر؟ لكننا سنحتفظ بهذه البداية، نظراً لأننا، كلَّ لحظةٍ من حياتنا، تكون لنا قَدَمٌ في الحكاية وقدمٌ في الهاوية.

كان يا ما كان، كانت هناك مومس تُدعى ماريا.

وُلدتْ عذراء وبريئة، مثل جميع المومسات، وطوال مراهقتها، حلمتْ أن تلتقي برجُلِ حياتها (الغني والجميل والذكي)، تتزوج منه (بثوب زفاف)، وتنجب منه طفلين (يصبحان مشهورين)، وتسكن بيتاً جميلاً (يطلُّ على البحر). كان أبوها ممثلاً تجارياً وأمها خيّاطة. في مدينتها نوردست بالبرازيل لم يكن هناك سوى صالة سينما واحدة، ملهى ليلي، ووكالة مصرفية؛ لذا كانت ماريا تنتظر اليوم الذي سيظهر فيه فتى أحلامها دون سابق إنذار، ويفتن قلبها، والذي ستذهب فيه معه لفتح العالم.

وبما أن فتى الأحلام لم يظهر لم يبقَ لها غير أن تحلم. أحبَّت للمرة الأولى في الحادية عشرة وهي متجهة سيراً إلى المدرسة الابتدائية. فقد اكتشفت، يوم العودة إلى المدارس، أنها ليست بمفردها على الطريق: فغيرَ بعيدٍ عنها، يمشي ولد يسكن في الجوار، يذهب إلى المدرسة في المواعيد نفسها. لم يتبادلا كلمة

قط، لكن ماريا لاحظت أن أكثر ما يروق لها في النهار هو تلك اللحظات التي تمضيها على الطريق المغبر، رغم العطش والتعب والشمس في كبد السماء، والصبي الذي يسير مسرعاً فيما تبذل هي جهوداً مضنية لكي تبقى موازية له.

تكرر المشهد شهوراً عدة؛ باتت ماريا، التي تكره الدراسة، ولم يكن لديها من تسلية سوى التلفزيون، تتمنى مرور الوقت بسرعة، تنتظر الذهاب إلى المدرسة بلهفةٍ وقلق، وعلى عكس بناتِ جيلها، تجد عُطَلَ نهايات الأسابيع، مملةً جداً. وبما أن الساعات تمر بشكل أبطأ كثيراً لطفلٍ منها لراشد، كانت تعاني من ذلك وتجد النهار بلا نهاية، لأنه لا يقدم لها سوى عشر دقائق تتقاسمها مع حبيب عمرها، وآلافٍ أخرى لتفكّر فيه وتتخيل إلى أي حدٍ سيكون جيداً أن يتمكنا من تبادل الكلام.

ذات صباح، اقترب الصبي منها وطلب إعارته قلماً. لم تُجب ماريا، تظاهرت بالسخط من هذا الاقتراب الذي في غير محله، وأسرعت الخطا. لقد تيبّست من الفزع وهي تراه يتجه نحوها، خوفاً من أن يعرف بأنها تحبه، تنتظره، وتحلم أن تمسكه من يده، وتجتاز باب المدرسة وتمشي في الطريق حتى النهاية، حيث ـ كما يُقال ـ توجد مدينة كبيرة، شخصيات روائية، فنانون، سيارات، وصالات سينما عديدة تعرض شتى الأعاجيب.

في الصف، لم تكن تستطيع التركيز طوال اليوم، وتتألم من سلوكها الغبي، في الوقت الذي ارتاحت فيه لمعرفتها بأن الصبي قد لاحظها هو أيضاً. لم يكن القلم سوى ذريعة لفتح حديث ـ لمحتْ قلم حبر في جيبه عندما اقترب. أضناها انتظارُ رؤيته ثانيةً. راحت في تلك الليلة ـ والليالي التي تلت ـ تتخيل كل الأجوبة التي ستجيبه بها، إلى أن وجدت الطريقة المناسبة للبدء بحكاية لن تنتهي أبداً.

لكنه لم يتوجه إليها بالكلام ثانيةً أبداً. استمرا في الذهاب معاً إلى المدرسة، تتقدمه ماريا ببضع خطوات أحياناً، ممسكةً بقلم رصاص في يدها اليمنى، وأحياناً وراءه لكي تستطيع تأمُّله بحنان. لقد اضطرت للاكتفاء بالحب والتألم بصمت حتى نهاية العام الدراسي.

أثناء العطلة الصيفية، التي بدت لها بلا نهاية، استيقظت ذات صباح بفخذين ملطخين بالدم. ظنت أنها ستموت وقررت ترك رسالة للصبي، تعترف له فيها بأنه حبُّ حياتها الكبير، ثم عزمت على دخول السَّرتّون(*) حيث ربما يفترسها أحد الوحوش البرية التي تروّع فلاحي المنطقة: الغول الذئبي(**) أو البغلة التي بلا رأس(***). هكذا قد لا يبكي أبواها موتها، لأن المسكينين، رغم المآسي التي تكبّلهما، سيحتفظان بأمل. سيظنان بأنها ربما اختُطفت من قبل عائلة ثرية ليس لها أبناء، وستعود يوماً، مغمورةً بالمجد والمال ـ فيما لن يستطيع حبيب عمرها الحالي (والأبدي) أن ينساها، وسيتألم كل صباح لأنه كفَّ عن مخاطبتها.

لم تستطع أن تكتب الرسالة لأن أمها دخلت الغرفة، ورأت الشراشف المصطبغة بالحمرة، فابتسمت وقالت لها: «ها قد أصبحتِ شابةً يا ابنتي».

أرادت ماريا أن تعرف ما العلاقة بين كون الفتاة شابة وبين الدم الذي يسيل بين فخذيها، لكن أمها عجزت عن تفسير ذلك لها. أكدت فقط أن ذلك طبيعي وأن عليها من الآن وصاعداً أن تضع فوطةً ليست أسمَكَ من وسادة لعبة، أربعة أو خمسة أيام كل شهر.

(*) سرتون منطقة شبه جافة في الشمال الشرقي للبرازيل تُعرف بكثرة حيواناتها.
(**) الغول الذئبي، ساحر يجول ليلاً متنكراً بهيئة ذئب.
(***) البغلة التي بلا رأس هي، حسب المعتقدات الشعبية، خليلة الخوري التي تخرج في بعض الليالي، وقد تحولت إلى بغلةٍ، فيصيب صوت السلاسل التي تجرها الناس المتطيِّرين بالرعب.

سألت ماريا إذا كان الرجال أيضاً يستخدمون أنبوباً لمنع الدم من تلطيخ بناطيلهم، وعلمت أن هذا لا يحدث إلاّ للنساء.

اشتكت أمرها إلى الله، لكنها اعتادت في النهاية على حكاية الدورة الشهرية. فيما لم تعتد على غياب الصبي وراحت تلوم نفسها بلا انقطاع على الموقف الغبي المتمثّل بالهرب من أكثر ما تتمناه. وعشية يوم العودة إلى المدرسة دخلت كنيسةَ المدينة الوحيدة وأقسمت للقديس أنطوان بأنها ستبادر وتتحدث إلى الصبي.

في اليوم التالي رتبت نفسها بأفضل ما استطاعت، لبست ثوباً خاطَتْهُ أمها خصيصاً للمناسبة، وخرجت شاكرةً الله على انتهاء العطلة الصيفية أخيراً. لكن الصبي لم يظهر. انقضى أسبوع آخر من القلق قبل أن تعلم ماريا من الزملاء بأنه غادر المدينة.

«لقد سافر بعيداً»، قال لها أحدهم.

اكتشفت ماريا في تلك اللحظة بأن ثمة أشياء يمكن أن نفقدها إلى الأبد. علمت أيضاً بأن هناك مكاناً يدعى «بعيد»، وأن العالم واسع ومدينتها صغيرة، وأن أهم الأشخاص يذهبون دوماً في النهاية. كان بودّها لو تذهب هي أيضاً، لكنها ماتزال صغيرة جداً. قررت مع ذلك، وهي تنظر إلى الشوارع المغبرة، بأنها ستلحق يوماً بالصبي. ووفقاً لأحد أعراف دينها تناولت القربان في أيام الجمعة التسعة التالية، وصلّت لمريم العذراء لكي تنتشلها يوماً من هناك.

تألمت بعض الوقت وحاولت عبثاً العثور على أثر الصبي، لكن أحداً لم يعرف إلى أين انتقل أهله. عندها بدأت ماريا تجد العالم أوسع مما يجب، وتجد الحب خطيراً. فكرت أن العذراء تسكن سماواتٍ أبعد من أن تجعلها تصغي لطلبات الأطفال.

ثلاث سنين انقضت. تعلمت الجغرافية والرياضيات، تابعت المسلسلات في التلفزيون، اكتشفت أولى مجلاتها الأيروسية، بدأت بكتابة يوميات تتحدث فيها عن حياتها الرتيبة، وتطلق العنان لرغبتها في التعرف على ما يعلمونها إياه - المحيط، الثلج، الرجال الذين يلبسون العمامات، والنساء الأنيقات المُثقلات بالحليّ... ولكن، بما أن أحداً لا يستطيع العيش على رغبات مستحيلة - خاصةً مع أمٍّ خيّاطة وأب غائب دوماً - سرعان ما فهمت أن عليها إعارة اهتمامٍ أكبر لما يحدث من حولها. راحت تدرس لتتدبر أمور حياتها، باحثةً في الوقت نفسه عن رفيق تستطيع مشاركته أحلام مغامراتها. عندما صارت في الخامسة عشرة وقعت في حب صبي التقته أثناء طواف الجمعة الحزينة.

لم تكرر غلطة طفولتها: تبادلا الكلام، أصبحا صديقين، ثم ترافقا إلى السينما والأعياد. ومن جديد تحققت من الأمر: الحب مقرونٌ بغيابِ الآخر أكثر منه بحضوره: كانت تشتاق للصبي بلا انقطاع، تمضي ساعات وهي تتخيل ما ستكلمه عنه في لقائهما المقبل، وتستذكر كل ثانية مشتركة بينهما، باحثةً عما فعلته من جيد أو سيء. كانت تحب أن ترى نفسها فتاةً ذات خبرة، أفلتت من يدها حباً كبيراً وعرفت الألم الذي يخلّفه ذلك. إنها الآن عازمة على النضال بكل قواها لأجل ذلك الرجل: فبفضله سيتحقق لها الزواج والأمومة، والبيت المطل على البحر.

ذهبت تكلم أمها بالموضوع، فقالت لها متوسلةً:

«ما زال الوقت مبكراً جداً يا ابنتي.

ـ لكنك عندما تزوجت من أبي، كنتِ في السادسة عشرة».

أبت أمها أن تشرح لها بأن ذلك حدث بسبب حملٍ طارئ، ولجأت، لإنهاء المحادثة، إلى حجة «لم يكن الأمر مشابهاً آنذاك».

في اليوم التالي ذهبت ماريا والصبي للتنزه في الريف بضواحي المدينة. ثرثرا قليلاً، سألته عن رغبته بالسفر فأخذها بين ذراعيه وقبّلها، بمثابة جواب.

القبلة الأولى في حياتها! كان المنظر رائعاً ـ طيور مالك الحزين محلِّقة، غروب الشمس، المنطقة شبه الجافة ذات الجمال العدواني، وصوت الموسيقى بعيداً. تظاهرت ماريا بالممانعة، قبل أن تعانقه، ثم كررت الحركة التي شاهدتها مرات عديدة في السينما والمجلات والتلفزيون: فَرَكَتْ ببعضِ العنف شفتيها فوق شفتيه، مائلةً برأسها من جانب إلى آخر، بحركةٍ نصف موقّعة، نصف خارجة عن السيطرة. شعرت أن لسان الشاب يلمس أسنانها من وقت لآخر، ووجدت ذلك لذيذاً.

فجأةً كفّ عن تقبيلها.

«ألا تريدين؟» سألَ.

ماذا كان عليها أن تجيب؟ بأنها تريد؟ إنها تريد بالطبع! لكن المرأة لا يجوز أن تسلم نفسها هكذا، خاصةً لزوج المستقبل، وإلا فإنه سوف يَشْتَبِهُ بقية حياتها بأنها تَقبل كل شيء بسهولة شديدة. ففضّلت ألاّ تقول شيئاً.

أخذها مجدداً بين ذراعيه، وهذه المرة بحماسٍ أقلّ. توقف ثانيةً مصطبغاً بلون قرمزي. ـ فهمت ماريا بأن هناك خطأ، لكنها

خشيت أن تسأله. أمسكته من يده وعادا إلى المدينة، وهما يتحدثان عن أمور أخرى تماماً، كما لو أن شيئاً لم يحدث.

ذلك المساء، ونظراً ليقينها من حدوث أمر خطير، دوّنت في يومياتها بعبارات منتقاة:

عندما نلتقي بشخصٍ ما ونقع في الحب يكون لدينا شعور بأن الكون كله يتآمر بهذا الاتجاه. حدث لي ذلك، اليوم، في غروب الشمس. أما إذا حدث خلل، فإن كل شيء ينهار ويختفي! مالك الحزين، الموسيقى في البعيد، مذاق شفتيه. كيف يمكن للجمال الذي كان موجوداً قبل دقائق، أن يختفي بهذه السرعة؟

الحياة تسير بسرعة كبيرة: تنقلنا من الجنة إلى الجحيم، في غضون ثوانٍ.

ذهبت في اليوم التالي للقاء صديقاتها. جميعهن رأينها تتنزه مع «حبيبها» ـ في النهاية لا يكفي أن تعيشي حباً كبيراً، يجب أيضاً أن تعملي على أن يعرف الآخرون بأنك شخص مشتَهىً جداً ـ كنّ شديدات الفضول لمعرفة ما جرى، وأعلنت ماريا لهن بفخر كبير بأن أفضل ما جرى، كان لسانه على أسنانها. أخذت إحدى الفتيات تضحك.

«ألم تفتحي فمك؟»

فجأةً اتضح كل شيء ـ سؤاله، خيبته.

«ولماذا أفتحه؟

ـ لكي يُدخِل لسانَه.

ـ وهل يغيّر ذلك شيئاً؟

ـ هكذا يتم التقبيل».

ضحكات مخنوقة، وهيئات زائفة التعاطُف، ومشاريع انتقام لدى فتيات لم يعشقهنّ أحد أبداً. تظاهرت ماريا بعدم الاكتراث للأمر، وضحكت بدورها ـ وإن كانت روحها تبكي. كتمت غيظها من الأفلام التي علّمتها أن تغمض عينيها، وتمسك رأس شريكها بإحدى يديها، وتدير وجهها تارةً إلى اليسار وأخرى إلى اليمين، دون أن تُريها الشيء الجوهري. أعدّت تفسيراً ملائماً (لم أشأ تسليم نفسي في الحال لأني لم أكن متأكدة، لكني الآن أعرف أنه رجل حياتي) وانتظرت الفرصة القادمة.

حين رأت الشاب مجدداً، بعد ثلاثة أيام، أثناء حفل في البلدية، كان يمسك بيد إحدى صديقاتها ـ تلك التي سألتها عن القبلة. من جديد تظاهرت ماريا بعدم الاكتراث، وتمالكت نفسها حتى نهاية السهرة، وهي تتناقش مع رفيقاتها من الفنانات وشُبّان المكان، متظاهرةً بتجاهل النظرات المشفِقة التي كانت إحداهنّ تلقيها عليها من وقت لآخر. لكنها ما إن عادت إلى بيتها حتى فقدت السيطرة على نفسها، انهار عالمها وبكت طوال الليل. تألمت ثمانية شهور متواصلة، وانتهت إلى أن الحب لم يُخلق لأجلها، ولم تُخلق له. ومنذ ذلك الحين فكرت بالرهبنة كي تكرس ما تبقى من حياتها لحب يسوع، وهو نوع من الحب لا يترك جراحاً أليمة في القلب. في المدرسة طُرح موضوع المرسَلين في بعثات تبشيرية إلى أفريقيا، وقررت أن غاية حياتها الفقيرة جداً بالانفعالات، تكمن هناك. خططت لدخول الدير، تعلمت القيام بالإسعافات الأولية (هناك أناس كثيرون يموتون في أفريقيا، وفقاً لبعض الأساتذة)، ثابرت على حضور حصص التعاليم الدينية. بدأت تتخيل نفسها قديسةً للأزمنة الحديثة، منقِذة للأرواح ومكتشفة للغابات المليئة بالنمور والأسود.

لكن ذلك العام ـ عامها الخامس عشر الذي تعلمت فيه أن التقبيل يتم بملء الفم، وأن الحب مصدرٌ للمعاناة بصورة خاصة ـ

كان يخبئ لها اكتشافاً ثالثاً: العادة السرية. مارستها تقريباً بالمصادفة، وهي تداعب عضوها أثناء انتظار عودة أمها إلى البيت. اعتادت ذلك وهي طفلة، وكانت تجد فيه متعة كبيرة - إلى أن باغتها أبوها يوماً ووجه إليها رشقةً من الضربات دون مزيد من التفسيرات. لم تنس ماريا الضرباتِ أبداً، وتعلمت بهذا الشكل أنها يجب ألاّ تلمس نفسها أمام إنسان آخر. ومنذ ذلك الحين، ولأنها لا تملك غرفة خاصة في البيت، نسيت حتى المتعة التي يمدُّها بها ذلك الإحساس.

حتى بعد ظهر ذلك اليوم، بعد نحو ستة شهور من تلك القبلة الشهيرة. تأخرت أمها بالعودة ولم يكن لدى ماريا ما تفعله، وكان أبوها قد خرج للتو مع صديق، وبما أنه لم يكن هناك برنامج هام في التلفزيون راحت تتفحص جسدها على أمل العثور على بعض شعيرات غير مرغوب بها لكي تنزعها. مفاجأة، لقد وجدت برعماً صغيراً فوق فرجها. بدأت تداعبه ولم يعد باستطاعتها ضبط نفسها. كان الأمر يزداد لذةً وكثافة، وراح جسدها كله، خاصةً القسم الذي تلمسه، يتوتر من المتعة. دخلت شيئاً فشيئاً في نوعٍ من الجنة، تضاعفَ الإحساس. دوَّنت أنها لم تعد ترى أو تسمع جيداً، وبدا كل شيء مذهَّباً، ثم تأوهت من المتعة وحصلت على نشوتها الأولى.

نشوة! متعة!

كان ذلك كما لو أنها، بعد أن صعدت حتى السماء، راحت تهبط بالمظلة، ببطءٍ، إلى الأرض. كان جسدها مبللاً بالعرق، لكنها كانت تشعر بأنها كاملة، مزدهرة، مليئة بالحيوية. ذلك هو الجنس إذن! أية أعجوبة! لم يعد هناك حاجة لمجلات إباحية يتحدث فيها الجميع عن المتعة مع تكشيرة ألم. لم يعد هناك من حاجة لرجلٍ يحب الجسد لكنه يحتقر قلب المرأة. كانت تستطيع القيام بكل شيء

بمفردها! عاودت الكَرّة، متخيلةً أن ممثلاً مشهوراً هو الذي يداعبها، ووصلت من جديد إلى السماء قبل أن تعاود الهبوط طافحةً أكثر بالطاقة. وبينما كانت تستعد للاستمناء للمرة الثالثة جاءت أمها.

ذهبت ماريا لمناقشة اكتشافها مع صديقاتها، متجنّبةً هذه المرة الاعتراف لهن بأنها جربته للمرة الأولى قبل ساعات قليلة. كن جميعاً ـ باستثناء اثنتين ـ يعرفن ما ينطوي عليه الأمر، لكن أياً منهن لم تجرؤ أن تتكلم علناً عن ذلك. كانت ماريا على وشك أن تشعر بأنها ثورية، زعيمة للمجموعة، وطلبت، وقد اخترعت لعبةَ «اعترافات سرية» سخيفة، من كل واحدة روايةَ طريقتِها المفضلة في الاستمناء. تعلمت تقنيات مختلفة. البقاء تحت الغطاء في عز الصيف مثلاً، (لأن العرق يسهّل الأمر كما قالت إحدى الفتيات)، استعمال ريشة إوز للمسِ المكان (لم تكن تعرف اسم المكان)، جَعْل أحد الأولاد يقوم بذلك بدلاً منك (ليس ذلك ضرورياً في نظر ماريا)، أو استخدام صنبور البيديه (لا يوجد بيديه في بيتها، لكنها ستجرب ذلك حالما تزور إحدى الصديقات الغَنيّات).

على أية حال لقد صرفَت النظر إلى الأبد عن حياة الرهبنة، حين اكتشفت العادة السرية، وطبَّقت بعض التقنيات المقترحة من صديقاتها. يمنحها الاستمناء كثيراً من المتعة ـ بينما يُعتبر الجنس، في نظر الدين، أكبر الخطايا. تعرفت، من خلال الصديقات أنفسهن، على شائعات مرتبطة بالاستمناء: الحبوبُ التي تغطي الوجهَ، أو قد يؤدي ذلك إلى الجنون، وربما إلى الحمل. ورغم تلك المخاطر كلها استمرت تمنح نفسها المتعة، مرة في الأسبوع على الأقل، عموماً يوم الأربعاء، موعد ذهاب أبيها للعب الورق مع أصدقائه.

في الوقت نفسه بدأت ماريا تشعر بأن ثقتها بنفسها تتضاءل

أكثر فأكثر في حضور الرجال ـ وتتعاظم رغبتها بمغادرة المكان الذي تعيش فيه. أحبتْ للمرة الثالثة، ثم الرابعة. باتت تعرف كيف تُقبّل، كيف تداعب وتستسلم للمداعبة عندما تنفرد بعشاقها. لكن كان هناك دوماً خلل ما، وتنتهي العلاقة تحديداً عندما تقتنع ماريا أخيراً بأن الصبي هو الشخص الذي تستطيع العيش معه بقية أيامها. في النهاية توصلت إلى استنتاج بأن الرجال لا يجلبون غير الألم والإحباط والمعاناة والضجر. وفيما كانت، عصر أحد الأيام، في الحديقة تنظر إلى أمٍّ تلهو مع ابنها ذي العامَيْن، قررتْ أنَّ بوسعِها التفكير في أن يكون لها، هي أيضاً، زوج وأطفال وبيت مطل على البحر، لكنها لن تقع في الحب ثانيةً أبداً، لأن الشغف يُفسد كل شيء.

هكذا مضت سنواتُ مراهقةِ ماريا. كانت تزداد جمالاً، وتجذبُ هيئتُها الغامضةُ والحزينة رجالاً كثيرين. خرجت مع هذا أو ذاك، حلمتْ وعانت ـ رغم الوعد الذي قطعته على نفسها بعدم الوقوع في الحب ثانيةً قط. وفي أحد تلك اللقاءات فقدتْ عذريتَها فوق المقعد الخلفي لسيارة. كانت هي وصديقها يداعب أحدهما الآخر باضطرامٍ يفوق المعتاد. تحمَّسَ الصبيُ، وسمحت له ماريا، سئِمَةً من كونها آخر عذراء في مجموعتها، بولوجِها. وعلى عكس الاستمناء الذي يرفعها إلى السماء فقد كان الأمر مؤلماً وحسب. ولطخ خيطٌ من الدم تنورتَها. لم يغمرها الإحساسُ السحري للقبلة الأولى ـ طيور مالك الحزين المحلقة، غروب الشمس، الموسيقى... لا، أرادت نسيان ذلك كله.

كررت ممارسة الجنس بضع مراتٍ مع الصبي نفسه، بعد أن أنذرته بأنه قد يُقتَل إذا اكتشف أبوها بأن بكارة ابنته قد فُضَّت. جعلت منه أداةَ تَعلُّم، ساعيةً بكل الوسائل لفهم مَكمَن متعةِ العلاقة الجنسية مع شريك.

عبثاً. كانت العادة السرية تتطلب جهداً أقل بكثير، وتقدم متعاً أكثر. لكن المجلات وبرامج التلفزيون والكتب والصديقات، كل شيء، قطعاً كل شيء، كان ينصُّ على ضرورة وجود رجل. ظنت ماريا أن لديها مشكلة جنسية مخجلة، ركزت أكثر على دراستها ونسيت لبعض الوقت ذلك الشيء البديع والسفّاح الذي يسمونه الحب.

مقطع مأخوذ من يوميات ماريا في سن السابعة عشرة:

غايتي هي أن أفهم الحب. أعرف أني كنت حيةً عندما أحببت، وأعرف أن كل ما أملكه الآن، مهما بدا مهماً، لا يثير حماسي كثيراً.

لكن الحب رهيب: رأيتُ صديقاتي يعانين، ولا أريد أن يحدث لي ذلك. هنَّ، اللواتي كنّ فيما مضى يسخرن مني ومن براءتي، يسألنني الآن عما أفعله لكي أتمكّن من السيطرة بهذه المهارة على الرجال. أبتسم وأصمت، لأني أعرف أن العلاج أسوأ من الألم نفسه: إني ببساطة لا أقع في الحب. كل يوم يمرّ أرى بوضوح أكبر كم الرجالُ قابلونَ للكسر، متقلّبون، قليلو الثقة بأنفسهم، مفاجِئون... قدَّم لي بعضٌ من آباءِ صديقاتي مبادراتٍ رفضتُها. صدمني الأمر في البداية، لكني أرى الآن أن هذا جزء من طبيعة الذكور.

رغم أن غايتي هي فهم الحب، ورغم أني تألمتُ بسبب مَن أسلمتُهم قلبي، يتبين لي أن أولئك الذين لمسوا روحي لم يتمكنوا من إيقاظ جسدي، وأولئك الذين لمسوا جسدي لم يستطيعوا الوصول إلى روحي.

في التاسعة عشرة أنهت ماريا دراستها الثانوية، ووجدت عملاً في متجر أقمشةٍ وقعَ صاحبُهُ في حبِّها - في تلك المرحلة، كانت تعرف كيف تستفيد من الرجل دونِ أن يستفيد منها. لم تسمح له بملامستها قط، مع أنها بدتْ متملِّقةً دوماً، لأنها كانت تعرف سطوةَ جمالها.

سطوةُ الجمال: كيف يمكن أن يكون العالم بالنسبة للنساء القبيحات؟ كانت لها صديقات لا يَنظر إليهن أحدٌ في الأعياد، ولا يسألهن أحد: «كيف حالك؟» ومهما بدا ذلك صعب التصديق فإن تلك الفتيات كنّ يولين كثيراً من الأهمية للقليلِ من الحب الذي يتلقَّيْنَهُ، يتألمن بصمت عندما يُهجَرن، ويبذلن جهدهنّ كي لا يَبنين مستقبلَهُنّ على الأمل المشكوكِ فيه بنيلِ إعجابِ أحد. كن أشدَّ استقلاليةً، ويُكرِّسْن أنفسهن أكثر لأنفسهنّ، مع أن العالم، في ظنِّ ماريا، يبدو لهنّ لا يُطاق حتماً.

أما هي، فكانت تعي جمالها. ورغم نسيانها دوماً لنصائح أمها، ثمة نصيحة واحدة أبقتها في رأسها: «الجمال لا يدوم يا ابنتي». لذا، حافظتْ مع رئيسها على علاقة ليست بالقريبة ولا بالبعيدة، مما انعكس في زيادةِ راتبٍ معتَبَرة (لم تكن تعلم كم من الوقت ستنجح في الحفاظ عليه، فقطْ من خلال الأمل بالنوم معها يوماً، ولكن، طالما دام ذلك، كانت تكسب لقمة عيشها على نحوٍ جيد)، فضلاً عن العلاوة التي تتقاضاها لقاء الساعات الإضافية

(كان الرجل، في نهاية المطاف، يحب أن تتواجد بجانبه، ربما يخشى، إن هي خرجتْ مساءً، أن تلتقي بشخصٍ تحبه حبها الكبير).
عملتْ أربعةً وعشرين شهراً دون انقطاع، واستطاعتْ أن تدفع لأبويها إيجاراً، وأخيراً، أيّ نجاح! جمعت المال اللازم لقضاء عطلة أسبوع في مدينة أحلامها، مدينةِ الفنانين، واجهةِ بلدها: ريو دي جانيرو!

اقترح رئيسُها مرافقتَها ودفْعَ جميعِ نفقاتها. كذبت ماريا متذرّعةً بأنّ شرطَ أمها الوحيد هو النوم عند قريبٍ لها يمارس المصارعة اليابانية، كَوْنها تقصد واحدةً من أخطر المدن.

«إلى ذلك يا سيدي، تابعتْ، ليس بوسعك تركُ المتجر هكذا دون شخص موثوق يهتمّ به.

«لا تُسَمِّني «سيدي»، قال، ورأت ماريا في عينيه شيئاً سبق أن عرفته: شعلة الهوى. فوجئت بذلك. كانت تظن أن هذا الرجل لا يهتم إلا بالجنس. لكن نظرته تعلن العكس: «أستطيع منحَكِ بيتاً وأسرة وبعض المال لأبويك». وقررت، مفكِّرةً بالمستقبل، أن تؤجج ناره.

صرّحت بأنها ستشتاق إلى هذا العمل الذي تحبه كثيراً، وإلى الناس الذين تحب أن تكون بقربهم (راعت عدم تسمية أحد بعينه لكي يبقى الغموض مخيّماً: هل من الممكن أن يكون هو المقصود بـ «الناس»؟)، ووعدت أن تعتني جيداً بمحفظتها وبسلامتها. لكن الحقيقة شيء آخر تماماً: أرادت ألا يأتي أحد، أياً كان على الإطلاق، ويفسد عليها أسبوعها الأول من الحرية الكاملة. كانت تنوي أن تسبح في البحر، تثرثر مع أناس مجهولين، تتفرج على الواجهات، تُظهِر الجاهزية من أجل أن يظهر فتى الأحلام ويخطفها إلى الأبد.

«ما الأسبوعُ في النهاية؟» قالت بابتسامةٍ مغرية، متمنيةً بقوةٍ

أن تكون مخطئة: «إنها مدة تنقضي بسرعة، وسأعود قريباً وفيةً لالتزاماتي».

جاهَدَ رئيسها قليلاً أيضاً، شاعراً بالأسف، لكنه في النهاية استسلم، لأنه كان يخطط سراً لمشروعِ طلبِها للزواج فورَ عودتها، ولم يشأ إفساد كل شيء بإظهارِ أكثر مما يجب من الإقدام.

أمضتْ ماريا ثمان وأربعين ساعة في الأوتوكار، مسافةَ الطريق، قبل أن تنزل في فندق من الدرجة الخامسة في كوباكابانا. (آه! كوباكابانا! الشاطئ، السماء...) وحتى قبل أن تفتح حقائبها تناولت لباس بحر بكيني ـ اشترته حديثاً ـ ، لبسته، ورغم الطقس الغائم ذهبت إلى الشاطئ. نظرت بخشية إلى البحر، لكنها نزلت في النهاية إلى الماء بخجل.

لم يلاحظ أحد على الشاطئ أن هذه الفتاة تعيش أول احتكاك لها مع المحيط، مع الربّة إيبيمانخا، مع التيارات البحرية، مع زبد الأمواج، وشاطئ أفريقيا المأهولة بالأسود في الناحية الأخرى. عندما خرجت من الماء اقتربت منها امرأة تبيع شطائر صحية، وشخص أسود جميل سألها إذا كانت حرة ذلك المساء، ورجل لا يتكلم كلمة بالبرتغالية، لكنه دعاها بالإيماءات إلى شربِ ماء ثمرة جوز هند.

اشترت ماريا الشطيرة، لأنها خجلت أن ترفض، لكنها تجنبت الكلام مع الرجلين. شعرت بالحزن يسيطر عليها؛ الآن، وقد أصبح بإمكانها أن تفعل ما تريد، لماذا تتصرف على هذا النحو المؤسف؟ ولعدمِ وجود تفسير جلست بانتظار عودة ظهور الشمس المختفية وراء الغيوم.

ظهر الغريب مع ثمرة جوز هندٍ قدَّمها لها. شربتْ ماء الثمرة

مسرورةً لعدم اضطرارها للكلام معه، ابتسمتْ، وابتسم هو بدوره. اقتصرا لبرهةٍ على هذا الشكل المريح من التواصل الذي لا يُلزِم بشيء ـ ابتسامة من هنا، وابتسامة من هناك ـ إلى أن أخرج الرجل من جيبه قاموساً صغيراً بجلدٍ أحمر، وقال بلكنةٍ غريبة: «جميلة». ابتسمت مجدداً. لا شك أنها تحب أن تلتقي بفتى أحلامها، لكنه يجب أن يتكلم لغتها ويكون أقلّ عمراً بقليل.

قال الرجل ملحّاً وهو يتصفح الكتاب: «نتعشى اليوم؟» وسرعان ما أضاف: «سويسرا!» ثم نطق بتلك الكلمات التي ترنّ مثل أجراس النعيم، أياً كانت اللغة التي تُنطق بها: «عمل! دولار!»

لم تكن ماريا تعرف مطعم «سويسرا». هل يمكن أن تكون الأمور بهذه السهولة وتتحقق الأحلام بهذه السرعة؟ الأفضل أخذ الحذر: شكراً جزيلاً على الدعوة، أنا مشغولة، وأيضاً لا أريد شراء دولارات.

بدأ الرجل الذي لم يفهم كلمة من جوابها يشعر باليأس؛ وبعد بضع ابتسامات من هنا، ومثلها من هناك، تركها بضع دقائق وعاد مع مترجم فوري. شرح لها بوساطته بأنه قادم من سويسرا (لم يكن ذلك اسم مطعم، بل بلده الأصلي)، وأنه يود حقاً تناول العشاء معها لأن لديه عملاً يعرضه عليها. أضاف المترجمُ الذي يعمل حارساً شخصياً في الفندق الذي نزل فيه الرجل، ويساعده في تحركاته، قائلاً على انفراد: «لو كنتُ مكانكِ لقبلتُ. هذا الرجل مدير فني مهم، وجاء إلى البرازيل بحثاً عن مواهب جديدة لتشغيلها في أوروبا. إذا شئتِ قدمتُ لك بعضَ مَن قبلن عروضه فيما مضى: أصبحن غنيات. اليوم تزوجن ورزقن بأبناء هم في منجىً من البطالة وليس لهم أن يخشوا الاعتداءات». وأوضح، بهدف إبهارها بثقافته الكونية: «فضلاً عن ذلك، إنهم يصنعون في سويسرا أنواع شوكولا ممتازة وساعات».

تتلخّص خبرة ماريا الفنية في قليل من الأشياء: فقد مثلت دور بائعة ماء - دور صامت - في مسرحية شغف *المسيح* التي يُعاد تقديمها دوماً أثناء الجمعة الحزينة. ورغم أنها نامت نوماً سيئاً في الأوتوكار، فقد كانت مستَثارةً بسبب البحر، سئمةً من تناول الشطائر الصحية وغير الصحية، ومحرَجَةً لعدمِ معرفتها أحداً في ريو، وتحتاج بسرعة أن تلتقي بصديق. سبق أنَ عاشت هذا النوع من المواقف التي يُكثِرُ فيها رجلٌ من الوعود ولا يفي بأي منها، بحيث أنها كانت تعلم أن حكاية المدير الفني تلك لم تكن سوى وسيلة غايتُها إثارةُ اهتمامِها بعرضٍ تظاهرت بردِّه.

لكنها أكيدةٌ من أن العذراء هي التي منحتها هذه الفرصة، ومقتنعةٌ بضرورةِ الاستفادة من كل لحظة من أسبوع العطلة هذا، ومتيقِّنةٌ من أنها أمام طُرفةٍ نفيسةٍ للسرد عند العودة، قررت قبول الدعوة - شرط أن يرافقهما المترجم لأنها تعبت من الابتسام ومن التظاهر بفهم كلام الأجنبيّ.

المشكلة الوحيدة كانت الأخطر أيضاً: ليس لديها ما ترتديه للمناسبة. فالمرأة لا تعترف بأسرارها الحميمة قط (من الأسهل عليها قبول خيانة زوجها، على الإقرار بحالة خزانة ثيابها)؛ مع ذلك، وباعتبارها لا تعرف هذين الرجلين وربما لن تلتقي بهما ثانيةً أبداً قررت ماريا أنه ليس هناك ما تخسره: «لقد وصلتُ للتو من الشمال الشرقي، ولا أملك ما أرتديه للذهاب إلى المطعم».

رجاها الرجلُ، بوساطة المترجم، ألا تقلق بهذا الشأن وطلب منها عنوان فندقها. عصراً بالذات استلمتْ فستاناً لم تر مثله في حياتها، ومعه زوج أحذية، يعادل ثمنهُ حتماً ما تكسبه في عام.

شعرت أنه هاهُنا تبدأ المغامرة التي اشتهتْها بحرارةٍ أثناء طفولتها ومراهقتها في السرتّوْن البرازيلية - مدينة الجفاف

والشبان الذين لا مستقبل لهم، المدينة النزيهة إنما الفقيرة، مدينة الحياة الروتينية وعديمة الأهمية: كانت تعدُّ نفسَها لتصبح أميرة الكون! ثمة رجل قدَّمَ لها للتو عملاً، دولاراتٍ، زوج أحذية فاخراً وفستاناً خرافياً! ينقص المكياج. لكن موظفة الاستقبال أقبلت، بدافع التضامن، لنجدتها، محذّرةً إياها كما ينبغي بأنه ليس جميعُ الأجانب جديرين بالثقة، وليس جميعُ أهل ريو دي جانيرو سَفَلَةً.

تجاهلت ماريا التحذير. لبست هديةَ السماء تلك، وأمضت ساعات أمام المرآة وهي تتأسف لأنها لم تُحضر آلة تصويرٍ لالتقاط تلك اللحظة، قبل أن تنتبه إلى أنها تأخرت عن موعدها. خرجت راكضةً مثل سندريلا، ووصلت إلى الفندق الذي نزل فيه السويسري.

أعلن لها المترجم على الفور، أمام مفاجآتها، أنه لن يرافقهما:

«لا تهتمي بشأن اللغة. المهم هو أن يشعر بالارتياح معك.

ـ ولكن ما العمل إذا لم يفهم ما أقول؟

ـ لن يكون هناك حاجة لتبادل الكلام. إنها مسألة طاقات».

كانت ماريا تجهل معنى ذلك. عندما يلتقي الناس في مدينتها يحتاجون لتبادل جمل، أسئلة، أجوبة. أما مايلسون ـ هكذا يدعى المترجم/الحارس الخاص ـ فقد أكد لها بأن الأمور في ريو دي جانيرو وبقية العالم تجري بطريقة أخرى.

«لا تحاولي أن تفهمي. تدبري أمرك فقط لكي يشعر بالارتياح. الرجل أرمل، بدون أبناء، صاحب ملهى ليلي، ويبحث عن برازيليات راغبات بالعمل في الخارج. قلتُ له بأنكِ لستِ من هذا النوع لكنه أصرّ. يدَّعي بأنه وقع في الحب حالما رآكِ تخرجين من الماء. كما أنه وجد البكيني الذي ترتدينه جميلاً».

صمت قليلاً. «بصراحة، إذا أردتِ أن تجدي لك حبيباً هنا يجب أن تغيِّري موديل البكيني. عدا عن هذا السويسري لن يجد فيه أحدٌ في العالم أية جانبية: إنه موضة قديمة جداً».

تظاهرت ماريا بأنها لم تسمع. تابع مايلسون: «في رأيي إنه لا يرغب فقط بخوض مغامرة معك؛ بل يرى أنك تملكين ما يكفي من الموهبة لكي تصبحي أداة الجذب الرئيسية في ملهاه. صحيح أنه لم يرَكِ تغنين أو ترقصين، لكن هذا يمكن تعلُّمه، أما الجمال فيولد مع المرء. هؤلاء الأوروبيون! يأتون إلى هنا معتقدين بأن البرازيليات جميعاً فتيات شهوانيات ويُجِدن رقص السامبا. وإذا كانت نواياه جدية أنصحكِ بالمطالبة بعقد موقَّع قبل مغادرة البلد ـ مع توقيع مُصادَق عليه من القنصلية السويسرية ـ. سأكون غداً على الشاطئ أمام الفندق. تعالي إليّ إذا راودَكِ شكّ».

أمسكها السويسري من ذراعها مبتسماً، وأشار لها إلى السيارة التي تنتظرهما.

«إذا كانت لديه نوايا أخرى، وأنت كذلك، فإن تعرفةَ الليلة الواحدة هي ثلاثمئة دولار. لاتقبلي أقلَّ من ذلك».

قبل أن تتمكن من الرد، كانت السيارة قد أقلعت في الطريق إلى المطعم. اقتصرت المحادثة على الحد الأدنى: «عمل؟ دولار؟ نجمة برازيلية؟»

كانت ماريا ما تزال تفكر بتعليق المترجم: ثلاثمئة دولار لقاء ليلة! يا لها من ثروة! لم تكن بحاجة أن تُضني نفسها من الحب، كان بوسعها أن تُغوي هذا الرجل مثلما فعلت مع رئيسها، أن تتزوج وتنجب أطفالاً، وتؤمّن لأهلها حياة مريحة. ما الذي ستخسره؟ كان عجوزاً، ربما لا يلبث أن يموت، وتصبح غنية. في نهاية المطاف، عبثاً جمعَ السويسريون الثروات، كأنّ النساءَ نادراتٌ في بلدهم.

كانا قليلي الكلام أثناء العشاء ـ ابتسامة من هنا وابتسامة من هناك. فهمت ماريا شيئاً فشيئاً ما تعنيه «مسألة طاقات» ـ وعرض أمامها الرجل ألبوماً يضم وثائق مختلفة كتبت بلغةٍ لا تعرفها؛ قُصاصات صحف، صور نساء بالبكيني (أكثر ملاءمة وجرأةً بالتأكيد من ذاك الذي كانت ترتديه عصر هذا اليوم)، لوحات صغيرة صارخة، كل ما فهمته منها هو كلمة Brazil مكتوبة بخطأ إملائي (ألم يعلّموه في المدرسة أنها تُكتب بحرف s؟). شربت كثيراً خوفاً من أن يعرض هذا السويسري عليها عرضاً مخزياً (لا أحد يستطيع أن يَحتَقر ثلاثمئة دولار، وقليل من الكحول كفيل بتسهيل الأمور، خاصةً في غيابِ أشخاصٍ من المَعارف). لكن الرجل تصرف كجنتلمان إلى درجةٍ دفعِ الكرسي لها عندما تجلس أو سحْبِه عندما تنهض. في نهاية السهرة تذرعت بالتعب واقترحت موعداً في اليوم التالي على الشاطئ (حددت التوقيت على ساعتها، وقلدت بيدها حركة الأمواج، ولفظت ببطءٍ شديد «في الغد»). بدا راضياً، ونظر هو أيضاً إلى ساعته (التي قد تكون سويسرية) وأفهمها أن الموعد يناسبه.

نامت نوماً سيئاً. حلمت أن كل ذلك ليس سوى حلم. استيقظت وتحققت من أن الأمر ليس كذلك: كان هناك بالفعل فستان فوق كرسيّ غرفتها المتواضعة، وزوج جميل من الأحذية ـ وموعد قادم على الشاطئ.

من يوميات ماريا، يوم تعرفت على السويسري:

كل شيء يقول لي بأني أتهيأ لاتخاذ قرار خاطئ، لكن الأخطاء هي طريقة لكي نتقدم. ماذا يريد العالَم مني؟ أن لا أُخاطِر؟ أن أعود من حيث أتيت دون أن أجرؤ أن أقول نعم للحياة؟

سبق أن ارتكبتُ غلطةً وأنا في سنّ الحادية عشرة وجاء صبي يطلب مني إعارته قلماً؛ فهمتُ أنه أحياناً لا توجد فرصة ثانية، وأن من الأفضل قبول الهدايا التي يقدمها العالم لك. هذه مخاطرة طبعاً، لكن هل هي أخطر من حادث في الأوتوكار الذي استغرق ثمان وأربعين ساعة لكي يوصلني إلى هنا؟ إذا كان لا بد لي أن أكون مخلصة لأحدٍ ما أو لشيء ما عليّ أولاً أن أكون مخلصة لنفسي. إذا كنت أبحث عن الحب الحقيقي عليّ أولاً الانتهاء من علاقات الحب الأقلّ من عادية التي صادفتُها. والخبرة القليلة التي لديّ علّمتْني ألا أحد يتحكم بأي شيء، وأن كل شيء وهمٌ ـ وهذا ينسحب على كل شيء بدءاً من الممتلكات المادية حتى الممتلكات الروحية. مَن يفقد شيئاً كان يظنه مضموناً (ما حدث لي مراراً) يتعلم في النهاية بانه لا يملك شيئاً.

وإذا كنت لا أملك شيئاً لن أعود بحاجة للاهتمام بأشياء ليست لي؛ والأحرى أن أعيش كما لو أن اليوم هو أول يوم (أو آخر يوم) في حياتي.

في اليوم التالي أعلنت وهي برفقة مايلسون الذي أخذ مذاك وصاعداً يزعم بأنه مدير أعمالها، بأنها ستقبل الدعوة فورَ حصولها على وثيقة مصدَّقة من القنصلية السويسرية. أكَّد الأجنبي الذي بدا معتاداً على هذا النوع من الطلبات بأن تلك ليست رغبتَها هي فقط، بل رغبته هو أيضاً، لأن عليها، كي تعمل في بلده، الحصول على ورقة تثبت أنه لا أحد غيرها يستطيع ممارسة المهنة التي تقترح ممارستها. ولن يكون الحصول عليها شديد الصعوبة، كون السويسريات لا يملكن موهبة خاصة في رقص السامبا. اتجهوا معاً إلى مركز المدينة، طالبَ الحارس الخاص/المترجم/ مدير الأعمال بدُفعةٍ نقدية باسمهِ حالَ توقيعهما العقد، واحتفظ بثلاثين بالمئة من الخمسمئة دولار المقبوضة.

«هذا أجر أسبوع مقدَّماً. أسبوع، هل تفهمين؟ ستكسبين خمسمئة دولار في الأسبوع وبدون عُمولة، لأني لا أقبض إلا عن الدفعة الأولى!».

حتى ذلك الوقت لم يكن السفرُ بالنسبة لماريا، ولا فكرةُ الذهاب إلى النهاية الأخرى للعالم ، كل ذلك لم يكن أكثر من حلم - ويبقى الحلم شيئاً مريحاً طالما لسنا مجبَرين على تجسيد ما خططنا له. هكذا نجتاز أوقاتاً صعبة، ونتعرض لمخاطر وإحباطات، وعندما نشيخ نستطيع دوماً تحميل الآخرين -

الأفضل أن يكونوا آباءنا، أو شركاءنا وأطفالنا ـ ذنْبَ عدم تحقيقِ رغباتنا.

فجأةً توافرت لماريا الفرصة التي طالما تاقت إليها، لكنها تمنت ألا تتحقق أبداً! كيف يمكن مواجهة مخاطر حياة مجهولة وتحدياتها؟ كيف يمكن التخلي عن العادات كافة؟ لماذا قررت لها العذراء أن تذهب بعيداً بهذا الشكل؟

عزَّتْ ماريا نفسها قائلةً لنفسها بأنها تستطيع تغيير رأيها في أية لحظة، وأن هذا كله ليس أكثر من مزحة بلا عواقب ـ قصة خارقة ترويها للآخرين حين تعود. في نهاية المطاف كانت تسكن على بعد يزيد عن ألف كيلومتر من هنا، وفي جيبها الآن ثلاثمئة وخمسين دولاراً، وإذا قررت حزم حقائبها غداً والعودة إلى ديارها فلن يعرفوا أبداً أين اختبأت.

عصر اليوم التالي لزيارة القنصلية، قررت الذهاب وللنزهة بمفردها على الشاطئ، كي تتفرج على الأطفال وأمهاتهم، على لاعبي الكرة الطائرة، والمتسولين والسكارى وبائعي المصنوعات اليدوية النموذجية (المصنوعة في الصين)، والرياضيين وهم يقومون بتمارين لتأخير الشيخوخة، والسيّاح، والمتقاعدين يلعبون بالورق في طرف الشاطئ... لقد جاءت إلى ريو دي جانيرو، اكتشفت مطعماً من الدرجة الأولى وقنصليةً ورجلاً أجنبياً ومديرَ أعمالٍ، وأُهديَ لها فستان وزوج أحذية لا يستطيع أحد ـ لا أحد في الشمال الغربي إطلاقاً ـ شراء مثلها.

والآن؟

نظرت إلى الأفق: ما تعلمته في دروس الجغرافيا يؤكد أنه في المقابل تماماً توجد أفريقيا بأسودها وغاباتها المأهولة بالغوريلات. أما إذا اتجهت نحو الشمال أكثر قليلاً، فسوف تضع

قدمها في مملكة مسحورة تدعى أوروبا، حيث يوجد برج إيفل، وأورروديزني، وبرج بيزا. ماذا ستخسر؟ تعلمت رقص السامبا مثل جميع البرازيليات، حتى قبل أن تقول «ماما»؛ وإذا لم تعجبها هذه المهنة، يمكنها أن تعود، ولقد أدركتْ أن الفرص خُلقت لكي تُقتَنص على الفور.

وكونها قررت ألاّ تعيش سوى التجارب التي تستطيع السيطرة عليها، أمضت معظم وقتها وهي تقول «لا» متمنيةً أن تقول «نعم». إنها تقف الآن أمام المجهول - الشبيه بما كانَهُ يوماً هذا البحرُ بالنسبة للبحارة الذين يعبرونه، كما علّموها في دروس التاريخ. سيتوافر لها دوماً وقت لتقول «لا»، ولكن، هل ستقضي بقية أيامها في الشكوى؟ كانت ما تزال تفعل ذلك وهي تفكر بالصبي الذي طلب منها قلماً واختفى ومعه حبُها الأول!... لماذا لا تجرب هذه المرة أن تقول «نعم»؟

لسبب بسيط جداً: أنها فتاة تحب البقاء في البيت، ولا خبرة لها في الحياة سوى بضع سنوات من الدراسة في مدرسة محترمة، وثقافة واسعة في موضوع المسلسلات التلفزيونية، واليقين بأنها جميلة. وهذا لا يكفي لمواجهة العالم.

لمحت مجموعة من الناس يضحكون وهم ينظرون إلى البحر، كما لو أنهم يخشون الاقتراب منه. قبل يومين من ذلك شعرت بالخشية نفسها. أما الآن، فقد انتهى الأمر، باتت تنزل إلى الماء كلما قررت ذلك، كأنها ولدت هناك. أليس محتمَلاً أن يحدث الشيء نفسه في أوروبا؟

وجهت صلاةً صامتة لمريم العذراء، وبعد بضع ثوانٍ بدت راضيةً لاتخاذها قرار المضي بعيداً لأنها باتت تشعر بالحماية. باستطاعتها دوماً العودة، لكنها لا تملك دوماً فرصة الذهاب إلى مكان بهذا البعد. يستحق الأمر المخاطرة، طالما يستطيع الحلمُ

الصمود أمام ساعاتِ العودة الثماني والأربعين في الحافلة الخالية من التكييف، وطالما لم يغير السويسريُ رأيه.

كانت مستَثارةً إلى درجة أنه عندما دعاها هذا الأخير مجدداً للعشاء رسمت على وجهها هيئة شهوانية وأمسكت يده. سحبها الرجل حالاً وفهمت ماريا ـ ليس بدون شيء من الخوف ومن الارتياح ـ بأنه يتكلم حقاً بجدّ.

«نجمة سامبا! قال. نجمة سامبا برازيلية! السفر الأسبوع القادم!».

كل ذلك كان رائعاً، أما «السفر الأسبوع القادم»، فغير وارد قطعاً. شرحت ماريا بأنها لا تستطيع اتخاذ قرار مشابه دون استشارة عائلتها. أظهر السويسريّ، غاضباً، نسخة من الوثيقة الموقعة، وللمرة الأولى شعرت بالخوف.

«عقد!» قال مكرراً.

أرادت ماريا، نتيجة تصميمها على المضي في هذا السفر، استشارة مايلسون، مدير أعمالها ـ ألا يتقاضى أجراً لأجل مساندتها؟

لكن مايلسون بدا مهتماً أكثر بغوايةِ سائحةٍ ألمانية نزلت حديثاً في الفندق، وتتشمّس عارية الصدر فوق الرمال، مقتنعةً بأن البرازيل هي البلد الأكثر ليبراليةً في العالم (دون أن تنتبه إلى أنها الوحيدة التي عرت صدرها، وإلى أن الآخرين ينظرون إليها بنوع من الضيق). وجدت ماريا شيئاً من الصعوبة في إثارة اهتمامه.

«وإذا غيرتُ رأيي؟ قالت ملحّةً.

ـ لا أعرف ماذا كتب في العقد، لكنه ربما يضعك في السجن.

ـ لن يجدني قط!

ـ معك حق. لا تشغلي بالك إذن».

بيد أن السويسريّ الذي أنفق خمسمئة دولار، ودفع ثمن زوج أحذية وفستان، وعشائين ومصاريف التسجيل في القنصلية، بدأ يقلق لدرجةٍ أنه قررَ، أمام إلحاح ماريا على الذهاب لرؤية عائلتها، شراء بطاقتي طائرة، ومرافقتها حتى بيتها ـ شرط تسوية كل شيء في ثمانٍ وأربعين ساعة، والسفر إلى أوروبا في الأسبوع القادم، وفقاً لما أُبرم. ابتسامة من هنا وابتسامة من هناك، فهمت أخيراً أن ذلك كله ناجم عن الوثيقة التي وقعت عليها، وأن على المرء ألا يتسلى بالغواية والمشاعر والعقود.

سادَ في مسقط رأسِها شعورُ المفاجأة والاعتزاز لرؤية ماريا الجميلة، ابنة البلد، تأتي وبرفقتها شخص أجنبي يرغب أن يجعل منها نجمةً كبيرة في أوروبا. علم كل الجوار بالأمر، وسألتها صديقاتُ الدراسة: «كيف حدث ذلك؟»

ـ واتاني الحظ».

أردن معرفة إذا كانت الأمور تسير دوماً على هذا النحو في ريو دي جانيرو، لأنهن رأين مغامرات من هذا النوع في المسلسلات التلفزيونية. لم تجب ماريا بالنفي ولا بالإيجاب، بهدف إضفاء القيمة على حالتها الشخصية، وإقناعهن بأنها كائن استثنائي.

ذهبا إلى بيتها حيث قام السويسري مجدداً بعرض الصور والبروشورات المخصصة للبرازيل (مكتوبة بحرف z)، والعقد، فيما راحت ماريا تشرح بأن لديها الآن مدير أعمال، ونيّة خوضِ غمار مسيرة فنية. ولدى رؤية أمها لحجم البكيني الذي ترتديه الفتيات في الصور، أعادَتْها على الفور وأبت أن تطرح الأسئلة. كل ما كان يهمها هو أن تكون ابنتها سعيدة وغنية ـ أو تعيسة ولكن غنية.

«ما اسمه؟

- روجيه.

- روجيريو! كان لي ابن عم يحمل هذا الاسم».

ابتسم الرجل وصفّق، وتبيّن للجميع بأنه لم يفهم السؤال. قال الأب لماريا: «لكنه في عمري!».

رجَتْه الأم ألاّ يتدخل في سعادة ابنتها. وبما أن جميع الخيّاطات يثرثرن مع زبوناتهنّ، مما يكسبهن في النهاية خبرة كبيرة في موضوع الزواج والحب، فقد نصحتْ ابنتَها ماريا قائلةً: «حبيبتي، الأفضل أن تكوني تعيسة مع رجل غني، من أن تكوني سعيدة مع رجل فقير. أمامك هناك فرص أكثر بكثير لكي تكوني غنيةً تعيسة. وفوق ذلك، إذا لم تتيسر الأمور خذي الأوتوكار وعودي إلى البيت».

ولمجرد الاستفزاز أجابت ماريا، الفتاة ذات الذكاء الذي يفوق ما تتصوره أمها وزوج مستقبلها: «ماما، لا يوجد أوتوكار بين أوروبا والبرازيل. ثم إني أريد ممارسة مهنة فنية، ولا أبحث عن زوج».

نظرت إليها أمها بهيئةٍ شبه يائسة: «إذا استطعتِ الذهاب إلى هناك فإنك تستطيعين العودة من هناك أيضاً. المهن الفنية ممتازة للشابات، لكنها لا تدوم إلا طالما أنت جميلة، وتنتهي في حدود سن الثلاثين. اغتنمي الفرصة إذن، واعثري لنفسك على شاب نزيه محِبّ، وأرجوكِ، تزوجي. لا يجب التفكير في الحب أكثر مما يجب - لم أكن أحب والدكِ في البداية، لكن المال يشتري كل شيء، حتى الحب الحقيقي. مع هذا لم يكن والدك غنياً!»

كانت تلك نصيحة سيئة جداً من صديقة، لكنها نصيحةُ ممتازة من أمّ. وقبل عودة ماريا، بعد ثمان وأربعين ساعة إلى ريو، ذهبت

بمفردها إلى مكان عملها القديم، قدمت استقالتها واستمعت إلى رئيسها.

«علمتُ أن مدير أعمالٍ فرنسيّ كبير، قرر أخذكِ إلى باريس. لا أستطيع منعكِ من البحث عن السعادة، لكني أريدكِ أن تعلمي شيئاً قبل أن تسافري».

أخرج من جيبه سلسالاً عُلقت فيه ميدالية.

«إنها الميدالية الخارقة لـِ نوتر دام دي غراس. كنيستها موجودة في باريس. اذهبي إلى هناك واطلبي منها الحماية. انظري ماذا كُتب هنا».

قرأت ماريا الكلمات القليلة المحفورة على الميدالية: «يا مريم التي حبلت بلا دنس، صلّي لأجلنا نحن الذين نناشدك. آمين».

«لا تنسي أن تنطقي بهذه الجملة مرة واحدة في اليوم على الأقل، استأنفَ. وَ...»، تردَّدَ، لكن الأوان كان قد فات. «...إذا عدتِ يوماً اعلمي أني أنتظرك. أضعتُ فرصةَ قول شيء بسيط جداً لك: أحبكِ. ربما فات الأوان لكني أردتكِ أن تعلمي».

«أضعتُ الفرصة»، لقد عرفت باكراً جداً ما يعنيه ذلك. أما «أحبك» فهي جملة سمعتها كثيراً جداً خلال سنوات عمرها الاثنتين والعشرين، وبدت لها فاقدة لأي معنى، كونها لم تترافق بعاطفة جديةٍ عميقة، تتجسد في علاقة قابلة للدوام. شكرته ماريا على هذه الكلمات، وسجّلتْها في ذاكرتها (لا أحد يعرف ما تخبئه لها الحياة، ومن الجيد دوماً أن نعرف أين يقع مخرج النجاة). قبلتهُ قبلة رزينة على خدِّهِ، ومضت دون أن تنظر إلى الخلف.

بعودتها إلى ريو حصلت على جواز سفرها خلال يوم واحد بالكاد. («لقد تغيرت البرازيل حقاً»، علّقَ روجيه بمساعدةُ بضع كلمات بالبرتغالية وكمٌ من الإشارات، ما ترجمتْهُ ماريا بـِ: «في

السابق كان الأمر يستغرق وقتاً أطول بكثير»). قاما شيئاً فشيئاً، بمساعدة مايلسون، بآخر التحضيرات (ملابس، أحذية، ماكياج، كل ما يمكن أن تحلم به امرأة). شاهدها روجيه ترقص في ملهى ذهبا إليه عشيةَ سفرهما إلى أوروبا فهنّأ نفسه وقد غلبه الحماس، على خياره ـ إنه بالفعل أمام نجمة كبيرة من نجوم ملهى جِلبير، هي السمراء الجميلة ذات العينين الفاتحتين والشعر الأسود مثل جناحي الغراونا(*)، الطير الذي اعتاد الكتاب البرازيليون تشبيه الشعر الأسود بريشه. كانت شهادة العمل من القنصلية السويسرية جاهزة. حزما حقائبهما، وفي اليوم التالي طارا إلى بلد الشوكولا والساعات والأجبان، بينما كانت ماريا في السر تتصور مشروع وقوعِ هذا الرجل في غرامها. في نهاية المطاف، لم يكن مسناً ولا قبيحاً ولا فقيراً. ماذا تتمنى أكثر من ذلك؟

(*) كلمة من أصل هندي من أمريكا الجنوبية، وتدل على طير له ريش ضارب إلى البنفسجي أو الأزرق، بالتماعات معدنية، ومنقار أسود، معروف جداً في البرازيل والبلدان المجاورة.

وصلت منهكةً، ومنذ وطئت المطار عصَرَ الخوفُ قلبَها: اكتشفت أنها تابعة كلياً للرجل الماثل بجانبها ـ لم تكن تعرف البلدَ ولا اللغة ولا البرد. أخذ سلوك روجيه يتغير مع مرور الوقت؛ فقد كفَّ عن إظهار لطفه: لقد باتت نظرته نائية حتى لو لم يحاول أبداً تقبيلها أو مداعبة نهديها. نزل في فندق صغير وقدَّمها إلى برازيليَّة أخرى، وهي شابة ذات هيئة حزينة تدعى فيفيان، ستتكفل بتعليمها أصول عملها القادم.

بازدراء نظرت إليها فيفيان من القدمين حتى الرأس دون أي لطفٍ حيال غريبةٍ حديثة الوصول. وبدلاً من سؤالها عن شعورها، مضت مباشرةً إلى الهدف:

«لا تتوهَّمي. إنه يذهب إلى البرازيل كلما تزوجتْ إحدى راقصاته، والواضح أن هذا يحدث كثيراً. إنه يعرف ماذا يريد، وأظنك أنت أيضاً تعرفين. لاشك أنك جئتِ تبحثين عن أحد هذه الأشياء الثلاثة: مغامرة، مال أو زوج».

كيف أمكنها أن تحزر؟ هل يبحث الجميع عن الشيء نفسه؟ أم أن فيفيان تستطيع قراءة أفكار الآخرين؟

«جميع الفتيات هنا يبحثن عن أحد هذه الأشياء الثلاثة»، استأنفت فيفيان، وكانت ماريا مقتنعة بأنها تقرأ أفكارها. «بخصوص المغامرة، الجو أبرد من أن يجرب الإنسان أي شيء،

وفوق ذلك، لا يتبقَّى لنا قرش لأجل السفر. وبخصوص المال، سيكون عليك أن تعملي لمدة عام تقريباً كي تدفعي ثمن بطاقة عودتك، دون حساب الأجر المقتطع للإقامة والطعام.

ـ لكن...

ـ أعرف، ليس هذا ما تمّ ترتيبه. في الحقيقة، أنت التي نسيتِ أن تسألي ـ شأن الجميع أساساً. لو كنتِ أكثر انتباهاً، لو قرأتِ العقد الذي وقعتِ عليه، لعرفتِ على وجه الدقة أين ورّطتِ نفسك، لأن السويسريين لا يكذبون، لكنهم يعرفون كيف يستفيدون من الصمت».

مادت الأرض تحت قدمي ماريا.

«أخيراً، إنِ كل فتاة منّا تتزوج تُلحِقُ بـِ روجيه ضرراً اقتصادياً فادحاً. لذا يُمنع علينا الكلام إلى الزبائن. وإذا فعلتِ أي شيء بهذا الاتجاه تعرّضين نفسك لمخاطر كبيرة. هُنا، ليس مكاناً يلتقي فيه الناس، على عكس شارع برن».

شارع برن؟

«يأتي الرجال إلى هنا بصحبة زوجاتهم، والسيّاح النادرون الذين يجدون الجوّ عائلياً أكثر مما يجب، يذهبون إلى مكان آخر للبحث عن النساء. اعرفي كيف ترقصين؛ إذا كنت تعرفين الغناء أيضاً زادَ راتبُكِ، وكذلك زادت غيرةُ الأخريات. بالتالي، حتى إذا ملكتِ أجمل صوت في البرازيل، أقترح عليك أن تنسي ذلك ولا تجربي الغناء. وأهم شيء، لا تستعملي الهاتف، لأنك ستنفقين كل ما لم تكسبيه بعد، والذي يتلخّص في مبلغ زهيد للغاية.

ـ لكنه وعدني بخمسمئة دولار في الأسبوع!

ـ سوف ترين».

من يوميات ماريا خلال أسبوعها الثاني في سويسرا:

ذهبتُ إلى الملهى، التقيتُ بـ «معلِّم رقصٍ من بلد يدعى المغرب، وكان علي أن أحفظ كل خطوة مما يظنّه رقص السامبا، هو الذي لم تطأ قدمه البرازيل أبداً. لم يتوافر لي الوقت حتى لأرتاح من عناء السفر الطويل بالطائرة، وكان عليّ أن أبتسم وأرقص منذ المساء الأول. نحن ست فتيات، لا تشعر أي منهن بالسعادة ولا تعرف أي منهن ما الذي تفعله هناك. الزبائن يشربون ويصفقون، يرسلون القبَل ويقومون في الخفاء بحركات داعرة، وهذا كل شيء.

صُرف راتبي البارحة، ويبلغ فقط عِشْرَ ما اتفقنا عليه ـ الباقي سيُستخدم، وفقاً لهذا العقد، لدفع ثمن بطاقة سفري ونفقات إقامتي. وبناءً على حسابات فيفيان، سيحتاج الأمر إلى عام، أي أنني طوال تلك الفترة لا أستطيع الهرب إلى أي مكان.

ولكن، هل يستحق الأمر الهرب؟ وصلت للتو، ولا أعرف شيئاً بعد. ما المشكلة من الرقص سبع مساءات في الأسبوع؟ سابقاً كنت أفعل ذلك لأجل المتعة، الآن أفعله لأجل المال والشهرة؛ رِجلاي لا تشتكيان، وأصعب ما في الأمر هو الحفاظ على الابتسامة فوق الشفتين.

لي الخيار: أستطيع أن أكون ضحية من ضحايا العالم أو مغامِرة باحثة عن ثروتها. المسألة كلها هي معرفة كيف سأنظر إلى حياتي.

اختارت ماريا أن تكون مغامِرةً باحثةً عن ثروتها. تركت عواطفها جانباً، كفت عن البكاء طيلة الليل، ونسيت من كانت؛ اكتشفت أنها تريد أن تتصرف وكأنها قد ولدت للتو، فلا تشعر بالتالي بالحسرة لغيابِ أحد. يستطيع قلبُها الانتظار، أما الآن فيلزمها أن تكسب المال، وتكتشف البلد، وتعود غانمةً إلى بلدها.

فيما عدا ذلك، كل ما حولها يشبه البرازيل عموماً، ومدينتَها بشكل خاص: النساء يتكلمن البرتغالية، لا يتوقفن عن الشكوى من الرجال، يتناقشن بصخب، يحتججن على ساعات العمل، يتأخرن عن العمل، يتحدّين رب العمل، يعتقدن أنهن أجمل فتيات العالم، ويروين قصصاً عن فتيان الأحلام - فتيانُ أحلامهن متواجدون على العموم بعيداً جداً، أو متزوجون، أو لا يملكون مالاً ويعيشون من عملهنّ. على عكس ما تخيلته ماريا عند رؤية كراسات روجيه الدعائية، كان الجو مثلما وصفته فيفيان تماماً: عائلي. لا تستطيع الفتيات قبول الدعوات، ولا الخروج مع الزبائن لأنهن سُجِّلن كـ «راقصات سامبا» على بطاقات عملهن. وإذا بوغتن وهن يتلقين وريقة كُتِبَ فيها على عجلٍ رقمُ تلفون، حُرِمْن خمسة عشر يوماً من العمل. استسلمت ماريا شيئاً فشيئاً، وهي التي كانت تتوقع مزيداً من الحركة والانفعالات، لِتَفَشّي النكد والملل.

في الخمسة عشر يوماً الأولى نادراً ما غادرت النزل الذي سكنت فيه، خاصةً عندما اكتشفت أن أحداً في المدينة لا يتكلم

البرازيلية، وإن نطقت كل جملة ببطء. فوجئت أيضاً بأن المدينة التي تتواجد فيها حالياً، تحمل اسمين - فهي جنيف لسكانها، وجنيبرا للبرازيليات.

آخر الأمر، وخلال الساعات الطويلة التي قضتها في غرفتها الصغيرة التي ليس فيها تلفزيون، انتهت إلى ما يلي:

أولاً، لن تبلغ مرادها أبداً إذا لم تستطع قول ما تفكر فيه. لذا فإن عليها تعلّم اللغة المحلية.

ثانياً، بما أن جميع رفيقاتها يبحثن عن الشيء نفسه، فعليها أن تتميز عنهن. ولتحقيق ذلك لم يكن لديها حل ولا منهج.

من يوميات ماريا، بعد أربعة أسابيع من وصولها إلى جنيف:

أنا هنا منذ دهر، لا أتكلم اللغةَ، وأمضي النهار في سماع الموسيقى من الراديو، والنظر إلى جدران غرفتي، والتفكير بالبرازيل، منتظرةً بفارغ الصبر موعد العمل، أو منتظرةً موعد الرجوع إلى النزل عندما أعمل. أي أنني أعيش المستقبل بدلاً من الحاضر.

سأحصل ذات يوم، في مستقبل بعيد، على بطاقة عودتي. ربما أستطيع العودة إلى البّرازيل والزواج من صاحب متجر الأقمشة، والاستماع إلى التعليقات الشريرة للصديقات اللواتي لم يعرّضن أنفسهن قط لأي مخاطرة، ولا ينظرن بالتالي إلاّ لخسارة الآخرين. لا، لا أستطيع العودة بهذا الشكل؛ أُفضّل أن أُلقي بنفسي من الطائرة فوق المحيط.

بما أن نوافذ الطائرة لا تُفتح (هذا شيء لم أكن أتوقعه؛ أية خسارة ألا نستطيع استنشاق الهواء النقي!)، سأموت هنا بالذات. لكنني قبل أن أموت أريد أن أكافح من أجل الحياة. إذا كنت أستطيع السير وحدي سأذهب حيث أشاء.

منذ اليوم التالي ذهبت للتسجيل في دورة تعلُّم لغة فرنسية صباحية، تعرفت خلالها على أناس من جميع المعتقدات والأعمار، رجال ببزات فاقعة الألوان ومعاصم مثقَلة بسلاسل ذهبية، ونساء محجبات الرؤوس دوماً، وأطفال يتعلمون بشكل أسرع من الكبار - ألا ينبغي أن يكون العكس هو الصحيح، نظراً للخبرة الأكبر التي يملكها الكبار؟ شعرت بالفخر حينما علمت أن الجميع يعرفون بلدها: الكرنفال، السامبا، كرة القدم، والشخص الأشهر في العالم: «بيليه». أرادت في البداية أن تُبدي كياسةً وجهدت لتصحح اللفظ (بيليه! بيلييه!)، لكنها عدلت عن ذلك لأنهم كانوا يسمونها أيضاً «مارية»(*) - هذا الهوس الذي لدى الأجانب في تغيير كل الأسماء، والاعتقاد بأنهم محقون دوماً!

بعد الظهر مشت خطواتها الأولى في هذه المدينة المزدوجة الاسم، ولممارسة الفرنسية، تذوقت شوكولا لذيذة، وجبنة لم تأكل منها من قبل أبداً، واكتشفت نافورة ماء عملاقة وسط البحيرة، والثلج - الذي لم يطأه أحد من سكان مسقط رأسها، قط - وطيور التم، والمطاعم ذات الموقد (لم تدخلها أبداً لكنها رأت النار عبر النافذة، وقد منحها ذلك شعوراً لطيفاً بالرخاء). فوجئت أيضاً إذ لاحظت أن الملصقات ليست جميعها دعاية للساعات فقط، بل

(*) الاختلاف يكمن هنا في النبرة، بين وقوعها على أول الكلمة أو آخرها.

للمصارف أيضاً. ورغم عدم فهمها لسبب وجود كل هذا العدد من المصارف لهذا العدد القليل جداً من السكان، وتحقُّقِها من عدم وجود زحام داخل الوكالات المصرفية، فقد قررت عدم طرح أسئلة.

استطاعت ماريا، طيلة ثلاثة أشهر، احتواء طبيعتها الشهوانية والجنسية ـ المعروفة جداً لدى البرازيليات ـ ، لكن هذه الطبيعة استيقظت ذات يوم؛ فقد وقعت في حب عربيٍّ يدرس الفرنسية معها. دامت المسألة ثلاثة أسابيع، وذات مساء قررت أن تضرب كل شيء عرض الحائط، وتذهب إلى الجبل، قرب جنيف. عندما حضرت عصر اليوم التالي إلى عملها استدعاها روجيه إلى مكتبه.

بالكاد فتحت الباب حتى سُرِّحت من عملها دون مزيد من الشكليات، لأنها لعبت دور القدوة السيئة للفتيات الأخريات. أعلن روجيه، مُهَسْتِراً، أنه، مرة أخرى، خائب الأمل، وأن البرازيليات لا يمكن الوثوق بهن (يا إلهي لهذا الهوس في تعميم كل شيء!). عبثاً حاولت التأكيد بأن غيابها يعود فقط لحمّى قوية أصابتها بسبب تفاوت الحرارة. لم يقتنع الرجل، وأسِفَ لأنه مضطر للعودة إلى البرازيل للعثور على بديلة، مضيفاً أنه كان يَحسُن به إقامة عرض مع موسيقى وراقصات يوغوسلافيات، فهنّ أجمل بكثير وأجدر بالثقة.

لم تكن ماريا غبية رغم صغر سنها ـ خاصةً منذ أن شرح لها حبيبُها العربي أن العمل محكوم بقواعد صارمة في سويسرا، وأن بمقدورها القول بأنها أُخضِعت لشكلٍ من أشكال العبودية، كون المؤسسة تحتفظ بقسمٍ من راتبها.

عادت إلى روجيه في مكتبه، تكلمت مستخدمةً، هذه المرة، لغة فرنسية سليمة، وأدخلت كلمة «محامي» بين مفرداتها. خرجت من المكتب ببضع شتائم وخمسة آلاف دولار كتعويض ـ مبلغ لم تحلم

به قط، كل ذلك بفضل تلك الكلمة السحرية، «محامي». الآن بات بوسعها مصادقة العربي بحرية، وشراء بعض الهدايا، والتقاط صور للمناظر الثلجية، والعودة إلى ديارها قوية بالنصر الذي طالما حلمت به.

أول ما فعلته هو أنها اتصلت بجارةٍ لأمها لتقول بأنها سعيدة وأن أمامها مستقبل مهني جميل، وأنه لا يجب أن يقلق عليها أحد في البيت. بعد ذلك، ونظراً لأنها أُعطِيت مهلة لمغادرة غرفتها في النزل لم يبق أمامها سوى أن تعثر على العربي، وتُقسِم له بأن تحبه إلى الأبد، وتتحول إلى دينه، وتتزوج منه - حتى لو اضطرت لوضع أحد تلك الأغطية على رأسها - فالجميع هنا يعرفون بأن العرب أغنياء جداً، وذلك سبب كافٍ.

لكن العربي كان قد ابتعد، وشكرَت العذراء في أعماقها، لعدم اضطرارها إلى إنكار دينها. ونظراً لكون ماريا باتت من الآن وصاعداً تجيد الكلام بالفرنسية على نحو كافٍ، وتملك نقوداً لدفع ثمن بطاقة عودتها، وبطاقةَ عمل تصنِّفُها بين راقصات السامبا، وبطاقة إقامة جارية الصلاحية، ونظراً لمعرفتها أن بوسعها، كآخر وسيلة، الزواج من تاجر الأقمشة، قررت ماريا القيام بما تعرف أنها تستطيع القيام به: كسب المال بفضل جمالها.

قرأت في البرازيل كتاباً يروي قصة راعٍ يبحث عن ثروته، واعترضته مصاعب كثيرة، حصل بفضلها على ما يريد. تلك كانت حالها بالضبط. باتت تعي الآن تماماً أنها سُرِّحت لكي تلتقي بقدَرها الحقيقي: موديل وعارضة أزياء.

استأجرت غرفة صغيرة (بلا تلفزيون، فهي بحاجة للاقتصاد طالما لا تكسب المال)، وفي اليوم التالي استأنفت سعيها لدى الوكالات. أخبرها الجميع بوجوب ترك صور احترافية. كان ذلك

في الأساس استثماراً لمستقبلها المهني - فكل الأحلام باهظة الثمن. أنفقت قدراً معتبراً من نقودها عند مصوِّرٍ ممتاز، يتكلم قليلاً ويطلب الكثير: لديه خزانة ثياب هائلة في محله، وقفت أمامه بثياب بسيطة، شاذة، وحتى بمايوه بكيني كان سيجعلُ الشخصَ الوحيدَ الذي تعرفه في ريو دي جانيرو، الحارسَ الخاص - المترجم - ومدير الأعمال السابق، مايلسون، يموت من الزهوّ. طلبت سحب عدد إضافي من الصور وأرسلتها لأهلها مع رسالة تقول بأنها سعيدة في سويسرا. سيظنون بأنها غنية ولديها خزانة ملابس تثير الحسد، وأنها أصبحت أشهر فتاة في مدينتها الصغيرة - مسقط رأسها. إذا سار كل شيء مثلما تفكر (قرأت كتباً عديدة حول «التفكير الإيجابي» ولا يمكنها الشك بفوزها)، ستستقبلها فرقة موسيقية لدى عودتها، وربما يتم حتى إقناع الحاكم بافتتاح ساحة باسمها.

اشترت هاتفاً نقالاً وانتظرت في الأيام التالية أن يتم الاتصال بها لكي يُعرض عليها عمل. باتت تأكل في مطاعم صينية (الأرخص)، ولتمضية الوقت راحت تدرس كالمجانين.

لكن الوقت لم يكن يمضي والهاتف لا يرن. ولمفاجأتها لم يكن أحد يقترب منها عندما تتنزه على شاطئ البحيرة، عدا بضع تجار مخدرات يمكثون دوماً في المكان نفسه، تحت أحد الجسور الواصلة بين المتنزه القديم والمدينة الجديدة. أخذت تشك بجمالها، إلى يومٍ قالت لها فيه زميلة عمل سابقة التقت بها مصادفةً في أحد المقاهي، بأن الذنب ليس ذنبها، بل ذنب السويسريين الذين لا يحبون إزعاج أحدٍ، وذنب الأجانب الذين يخشون أن يجري إيقافهم بتهمة «التحرش الجنسي» وهو مفهوم اختُرع لكي تشعر كل نساء العالم بأنهن مَقيتات.

من يوميات ماريا، ذات مساءٍ لم يكن لها فيه شجاعةُ الخروج، والعيش، وانتظار اتصال هاتفي لا يحدث:

مررتُ اليوم أمام مدينة ملاهٍ. بما أني لا أستطيع أن أنفق بلا وعي، فقد فضلتُ المراقبة. بقيتُ وقتاً طويلاً أمام لعبة الجبال الروسية: كنت أرى أن معظم الناس يدخلون إلى هناك طلباً للانفعالات، ولكن ما أن تتحرك السيارات حتى يموتوا من الخوف متوسلين أن يتم إيقافها.

ما الذي يريدونه؟ أما كان يجدر بهم إذا اختاروا المغامرة، أن يكونوا مستعدين للذهاب حتى النهاية؟ أم كانوا يظنون أنه أكثر حصافةً عدم المرور عبر هذه الارتفاعات والانخفاضات، والبقاء فوق أرجوحة تدور في مكانها؟

أنا في هذه اللحظة أشدّ وحدةً من أن أفكر بالحب، لكن عليّ إقناع نفسي بأن هذا سينقضي، بأني سأجد العمل المناسب لي، وبأني هنا لاختياري هذا المصير. لعبة الجبال الروسية هي حياتي. الحياة لعبة عنيفة مذهلة؛ الحياة هي أن تلقي بنفسك بالمظلة وتخاطر بروحك، أن تقع وتنهض، هي تسلّق جبال، هي أن تريد صعودَ قمةِ نفسِك، وأن تكون غير راضٍ وقلقاً عندما لا تتمكن من ذلك.

ليس سهلاً أن أكون بعيدة عن أسرتي، عن اللغة التي أُعبّر بها عن جميع انفعالاتي وعواطفي. إلا أنني اعتباراً من اليوم، عندما

أكون محبَطة، سأتذكر مدينة الملاهي هذه. بماذا سأشعر لو أنني نمتُ واستيقظتُ فجأةً في الجبال الروسية ؟

حسناً، سينتابني أولاً شعور بأني سجينة، سأشعر بالخوف من الانعطافات، ورغبة بالإقياء والنزول من هناك. أما إذا كانت لدي قناعة بأن السكك هي قدَري، وأن الله يوجّه المقطورة، سيتحول الكابوس إلى إثارة. لا تعود الجبال الروسية إلا ما هي عليه، أداةَ تسلية مضمونة ولها نهاية. أحتاج في تلك الأثناء، وطيلة مدة الرحلة، أن أرى المنظر من حولي، وأصرخ من الحماس.

إذا كانت ماريا قادرة على كتابة أشياء ترى بأنها حكيمة جداً فإنها لم تكن تستطيع تطبيقها. تكررت لحظات الإحباط أكثر فأكثر، وبقي الهاتف صامتاً. ولكي تتسلى وتتمرن على اللغة الفرنسية في أوقات فراغها أخذت تشتري مجلات شعبية. وحين اكتشفت أنها بذلك تنفق الكثير بحثت عن أقرب مكتبة. شرحت لها أمينة المكتبة أنهم لا يعيرون المجلات، وأنها يمكن أن تقترح لها عناوين قد تُعينها على امتلاك الفرنسية أكثر.

«ليس لدي وقت لقراءة الكتب.

ـ ماذا؟ ليس لديك وقت؟ ماذا تعملين؟

ـ أشياء كثيرة: أدرس الفرنسية، أكتب يوميات و..

ـ وماذا؟».

كادت تقول «وأنتظر أن يرن الهاتف»، لكنها فضلت الصمت.

«أنت صغيرة يا ابنتي، والحياة أمامك. اقرئي. انسي ما قيل لك عن الكتب واقرئي.

ـ لقد قرأت الكثير».

تذكرت ماريا فجأةً ما أسماه مايلسون بالـ «طاقات». بدت لها أمينة المكتبة شخصاً حساساً وناعماً، قادراً على مساعدتها إذا

فشل كل ما تبقى. قال لها حدسها إنها يمكن أن تجد فيها صديقة. يجب أن تفوز بها.

«... لكني أريد أن أقرأ المزيد، أضافت ماريا. ساعديني من فضلك في اختيار الكتب».

جلبت لها المرأة كتاب الأمير الصغير. في المساء نفسه تصفحته ماريا، لاحظت رسمَيْ بدايته اللذين يمثلان قبعة - يقول المؤلف بأنهما في الحقيقة بالنسبة للأطفال رسما ثعبان ابتلع فيلاً. «لم أكن طفلةً قط، فكرتْ. بالنسبة لي هذا يشبه بالأحرى القبعة». ونظراً لعدم وجود تلفزيون فقد رافقت الأمير الصغير في جولاته، رغم حزنها كل مرةٍ يظهر فيها موضوع «حب» - لقد منعت نفسها من التفكير فيه تحت طائلة تعريض نفسها للانتحار. وفيما عدا المشاهد الرومانسية المؤلمة بين أمير وثعلب ووردة، كان الكتاب شيقاً، ولم تكن تتأكد كل خمس دقائقَ من شحنِ بطارية الهاتف النقال (كانت تخشى أن يتسبَّبَ إهمالٌ في ضياع فرصة رائعة منها).

أخذت ماريا تتردد إلى المكتبة، تثرثر مع أمينة المكتبة التي بدت هي أيضاً وحيدة جداً، تطلب اقتراحاتٍ، تتناقش معها عن الحياة والكتّاب - إلى أن أتى يوم تبدّدتْ فيه نقودُ التعويض الذي حصلت عليه؛ أسبوعان ولن يبقى معها حتى ثمن بطاقة عودتها.

وبما أن الحياة تنتظر المواقف الحرجة دوماً لتكشف عن براعتها، رن التلفون أخيراً.

بعد ثلاثة أشهر من اكتشافها كلمة «محامي»، وبعد شهرين من بدء العيش على التعويض الذي قبضته بتلك الطريقة، سألتْ وكالةُ تشغيل عارضات أزياءٍ إذا كان هذا رقم الآنسة ماريا. كان الجواب «نعم» باردةً تمرنتْ على النطق بها، كيلا يُستَشَفّ شيء من القلق. عرفتْ أن عربياً يعمل مسؤولاً كبيراً عن الموضة في بلده، قد أحبَّ

صورها جداً ويودُ دعوتها للمشاركة في عرض. تذكرت ماريا خيبتها قريبة العهد مع عربي آخر، لكنها فكرت أيضاً بالنقود التي هي بأمس الحاجة إليها. اتُفق على الموعد في مطعم فاخر جداً. فوجدت رجلاً أنيقاً، أكثر إغواءً ونضجاً من صاحبها السابق. سأل: «هل تعرفين لمن هذه اللوحة؟ لخوان ميرو. وهل تعرفين من هو خوان ميرو؟»

لزمت ماريا الصمت، كما لو أنها تُركِّز على الطعام المختلف حقاً عنه في المطاعم الصينية. لكنها كانت تسجّل عقلياً ملاحظات: عند زيارتها التالية إلى المكتبة يجب أن تستعلم عن خوان ميرو.

ألحّ العربيّ: «تلك الطاولة هناك كانت المفضلة لدى فيديريكو فلليني. ما رأيك بأفلام فلليني؟»

أجابت بأنها تعشقها. أراد العربي الدخول في التفاصيل، فقررت ماريا، وقد فهمت أن ثقافتها قد لا تصمد أمام الامتحان، المضي إلى الهدف مباشرةً: «لن أغشّ. كل ما أعرفه هو الفرق بين زجاجة كوكا وزجاجة بيبسي. ألا تريد الكلام عن عرض الأزياء؟»

بدا أن صراحة الشابة قد تركت عنده انطباعاً طيباً.

«سنتكلم عنها عندما نذهب لشربِ كأسٍ بعد العشاء».

خيَّمتْ لحظةُ صمت فيما كان أحدهما ينظر إلى الآخر ويتخيل ما الذي يفكر به.

«أنت جميلة جداً، استأنف العربي، إذا قبلتِ بتناولِ كأس معي في فندقي أعطيتك ألف فرنك».

فهمت ماريا على الفور. هل كان الذنْبُ ذنْبَ وكالةِ الأزياء؟ أم ذنبها هي، وهل كان عليها أن تستعلم أكثر حول موضوع العشاء؟ لا، لم يكن ذنْبَ الوكالة ولا ذنبها ولا ذنب العربي: الأمور تسير على هذا النحو. شعرت فجأةً بالحاجة إلى السرتون، إلى البرازيل، إلى

ذراعي أمها. تذكرت مايلسون وهو يذكر على الشاطئ مبلغ ثلاثمئة دولار. وجدت ذلك آنذاك نعمةً تَفُوق حقاً ما كانت تتمنى أن يصلها لقاء ليلة بصحبة رجل. تأكد لها في تلك اللحظة بأنه ليس لديها أحد تتكلم معه في العالم، لا أحد على الإطلاق. كانت وحيدة في مدينة غريبة، بسنوات عمرها الاثنتين والعشرين التي عاشتها بشكل جيد نسبياً، لكنها لا تُقدم لها أي عون من أجل اختيار أفضل جواب.

«مزيداً من النبيذ، من فضلكَ».

صبّ لها العربي نبيذاً، فيما راح تفكيرها يسافر أسرع من الأمير الصغير في جولته بين الكواكب. جاءت تبحث عن المغامرة، والمال، وربما الزوج؛ ولم تكن تجهل أن الأمر سينتهي بها إلى تلقّي عروض كهذاه. لم تكن بريئة، بل معتادة على سلوك الرجال. أما وكالات تشغيل عارضات الأزياء، النجاح، الزوج الثري، العائلة، الأبناء، الأحفاد، العودة المظفرة إلى بلدها الأصلي، فكانت ما تزال تؤمن بذلك كله. كانت تحلم بتخطّي جميع الصعوبات فقط بفضل ذكائها، وسحرها وقوة إرادتها.

انهالت الحقيقةُ للتو فوق رأسها، ولدهشةِ العربيّ أخذت تبكي. لم يعرف العربي ماذا عليه أن يفعل، وقد تَنازعَهُ خوفٌ من الفضيحة، وميلٌ غريزي ذكوري حقاً لممارسةِ الحماية. أشار إلى النادل أن يُحضر الحساب على عجل، لكن ماريا أوقفته: «لا تفعل. قدِّمْ لي مزيداً من النبيذ، ودعني أبكي قليلاً».

فكرت ماريا بالصبي الذي طلب منها قلماً، بالشاب الذي قبّلَها بفمِها المغلق، بسعادةِ اكتشاف ريو دي جانيرو، بالرجال الذين استخدموها دون أن يقدموا شيئاً بالمقابل. بمشاعر غرام وعلاقاتِ حبٍ ضائعة على طول طريقها. ورغم الحرية الظاهريةُ كانت حياتُها سلسلةً لا تنتهي من ساعاتٍ تقضيها في انتظار معجزةٍ، حبٍ حقيقي، مغامرةٍ لها تلك النهاية الرومانسية التي طالما

شاهدتها في السينما وقرأتها في الكتب. كتبَ أحدهم يوماً بأن الزمن لا يغيّر الإنسان، ولا الحكمة تغيره أيضاً ـ الشيء الوحيد الذي قد يدفع كائناً للتغيُّر هو الحب. يا للحماقة! لم يكن ذلك الكاتب يعرف سوى وجه واحد للأمور.

مؤكد أن الحب قادر على تغيير كل شيء في حياة شخص، خلال زمن لا يُذكر. ولكن ـ وذاك هو الوجه الآخر للأمور ـ من شأن شعور آخر أن يدفع الكائن البشري لاتخاذ وجهةٍ أخرى مختلفة تماماً عن تلك التي رمى إليها: اليأس. نعم، ربما يستطيع الحب تغيير إنسان ما، لكن اليأس قد يتمكن من ذلك على نحوٍ أسرع. هل عليها أن تغادر مسرعةً، أن تعود إلى البرازيل، تصبح أستاذة لغة فرنسية، وتتزوج من رئيس عملها السابق؟ هل عليها أن تَمضي أبعد قليلاً ـ ليلة واحدة فقط، في مدينة لا تعرف فيها أحداً ولا يعرفها أحد؟ هل ستدفعها ليلةٌ واحدة ومالٌ سهلُ الكسب للإمعان أكثر والمضي حتى نقطة اللاعودة؟ ما الذي يُرسم في هذه الدقيقة: فرصةٌ غير منتَظرة أم امتحان من مريم العذراء؟

كانت نظرة العربي تهيم فوق لوحةِ خوان ميرو، والمكانِ الذي تناول فيه فلليني عشاءه، والشابة المستخدمة في حجرة الملابس، والزبائن الداخلين والخارجين.

«أما كنتِ تعرفين؟

ـ مزيداً من النبيذ من فضلك»، كان الجواب الوحيد لماريا الدامعة العينين.

كانت تُصلّي لكي لا يقترب النادل ويكتشف ما يحدث. وكان النادل، الذي يراقب المشهد بطرف عينه، يصلي لكي يسدِّد الرجلُ المرافق للفتاة، الحسابَ بسرعة، لأن المطعم مليء والزبائن ينتظرون.

أخيراً، وبعد زمن بدا لها دهراً، تكلمت: «هل قلتَ كأساً مقابل ألف فرنك؟». هي نفسها اندهشت من نبرة صوتها.

«نعم، أجاب العربي، وقد بدأ يندم على هذا العرض. لكني لا أريد بأية حال...

ـ سدِّد الحساب، وهيا نشرب هذا الكأس في فندقك».

من جديد بدت غريبة عن نفسها. كانت حتى الآن فتاة لطيفة، مهذبة، مرحة، وما كانت أبداً لتستخدم هذه النبرة مع غريب. يبدو أن تلك الفتاة قد ماتت: ثمة حياة جديدة تنفتح أمامها، يعادل الكأسُ فيها ألفَ فرنك سويسري، أو، بعملةٍ أكثر عالمية، زهاء الستمئة دولار.

جرى كل شيء مثلما هو متوقع بالضبط: ذهبت إلى الفندق مع العربي، شربت الشمبانيا، ثملت تماماً تقريباً، باعدت ما بين ساقيها، انتظرت أن ينتشي (لم تفكر حتى بالتظاهر بأنها انتشت هي أيضاً)، اغتسلت في الحمام الرخامي، أخذت النقود ومنحت نفسها تَرَفَ العودة إلى غرفتها بالتكسي.

ارتمت فوق السرير ونامت نوماً بلا أحلام.

من يوميات ماريا، اليوم التالي:

أتذكّر كل شيء، عدا اللحظة التي اتخذتُ فيها قراري. لا ينتابني، على نحو يدعو للعجب، أي شعور بالذنب. اعتدتُ سابقاً أن أعتبر الفتيات اللواتي يعاشرن الرجال من أجل المال كائناتٍ لم تترك لها الحياةُ أي خيارٍ. أرى الآن أن ذلك ليس صحيحاً. كان بوسعي أن أقول نعم أو لا. لم يرغمني أحد على قبول أي شيء.

أمشي في الشوارع، أتفرج على المارة: هل اختاروا حياتهم؟ أم أنهم مثلي، قد «اختارهم» القدرُ؟ مدبِّرة المنزل التي كانت تحلم بأن تصبح موديلاً، موظف البنك الذي كان يفكر بأن يصير موسيقياً، طبيب الأسنان الذي كان يحب أن يكرِّس نفسه للأدب، الفتاة التي كانت تعشق العمل في التلفزيون لكنها لم تجد عملاً سوى أمينة صندوق في السوبر ماركت؟

لا أشعر بأي شفقة على نفسي. لستُ ضحية ومازلت كذلك، لأني كنت أستطيع الخروج من المطعم بكرامةٍ لم تُمَسّ وحافظة نقودٍ فارغة. كان بوسعي أن ألقّن ذاك الرجلَ درساً في الأخلاق، أو أحاول أن أبرهن له بأن أمامه أميرة، يجدر الفوز بها وليس شراؤها. كان بوسعي أن أتبنّى مواقف لا عَدَّ لها، لكني ـ شأن غالبية الكائنات البشرية ـ تركت القدر يختار الطريق التي يجب السير فيها.

لا شك أن مصيري قد يبدو أكثر لا شرعية وهامشية من

مصائر الآخرين، لكننا جميعاً في هذا البحث عن السعادة، متساوون، الموظف/الموسيقي، طبيب الأسنان/الكاتب، أمينة الصندوق/الممثلة، مدبرة المنزل/الموديل: لا أحد منا سعيد.

كان ذلك هو الأمر وحسب إذن؟ كان سهلاً إلى هذا الحد؟ كانت ماريا في مدينة غريبة لا تعرف فيها أحداً، وما شكَّل بالأمس عقوبةً، يمنحُها اليومَ إحساساً هائلاً بالحرية: لم تكن تحتاج لتقديم تفسيرات لكائنٍ من كان.

للمرة الأولى منذ سنوات قررت تخصيص النهار كله للتفكير بنفسها. كانت، حتى ذلك الوقت، تهتم دوماً بالآخرين: بأمها، برفيقات المدرسة، بأبيها، بموظّفي وكالة الأزياء، بأستاذ الفرنسية، بنادل المطعم، بأمينة المكتبة، بما يفكر به المجهولون في الشارع. في الواقع لم يكن أحدٌ يولي الغريبةَ المسكينةَ التي كانتْها أي تفكيرٍ خاص، وربما لن يلاحظ أحد ولا حتى الشرطة، غيابها إذا اختفت في الغد.

يكفي. خرجتْ باكراً، تناولت فطورها في المكان المعتاد، تنزهت قليلاً حول البحيرة، التقت بمظاهرة مهجَّرين. قالت لها امرأة معها كلب صغير بأنهم أكراد، ومن جديد، بدلاً من أن تتصرف ماريا على أنها أكثر ثقافة وذكاء مما هي عليه، سألت: «من أين جاء الأكراد؟»

ولمفاجأتها لم تعرف المرأة الجواب. العالم مصنوع هكذا: يتكلم الناس كأنهم يعرفون كل شيء، وإذا جرؤتَ أن تسألهم يتضح لك أنهم لا يعرفون شيئاً. دخلت ماريا مقهى إنترنت، واكتشفت على

الشبكة أن الأكراد شعب بدون دولة، وأن بلدهم، كردستان، مقسم اليوم بين تركيا والعراق. عادت من حيث جاءت لرؤية المرأة صاحبة الكلب الصغير، لكنها كانت قد ذهبت.

«هذا ما أنا عليه، أو بالأحرى هذا ما كنتُه: شخص يدّعي معرفة كل شيء، متحصِّن بصمتِه، ثم استفزَّني ذلك العربيُ إلى درجةٍ تشجَّعتُ معها وقلت بأن كل ما أعرفه هو الفرق بين الكوكا والبيبسي. هل صُدم؟ هل غيّر رأيه بشأني؟ إطلاقاً! لا بدّ أنه وجد تلقائيّتي مذهلةً. لطالما خسرتُ عندما أردت أن أبدو أكثر دهاءً مما أنا عليه: يكفي».

تذكرت مكالمةً وكالةٍ تشغيل عارضات الأزياء. هل كان أولئك الناس على علم بما يريده العربي ـ في هذه الحالة، لعبت ماريا مرة أخرى دور الفتاة الساذجة ـ أم أنهم ظنوا بالفعل أنه قد يعرض عليها عرضَ أزياء في بلد عربي؟

أياً كان الأمر، فماريا تشعر بقدر أقل من الوحدة في هذا الصباح الرمادي في جنيف؛ الحرارة تقارب الصفر، الأكراد يتظاهرون، حافلات الترامواي تصل في الموعد المحدد، المجوهرات يُعاد وضعُها في الواجهات، المصارف تفتح أبوابها، المتسولون نائمون، السويسريون يتّجهون إلى العمل. كانت أقل وحدة لأن بجوارها امرأة لا يراها المارةُ دون شك. لم تلاحظ ماريا حضورَها أبداً، لكنها كانت هناك.

ابتسمت ماريا لها: المرأة تشبه مريم العذراء، والدة يسوع. ردتْ لها المرأةُ ابتسامتها ورجتْها الانتباه، لأن الأشياء ليست بالبساطة التي تظنها. لم تعر ماريا أي اهتمام لهذه النصيحة، وأجابت بأنها راشدة ومسؤولة عن خياراتها، وأنها لا تستطيع الاعتقاد بوجود مؤامرة كونية ضدها. علمت أن هناك من هو

مستعد لدفع ألف فرنك سويسري لقاء أمسية معها، لقاء نصف ساعة بين ساقيها، وعليها ببساطة، في الأيام القادمة، أن تقرر إذا كانت بهذه الألف فرنك ستشتري بطاقة تعود بها إلى بلدها، أم أنها ستبقى في جنيف مدة أطول قليلاً، المدة الكافية لشراء بيت لأبويها، وثياب جميلة، وبطاقات سفر إلى بقاع العالم التي حلمت بزيارتها يوماً.

كررت المرأةُ الخفية، ملحّةً، بأن الأمور ليست بتلك البساطة، لكن ماريا، رغم رضاها عن هذا الحضور غير المتوقع، رجتها عدم مقاطعة أفكارها: كان عليها اتخاذ قرارات هامة.

عادت، بانتباهٍ أكثر هذه المرة، إلى تحليل احتمال العودة إلى البرازيل: صديقات المدرسة، اللواتي لم ينجحن قط في الخلاص من أوضاعهن الصعبة، سوف يروين بالتأكيد بأنها سُرّحتْ لعدم امتلاكها الموهبة اللازمة لكي تصبح نجمة عالمية. ستحزن أمها لأنها لم تتلقَّ الدخل الموعودَ أبداً - حتى إذا أكّدتْ ماريا في رسائلها بأن البريد هو الذي يسرق النقود. سينظر إليها أبوها بقية أيامه بهذا التعبير الذي يعني «كنتُ أعلم ذلك جيداً». ستعود للعمل في متجر الأقمشة الذي ستتزوج من صاحبِهِ... بعد أن سافرت بالطائرة، وأكلت الجبنَ السويسري في سويسرا، وتعلمت الفرنسية، ومشت في الثلج.

من جهة ثانية هناك الكؤوس ذات الألف فرنك. قد لا يدوم ذلك طويلاً - فالجمال يمضي بسرعةِ الريح - لكنها ستكسب، خلال عام، المالَ اللازم لكي تُملي بنفسها هذه المرة، شروطَ اللعب. مشكلتها الوحيدة الملموسة هي أنها لم تكن تعرف ماذا يجب أن تفعل، ولا من أين تبدأ. وحين كانت تعمل راقصة سامبا نوّهتْ فتاةٌ إلى مكان ما، شارع بِرْن.

استطلعت ماريا إحدى أكبر اللافتات التي تُشاهَد في كل مكان من جنيف تقريباً، وتحمل إعلاناتٍ فوق أحد جانبيها وخرائطَ المدينة فوق الجانب الآخر.

سألت رجلاً يقف هناك، إذا كان يعرف شارع برن. نظر إليها متحيّراً، وأراد أن يعرف إذا كان ما تسأل عنه هو ذلك المكان حقاً، أم أنه الطريق المؤدية إلى برن عاصمة سويسرا. «لا، أجابت ماريا، أسأل عن الشارع الموجود هناك بالذات». رمقها الرجل بازدراء من رأسها حتى قدميها وابتعد دون أن يقول كلمة، مقتنعاً بأن هناك من يصوره لصالح واحد من تلك البرامج التلفزيونية التي يجعلونكَ فيها، لسعادةِ الجمهور العارمة، مادةً للسخرية. بقيت ماريا مسمرة أمام الخارطة خمس عشرة دقيقة ـ لم تكن المدينة بهذا الكبر ـ وانتهت إلى العثور على المكان.

أما صديقتها الخفية التي لزمت الصمتَ طيلة تركيزِها على الخارطة، فقد حاولت الآن أن تُحاججها: ليست مسألةَ أخلاق، لكن ماريا تُعرّض نفسَها لخطرِ السيرِ في طريقٍ لا خلاص منه. ردت ماريا على هذا بأنها إذا استطاعت العثور على المال لمغادرة سويسرا فسوف تستطيع الخلاص من أية ورطة. أضف إلى ذلك فإن أيّ شخصٍ ممن تلتقي بهم لم يختَر العمل الذي يرغب فيه. ذلك هو الواقع.

«نحن في وادي الدموع، قالت للصديقة الخفية، يمكننا صُنعُ كمٍّ من الأحلام، الحياة صعبة، قاسية، تدعو للكرب. ماذا تريدين أن تقولي؟ بأني سأُدان؟ لن يعرف أحد بالأمر، ولن يدوم ذلك سوى فترة من الزمن».

وبابتسامةٍ رقيقة، لكنها حزينة، اختفت المرأة.

مشت ماريا حتى مدينة الملاهي، اشترت بطاقة إلى لعبة الجبال الروسية، وصرخت مثل الجميع، مدركةً تماماً عدمَ وجود

أي خطر، إذ أن ذلك ليس أكثر من تسلية. تناولت الغداء في مطعم ياباني دون معرفة ما تأكله، وقد اتضح لها فقط بأنه باهظ جداً؛ فهي منذ الآن وصاعداً مستعدة لمنع نفسها كل أشكال الرفاهية. كانت تحس أنها سعيدة، لا تحتاج لانتظار مكالمة هاتفية، ولا لحساب النقود القليلة التي تنفقها.

في آخر النهار اتصلت بالوكالة، قالت بأن اللقاء تم بنجاح، وأنهت بكلمات الشكر. لو كانوا أناساً جادّين فسوف يسألونها عن موضوع عرض الأزياء. وإذا كانوا يتصيَّدون النساء، فسيدبّرون لها لقاءات أخرى.

قررت عدم شراء تلفزيون بأية حال، حتى لو ملكت القدرة على ذلك: كان عليها أن تفكِّر، أن تستغل كل وقتها للتفكير.

من يوميات ماريا مساء ذلك اليوم (مع ملاحظة على الهامش تقول: «لستُ مقتنعة»).

اكتشفتُ الهدف الذي يجعل رجلاً يدفع المال لقاء صحبة امرأة: إنه يريد أن يكون سعيداً.

إنه لا يدفع ألف فرنك للوصول إلى هزة الجماع فقط. يريد أن يكون سعيداً. أنا أريد ذلك أيضاً، ولا أحد ينجح في ذلك. ما الذي أخسره إذا قررت التحول، لبعض الوقت، إلى ... الكلمة صعبة على التفكير والكتابة... ما المانع... ما الذي أخسره إذا قررت التحول إلى مومس لبعض الوقت؟

الشرف. الكرامة. احترام النفس. عند التفكير فيها جيداً، يتضح لي أنه لم يكن لدي يوماً أيٌّ من هذه الأشياء الثلاثة. لم أَطلب أن أولد. لم أنجح في جعلِ أحدٍ يحبني، لطالما اتخذتُ القرارات الخاطئة. الآن سأدع الحياةَ تُقرر لي.

في اليوم التالي اتصل بها شخص من وكالة تشغيل عارضات الأزياء، سألها عن الصور، واستعلم عن موعد العرض، لأن هناك لجنةً قد خُصصت لكل أداء. أجابت ماريا بأنه يُفتَرض أن يُعاود العربيُ الاتصال بهم، واستنتجت على الفور بأنهم ليسوا على علم بذلك.

اتجهت إلى المكتبة وطلبت كتباً حول الجنس. إذا كانت تفكر جادةً أن تعمل ـ مدةً عامٍ فقط، عاهدث نفسها ـ في ميدان لا تعرف عنه شيئاً، فأول ما يجبُ أن تتعلمه هو كيف تتصرف، كيف تمنح المتعة وكيف تتلقى المال بالمقابل.

لخيبتها الشديدة شرحت لها أمينة المكتبة أنه لا توجد سوى بضعة بحوث تقنية، لأن المكتبة مؤسسة عامة. أخذت ماريا أحد هذه البحوث، طالعت محتوياته وأعادته في الحال: كل ما يتحدث فيه هو الانتصاب والإيلاج والعجز الجنسي، ومنع الحمل، جميع الأشياء التي تدل على قلة الذوق. نوَتْ في النهاية شراء كتاب *اعتبارات نفسية حول برودة المرأة*، لأنها من جهتها، لا تبلغ النشوة إلا بمداعبة نفسها، رغم أنها تستمتع بامتلاك رجلٍ وولوجه لها.

لكنها لا تبحث عن المتعة، بل عن العمل. استأذنت من أمينة المكتبة، دخلت متجراً، وحققت استثمارها الأول في المهنة التي

تَلوح في الأفق ـ ملابس وجدتْها مثيرةً بما يكفي لإيقاظ كل أنواع الرغبات. ذهبت بعدها إلى المكان الذي اهتدت إليه على الخارطة. كان شارع برن الذي يبدأ بالقرب من كنيسة (مصادفة ليس بعيداً عن المطعم الياباني الذي تناولت فيه غداءها البارحة!)، محاطاً بواجهاتٍ تعرض ساعات رخيصة الثمن؛ في طرفه الآخر تقع الملاهي الليلية، التي كانت جميعها مغلقة في ذلك الوقت من النهار. عادت للتنزه حول البحيرة، واشترت ـ دون أدنى قدر من الحرج ـ خمس مجلات بورنوغرافية كي تستمد منها المعلومات، انتظرت هبوط الليل واتجهت من جديد إلى شارع برن. هناك، اختارت بالمصادفة، ملهى يحمل اسماً برازيلياً موحياً: كوباكابانا.

قالت لنفسها بأنها لم تقرر شيئاً بعد. إنه مجرد اختبار. لم تشعر بهذا الارتياح وهذه الحرية، منذ وصولها إلى سويسرا.

«تبحثين عن عمل»، قال لها صاحب الملهى الذي كان يغسل كؤوساً خلف طاولة الشرب، حتى دون إعطاء نبرة استفهامية لجملته. يتكون المكان من مجموعة طاولات، وركنٌ فيه نوع من منصة رقص، وبعض الأرائك المسنودة إلى الحائط. «الأمر ليس بسيطاً. نحن نحترم القانون. للعمل هنا يجب على الأقل الحصول على بطاقة عمل».

مدت له ماريا بطاقتها. بدا الرجل بمزاج أفضل.

«هل تملكين خبرة؟»

لم تعرف ماذا تقول: إذا أجابت بالإيجاب سيسألها من أين حصلت عليها. إذا أجابت بالنفي، ربما يرفض.

«أؤلف كتاباً».

خرجت الفكرةُ من العدم، كما لو أن صوتاً جاء لنجدتها.

فلاحظت أن الرجل تَظاهرَ بتصديقها وهو يعرف تماماً أنها تكذب.

«قبل أن تتخذي أي قرار اطَّلِعي على العمل من الفتيات. لدينا على الأقل ست برازيليات، ستعرفين كل ما ينتظرك».

أرادت ماريا أن تقول بأنها لا تحتاج لنصائح أحد، وأنها لم تقرر شيئاً بعد، لكن الرجل كان قد انتقل إلى الطرف الآخر للملهى، تاركاً إياها بمفردها، دون حتى أن يقدم لها كأس ماء.

جاءت الفتيات. سَمّى صاحبُ الملهى عدة برازيليات وأمَرَهُنّ بمناقشة الأمور مع القادمة الجديدة. لم تَبدُ أي منهن مستعدةً للامتثال، واستنتجت ماريا بأنهن يخشين المنافسة. تمّ توصيل الصوت في الملهى، وصدحت بعض الأغنيات البرازيلية (شيءعادي، فالمكان يدعى كوباكابانا). ثم دخلت فتيات بملامح آسيوية، وأخريات بَدَوْن كأنهن نازلات من الجبال المثلجة والرومانسية في محيط جنيف. أخيراً، بعد نحو ساعتين من الانتظار، بعد عطشٍ رهيب، وبعض السجائر، والانطباع الذي يزداد وضوحاً بأنها وقعت على خيار سيء، والسؤال الذي بدأ يتَردد مثل لازِمَة: «ما الذي أفعله هنا؟»، رأت ماريا، التي أثار غيابُ اهتمام صاحب الملهى والفتيات سخطَها، رأت إحدى البرازيليات تقترب منها: «لماذا اخترتِ هذا المكان؟»

كان بوسعها أن تتذرع مجدداً بالكتاب، أو تُكرِّر ما فعلته بخصوص الأكراد وخوان ميرو: أن تقول الحقيقة.

«بسبب اسمه. لا أعرف من أين أبدأ، كما لا أعرف إذا كنت أريد أن أبدأ».

تناولت الفتاة جرعة ويسكي، وقد فاجأها هذا الإقرارُ الصريح والمباشر، استمعت ظاهرياً إلى أغنية برازيلية تُغنّي، قالت أشياء متعلقة بالحنين إلى البلاد، وأعلنت أنه ستكون هناك حركة

قليلة ذلك المساء، بسبب إلغاء مؤتمر ضخم كان يُفترض انعقاده قرب جنيف. في النهاية، عندما تأكد لها أن ماريا باقية، قالت لها: «الأمر بسيط جداً، يجب احترام ثلاث قواعد. الأولى: لا تقعي في حب زبون. الثانية: لا تؤمني بالوعود، واجعلي الزبون يدفع مقدَّماً. الثالثة: لا تتناولي المخدرات». صمتت برهة. «وابدئي في الحال. إذا عدت إلى بلدك هذا المساء دون أن تتدبري أمر حصولك على رجل، سينال منك التردد، ولن تجدي الشجاعة للبدء من جديد».

عندئذٍ فهمت ماريا التي أعدَّت نفسَها لاستشارةٍ بسيطة حول احتمالِ ممارسةِ عملٍ مؤقت، أن ذلك الشعور الذي يدفع المرء بضربةٍ فوق رأسه لاتخاذ قرار: الشعور باليأس، لايترك لها فرصة التراجع.

«حسناً. أبدأ اليوم».

لم تعترف بأنها بدأت البارحة. ذهبت الفتاة إلى صاحب الملهى.

«هل ثيابك الداخلية جميلة؟» سألَ هذا الأخيرُ ماريا.

لم يطرح عليها أحد قط هذا السؤال. لا عشّاقها ولا العربيّ ولا صديقاتها، فكيف بغريب. لكن الحياة في تلك البقعة كانت هكذا: إلى الهدف مباشرة.

ـ سروالي أزرق سماوي. ولا أرتدي حمالة صدر». أضافت بدافع الاستفزاز.

كل ما نالته كان تأنيباً: «غداً، البسي سروالاً أسود، حمالة صدرٍ وكلسات. إن نَزْعَ أكبرِ قدرٍ من الثياب الداخلية، هو جزء من الطقوس».

لم يضيِّع ميلان الوقتَ، وقد اقتنع الآن بأنه أمام عاملة مستجدة في الميدان، علَّمَها بقية الطقوس: يفترض أن الـ

كوباكابانا مكان ممتع، وليس ماخوراً. يدخل الرجال إلى هذا الملهى وهم يودّون الاعتقاد بأنهم سيلتقون فيه بامرأةٍ لا يرافقها أحد. إذا اقترب أحدهم من طاولتها دون أن يوقفه أحد في الطريق إليها (يطغى وجود مفهوم «زبون حصري» لبعض الفتيات)، فإنه سيدعوها حتماً بهذه الكلمات: «هل تريدين تناول مشروب؟».

بوسع ماريا الإجابة بنعم أو لا عن هذا السؤال، فهي حرة في اختيار الصحبة التي تريد، رغم أنه لا يُنصح بأكثر من «لا» في الأمسية الواحدة. وإذا وافقت ستطلب كوكتيل فاكهة، الذي يُعتَبَر كأن الأمر مصادفة، المشروبَ الأغلى على اللائحة. ليس وارداً شربُ الكحول، ولا تركُ الزبون يختار عنها. بعد ذلك يمكنها قبول دعوةٍ إلى الرقص. كان معظم الزبائن من الأشخاص الذين يترددون عادةً إلى الملهى، وباستثناء «الزبائن الحصريين» الذين لا يَشملهم ميلان بسلطتِه، لم يكن أحدٌ يشكّل أدنى مصدر للمجازفة. كانت الشرطة ووزارة الصحة تطلبان فحوصات دم شهرية، للتأكد من أن الفتيات لا يحملن أمراضاً تنتقل عن طريق الممارسة الجنسية. وكان استخدام الواقي إجبارياً، حتى إذا لم تتوافر أية وسيلة للتحقق من احترام هذا العرف. على الفتيات عدم إثارة فضائح أبداً ـ كان ميلان متزوجاً، أباً لأسرة، حريصاً على سمعته وسمعة الـ كوباكابانا.

مضى يشرح لها الطقوس: بعد الرقص يعودان للجلوس، ويعرض الزبونُ عليها، كما لو أنّ العرض مرتجل، مرافقته إلى فندق. تبلغ التعرفة العادية ثلاثمئة وخمسين فرنكاً، تذهب خمسون منها إلى ميلان تحت بندِ أجْر الطاولة (حيلة قانونية لتجنب تعقيدات قضائية لاحقاً، وعدم التعرض لتهمة استغلال الجنس لأغراض ربحية).

حاولت ماريا المجادلة: «لكني كسبتُ ألف فرنك لقاء...».

أشار لها صاحب الملهى أن تبتعد. في الحال تدخلت البرازيليةُ التي كانت تتابع الحديث: «إنها تمزح».

وأضافت بصوت قوي ولغة برتغالية جيدة، ملتفِتَةً نحو ماريا: «هذا المكان هو أغلى مكان في جنيف (هنا تسمى المدينة جنيف وليس جنيبرا). لا تكرري هذا الكلام أبداً. إنه يعرف أسعار السوق، ويعرف أن أحداً لا ينام مع فتاة لقاء ألف فرنك، إلاّ ـ إذا حالفك الحظ وامتلكتِ الخبرة ـ مع «الزبائن الخاصّين».

لم تترك نظرةُ ميلان، الذي ستكتشفُ ماريا لاحقاً بأنه يوغوسلافي ويعيش في سويسرا منذ عشرين عاماً، أيَّ مجال للشك:

«التعرفة هي ثلاثمئة وخمسين فرنكاً.

ـ نعم، تلك هي التعرفة»، رددث ماريا مُهانةً.

يسألها أولاً عن لون ثيابها الداخلية، ثم يقرر ثمنَ جسدها.

لكن لم يكن لديها وقت للتفكير، فقد مضى الرجل في إعطاء تعليماته: عليها ألاّ تَقبَل الذهاب إلى بيوت خاصة، أو فنادق أقلّ من خمس نجوم. وإذا لم يكن الزبون يعرف إلى أين يصحبها لها هي أن تختار فندقاً على بعد بضعةِ منازل من هناك، وبالتكسي دوماً، لكي لا تعتاد على وجهها نساءٌ أخريات من مؤسسات أخرى في شارع برن. لم تصدق ماريا شيئاً من هذا الكلام. على العكس، فكرت أن السبب الحقيقي هو الخوف من أن يعرض عليها ملهى آخر عملاً بشروطٍ أفضل. لكنها احتفظت بأفكارها لنفسها، فقد كان النقاش حول التعرفة كافياً لها.

«أكرر: مثل الشرطة في الأفلام، لا تشربي الكحول أبداً أثناء الخدمة. أتركُكِ. الآن ستبدأ الحركة.

ـ اشكريه»، قالت البرازيلية بالبرتغالية.

شكرتْهُ ماريا. ابتسم الرجل، لكنه لم يُنْهِ توصياتِهِ بعد: «نقطة أخرى: يجب ألاّ تتجاوز المهلةُ بين طلب الشراب ولحظة خروجك خمساً وأربعين دقيقة بأية حال. في سويسرا، بلد الساعات، حتى اليوغوسلافيون والبرازيليون يتعلمون احترام المواعيد. تذكَّري بأني أُطعِمُ أطفالي بفضلِ عُمولتك».

سوف تتذكر ذلك.

قدم لها كأس مياه معدنية غازية بنكهة الليمون ـ مما يمكن اعتباره بسهولة كأس جن تونيك ـ ورجاها أن تصبر.

بدأ الملهى يمتلئ رويداً رويداً، والرجال يدخلون، ينظرون حولهم، ويجلسون بمفردهم. لا يلبث أن يحضر أحد من الدار، كما لو أنها حفلة يعرف فيها الجميع بعضهم بعضاً، ويستفيدون منها للترويح عن أنفسهم قليلاً بعد نهار طويل من العمل. وكلما وجدَ رجل لنفسه صاحبةً، تنفسَّتْ ماريا الصعداء، رغم أنها باتت تشعر بارتياحٍ أكبر بكثير مما في بداية السهرة. ربما لأن تلك هي سويسرا، ربما لأنها، عاجلاً أم آجلاً، ستعيش المغامرة، تجد الثروةَ أو الزوج، كما حلمت دوماً. ربما لأن تلك هي ـ وهو ما يتضح لها الآن ـ المرة الأولى منذ أسابيع، التي تخرج فيها إلى مكان تُعزف فيه موسيقى، وتستطيع فيه سماع أناس يتكلمون بالبرتغالية. راحت تتسلى مع الفتيات المحيطات بها، اللواتي يضحكن، يشربن كؤوس كوكتيل الفاكهة، ويثرثرن بمرح.

لم تأت أيٌّ منهن كي تُهنِّئها أو تتمنى لها حظاً طيباً. ولكنه أمر عادي: أليست منافِسةً، أو خصماً لهن؟ كنَّ جميعاً يتنازعن لنيل الغنيمة نفسها. لم تكن ماريا محبَطة إطلاقاً، بل بالعكس تشعر بالزهو ـ فبدلاً من أن تبتئس، راحت تناضل وتقاوم. كان باستطاعتها، حالما تريد، أن تفتح الباب وترحل إلى الأبد، لكنها لن

تنسى قط أنها وجدت الشجاعة للوصول إلى هناك، للتفاوض في مواضيع ما كانت لتجرؤ على التفكير بها من قبل إطلاقاً. وراحت تردد لنفسها كل دقيقة بأنها ليست ضحيةً للقدر: إنها تُخاطر، تتفوق على نفسها، تعيش أحداثاً سوف تتذكرها في صمتِ قلبها بنوع من الحنين في أيام شيخوختها الرماديةِ - مهما بدا ذلك عبثيا.

كانت متأكدة من أن أحداً لن يقترب منها. غداً، لن يبقى من الأمر سوى حلم جامح، لن تجرؤ على تكراره قط - فقد تبيَّن لها للتو بأن ألف فرنك لقاءَ ليلةٍ، أمر لا يحدث سوى مرة؛ وسيكون من الحكمة أكثر شراءُ بطاقة عودتها إلى البرازيل. ولكي يمر الوقت بشكل أسرع حسبت في عقلها ما يمكن أن تكسبه كل فتاة: إذا ذهبنَ مع ثلاثة زبائن في الأمسية الواحدة، كسبن في يوم واحد ما يعادل أجر شهرين من راتبها السابق في متجر الأقمشة.

كل هذا؟ لقد قبضت بالفعل ألفَ فرنك لقاءَ ليلة، ولكن ربما كان ذلك حظَّ مومسٍ مبتدئةٍ. في جميع الأحوال فإن دخل مومس أعلى بكثير مما يمكن أن تُكدِّسه بإعطاء دروس لغة فرنسية في بلدها. الجهد الوحيد المطلوب مقابل ذلك هو أن تمكث بعض الوقت في ملهى، ترقص، تباعد بين ساقيها، وهذا كل شيء. ليس ضرورياً حتى أن تفتحَ حديثاً.

المال حافز جيد، فكرت أيضاً. ولكن هل هو الحافز الوحيد؟ أم هل يتسلى الناس الموجودن هنا، زبائن ونساء، بطريقة معينة؟ هل العالم مختلف جداً إذن عما رووه لها في المدرسة؟ إذا استعملت واقياً لن تتعرض لأي خطر، ولا حتى خطر أن يتعرف عليها أحد من بلدها. لا أحد يزور جنيف - كما أخبروها ذات يوم - سوى رجال الأعمال الذين يحبون ارتياد البنوك. أما البرازيليون فيؤْثِرون المتاجر، وأفضلُها متاجر ميامي أو باريس.

تسعمئة فرنك سويسري في اليوم، خمسة أيام في الأسبوع. ثروة! ما الذي تفعله هؤلاء الفتيات هنا، إذا كنّ يكسبن في الشهر ما يكفي لشراء بيت لأمهاتهن؟ هل يعملن منذ فترة قصيرة؟ أم أنهن - وخافت ماريا من السؤال نفسه - يجدن متعةً في ذلك؟

من جديد، رغبت بتناول مشروب - لقد ساعدتها الشمبانيا كثيراً بالأمس.

«هل تَقبلين كأس شراب؟».

كان يقف أمامها رجل ثلاثيني، يرتدي زي شركة طيران.

رأت ماريا المشهد بالحركة البطيئة، وانتابها شعور من يخرج من جسده ويراقب نفسه من الخارج. وبحركة من رأسها، وهي تموت خجلاً، ولكنها تكافح للسيطرة على احمرار وجهها، أومأت بالقبول، ابتسمت وفهمت أن حياتها قد تغيرت إلى الأبد منذ هذه الدقيقة.

كوكتيل فاكهة، محادثة، ثم ماذا تفعلين هنا؟ الطقس بارد، أليس كذلك؟ أحب هذه الموسيقى لكنني أفضل فرقة Abba. السويسريون أناس باردون، هل أنت قادمة من البرازيل؟ حدثيني عن بلدك. يوجد الكرنفال. البرازيليات جميلات، هل تعرفين ذلك؟

تتَبَسّم وتَقبَل المديح، وربما تتخذ هيئة خجولة على نحوٍ غامض. ترقص من جديد، لكن وهي منتبهة إلى نظرة ميلان، الذي يحك رأسه أحياناً ويشير إلى الساعة في معصمه. عطرُ الرجل. فهمت فجأةً أن عليها الاعتياد على الروائح. هذه، على الأقل رائحةُ عطر. رقصا ملتصقين. كوكتيل فاكهة آخر، الوقت يمر. ألم يقُل أن المهلة هي خمس وأربعون دقيقة؟ نظرت إلى ساعتها. سألها إذا كانت تنتظر أحداً، أجابت أن ثمة أصدقاء يفترض أن يصلوا خلال ساعة. دعاها للخروج. الفندق، ثلاثمئة وخمسون فرنكاً. اغتسال

بعد ممارسة الجنس (صرّح الرجل محتاراً بأنها المرة الأولى التي يرى فيها ذلك). لم تكن ماريا، بل شخص آخر سكن جسدها، لا يشعر بشيء، ويؤدي آلياً نوعاً من الطقس. كانت ممثلةً. علَّمها ميلان كل شيء عدا كيفية الاستئذان من الزبون. شَكَرتْه. هو أيضاً أخرق، ويشعر بالنعاس.

قاومت، أرادت حقاً العودةَ إلى الملهى، وتسليم الخمسين فرنكاً إلى ميلان. عند ذلك، رجل جديد، كوكتيل جديد، سؤال حول البرازيل، فندق، اغتسال من جديد (هذه المرة دون تعليقات). عادت إلى الملهى. حسمَ مديرُه عمولتَه، وقال لها إن بوسعها الانصراف، فالحركة خفيفة ذلك المساء. لم تأخذ تكسي، بل مضت عائدةً على طول شارع برن، سيراً على القدمين، ونظرت إلى الحانات الأخرى، وواجهات محلات الساعات، والكنيسة في الزاوية (المغلقة دوماً...). لم ينظر إليها أحد بالمقابل ـ كما يحدث دوماً.

مضت تمشي في البرد، لا تشعر ببرودة الطقس، لا تبكي، لا تفكر بالنقود التي كسبتها، يغمرها نوع من الغشية. يولد بعض الأشخاص ليواجهوا الحياة وحيدين، وليس هذا خيراً ولا شراً، إنه الحياة. وماريا واحدة من هؤلاء.

تبذل جهدها للتفكير بما جرى. لقد بدأت للتو، ومع ذلك تعتبر نفسها محترفة. يبدو لها أنها كذلك منذ زمن بعيد جداً، وأنها مارست ذلك طوال حياتها. شعرت بحب غريب لنفسها. إنها راضية لعدم هروبها. وعليها أن تقرر الآن ما إذا كانت ستستمر. إذا كان الجواب بالإيجاب فستكون الأفضل ـ وهو ما لم تكُنْهُ في أية لحظة من حياتها أبداً.

لكن الحياة تُعلِّمُها، بسرعة شديدة، أن البقاء للأقوياء فقط. ولكي تكون قوية يجب أن تكون الأفضل، ليس هناك حل آخر.

يوميات ماريا، بعد أسبوع:

لستُ جسداً يؤوي روحاً، بل روحاً لها جزء مرئي يدعى «جسد». خلال كل هذه الأيام، على عكس ما تخيلْت، كانت هذه الروح حاضرة جداً. لا تقول لي شيئاً، ولا تنتقدني، ولا تشفق عليّ: كانت تراقبني وحسب.

اليوم فهمتُ لماذا: مضى زمن طويل جداً منذ أن كففتُ عن التفكير بالحب. كما لو أنه يفرّ مني، كما لو أنه لم يعد يُحسب لي حساب، كما لو أنه ما عاد يشعر بأنه مرحّب به. غير أني لن أكون شيئاً إذا لم أفكر بالحب.

حين عدت، في اليوم التالي، إلى كوباكابانا، كانوا ينظرون إليّ باحترام أكبر ـ من خلال ما فهمتُه، فتيات كثيرات يأتين مرة ولا يعدن أبداً. وتلك التي تمضي أبعد، تصبح نوعاً من حليف، من صاحب، لأنها تستطيع فهم الصعوبات والأسباب ـ أو بالأحرى، انعدام الأسباب الكامنة وراء اختيار هذا النوع من الحياة.

كل منهن تحلم بكائنٍ يكتشف فيها امرأة حقيقية، صاحبةً تضج بالشهوات، صديقة. لكنهن جميعاً يعرفن، منذ الدقيقة الأولى في لقاءٍ جديد، أن شيئاً من هذا لن يحدث.

يجب أن أكتب عن الحب. يجب أن أفكر وأفكر، أن أكتب وأكتب عن الحب ـ وإلاّ فلن تحتمل روحي ذلك.

لا شك أن ماريا كانت تقول لنفسها بأن الحب أساسي لا غنى عنه، لكنها لم تنسَ النصيحة التي تلقتها في أول أمسية، وبذلت جهدها لكي لا تلتقي به إلاّ على صفحات يومياتها. من ناحية أخرى، راحت تسعى يائسةً للعثور على وسيلة تجعلها الأفضل، تُكسِبُها نقوداً كثيرة في زمن قليل، تجعلها لا تفكر كثيراً، وتجد سبباً وجيهاً لما تفعله.

إنه الجانب الأصعب: ما هو السبب الحقيقي؟

كانت تفعل ذلك لأنها بحاجة إليه. ليس الأمر هكذا تماماً ـ فالجميع يسعون لكسب المال، لكن الجميع لا يختارون العيش على هامش المجتمع كلياً. إنها تفعل ذلك لأنها تريد خوض تجربة جديدة. أحقاً؟ العالم مليء بالتجارب الممكنة ـ مثلاً، تجربة التجديف أو التزلج على بحيرة جنيف، التي لم تثر لديها أدنى فضول. تفعل ذلك لأنه لم يعد لديها ما تخسره، ولأن حياتها باتت إحباطاً يومياً مستمراً.

لا، لم يكن أي من هذه الإجابات مناسباً. والأفضل نسيان الموضوع والاقتصار على ما تجده في طريقها. كانت هناك رغبات مشتركة عديدة بينها وبين المومسات والنساء اللواتي التقت بهن حتى ذلك الوقت: الزواج والعيش الآمن، هو أكبر الأحلام جميعاً. أولئك اللواتي لم يكنّ يفكرن بذلك، إما أنهن متزوجات

(واحدة من ثلاثة، تقريباً، من رفيقاتها، متزوجة)، أو طلّقن حديثاً. لذا، ولكي تفهم ماريا نفسها بشكل أفضل، اجتهدت لكي تدرك السبب الذي دعا زميلاتها لاختيار هذه المهنة.

لم تكتشف جديداً باستجوابهنّ، ووضعت جدولاً بالإجابات الممكنة.

أ) عليهن مساعدة أزواجهن لتلبية حاجات الأسرة. (والغيرة؟ وإذا حضر صديقٌ للزوج؟ لكن ماريا لم تجرؤ على المضي إلى هذا الحد).

ب) يُردن شراء منزل لأمهاتهن (وهي ذريعة شبيهة بذريعتها، نبيلة في ظاهرها، والأكثر شيوعاً).

ج) عليهن تدبير بطاقة العودة (الكولومبيات والتايلانديات والبيروفيات والبرازيليات يعشقن هذه الذريعة، حتى وإن كسبن أضعاف المبلغ المطلوب، سرعان ما يتخلصن منه خشيةَ تحقيق حلمهن).

د) للمتعة (لا يتوافق هذا السبب مع الجو المحيط. إنه نَشاز).

هـ) لم يجدن عملاً آخر (ليس ذلك سبباً وجيهاً أيضاً، فسويسرا تغصّ بمِهنِ عاملات التنظيفات، والسائقات، والطاهيات...).

باختصار، لم تكتشف أي مبرر صالح، وكفّت عن محاولة تفسير العالم المحيط بها.

تأكدت من أن ميلان، المالك، على حق: إذ لم يقدم لها أحدٌ بعد ذلك ألف فرنك سويسري لكي يُمضي برفقتها بضع ساعات. ومن ناحية أخرى، لم يكن أي زبون يتذمر عندما تطلب ثلاثمئة وخمسين فرنكاً، كما لو أن الرجال يعرفون التعرفة مسبقاً، ولا يطرحون السؤال إلاّ من أجل إهانتها - أو تجنب مفاجأة غير مرغوب بها.

صرحت لها فتاة يوماً: «البغاء ليس مهنة مثل غيره من المهن: فالمبتدئة فيه تكسب أكثر، وصاحبة الخبرة تكسب أقلّ. تَظاهري دوماً بأنك مبتدئة».

لم تكن ماريا تعرف بعدُ معنى «زبون خاصّ»، لم يُذكر الموضوع إلاّ في المساء الأول ولم يتطرق إليه أحد أمامها بعدها أبداً. وشيئاً فشيئاً تعلمتْ بعضَ الحيل الهامة للمهنة. ألاّ تطرح على الزبون مثلاً أي سؤال عن حياته الخاصة، وأن تُقلِّل ما أمكنها من الابتسام والكلام، وألاّ تتفق أبداً على موعد خارج الملهى. أهمُّ نصيحةٍ جاءتها من فتاة فيليبينية تدعى نياه:

«عليك أن تتأوّهي لحظة النشوة. هكذا يبقى الزبون مخلصاً لك.

ـ ولكن، لِمَ؟ ألا يدفعون لكي يستمتعوا هم؟

ـ كفاكِ توهُماً. الرجل لا يبرهن عن فحولته عندما يحصل له انتصاب. بل يكون فحلاً عندما يكون قادراً على إمتاع المرأة. وإذا استطاع إمتاعَ مومس سيَعتبر نفسَه أفضل الجميع».

هكذا مضت ستة شهور. تعلمت ماريا كل ما تحتاج إليه ـ آلية عمل ملهى الـ كوباكابانا مثلاً، باعتباره أحد أغلى محلات شارع برن، ويتكون معظم زبائنه من كوادر يُسمَح لهم بالتأخُّر في العودة إلى بيوتهم لأنهم «يتناولون عشاءهم، خارج البيت، مع زبائن عمل»، لكنّ الحدّ الزمني لعودتهم يجب ألاّ يتجاوز الساعة الحادية عشرة ليلاً.

تتراوح أعمارُ غالبية المومسات العاملات هناك، بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين، ويبقين في الملهى وسطياً عامين، قبل استبدالهن بفتيات جديدات. عندئذٍ يذهبن إلى ملهى نيون، ثم إلى كزينيوم، وكلما تقدمن في العمر انخفضت التعرفة، وتقلصت ساعات العمل مثل جلْدٍ مستمرٍ في الانكماش. جميعهن تقريباً كن ينتهين في ملهى تروبيكال إكستازي، الذي يقبل نساءً تجاوزن الثلاثين من العمر. لكن مآلهُنَّ الوحيد، حالما يصبحن هناك، هو تلبيةُ احتياجاتهن عن طريق تأمين وجبةِ غدائهن وأجرِ مسكنهن، بفضل طالب أو اثنين في اليوم (متوسط ثمن اللقاء: ما يكفي لشراء زجاجة نبيذ عادي).

نامت ماريا مع رجال كثيرين. لم تلتفت أبداً لأعمارهم، ولا للثياب التي يلبسونها، بل ارتبطت تلبيتُها أو رفضُها بالرائحة التي تصدر عنهم. لم تكن تكره السيجارة، لكنها تكره العطورَ الرخيصة والزبائنَ الذين لا يغتسلون، وأولئك الذين أنتَنَ الكحولُ رائحةَ

ثيابهم. كان الـ كوباكابانا مكاناً هادئاً، وربما كانت سويسرا أفضلَ بلد في العالم للعمل كمومس ـ بعد امتلاك بطاقة إقامة وبطاقة عمل وأوراق نظامية، وتسديد الاشتراكات الاجتماعية بدقة شديدة. كان ميلان يقول بأنه لا يريد أن يقرأ أبناؤه اسمَهُ على صفحات جرائد الإثارة، ويستطيع أن يكون أكثر تشدُّداً من رجلِ شرطة عندما يتعلق الأمر بالتحقُّق من وضعِ مستَخدَماته.

أخيراً، بعد اجتياز الليلة الأولى أو الثانية تصبح مهنةً مثل غيرها، تعمل صاحبتُها بجد، تكافح ضد المنافسة، تسعى جهدها للحفاظ على معايير للنوعية، تحترم المواعيد، تشعر بشيء من التوتر، تشكو من الإقبال، وترتاح في عطلة نهاية الأسبوع. كانت غالبية المومسات مؤمنات، يترددن إلى أماكن عباداتِهن، يحضرن القداس، يمارسن صلواتهن، ولهن مواعيد مع الله.

أما ماريا، من جهتها، فكانت تصارع مع يومياتها لكي لا تفقد روحها. اكتشفت، لمفاجأتها، أن زبوناً من خمسة، لا يحضر من أجل ممارسة الجنس، بل لكي يتكلم ولو قليلاً. وكان هؤلاء يدفعون ثمن المشروبات، وأجر الفندق، وعند لحظة نزع الثياب يقولون بأن هذا غير ضروري. إنهم يريدون الكلام عن ضغوط العمل التي يتعرضون لها، عن نسائهم اللواتي يخدعنهم، عن شعورهم بالوحدة وعدم وجود من يتكلمون معه (وهو وضعٌ تعرفُهُ جيداً).

وجدت هذا غريباً في البداية. وذات يوم، بينما كانت في الفندق بصحبة فرنسيٍّ يعمل صياد رؤوسٍ مكلف بانتقاء أشخاص لمناصب يشغلها كوادر رفيعو المستوى (كان يشرح لها ذلك وكأنه الشيء الأكثر سحراً)، سمعتْه يقدِّم الشرح التالي: «هل تعرفين من هو الشخص الأكثر عزلةً في العالم؟ إنه الكادر الذي نجح في عمله، ويحصل على راتب مرتفع جداً، ويلقى ثقة رئيسه ومرؤوسه، ويمضي أيام عُطَلِه مع أسرته، ويساعد أطفاله في واجباتهم

المدرسية، ثم يأتي شخص مثلي ذات يوم، حاملاً إليه العرض التالي: هل تريد تغيير عملك وكسب ضعف ما تكسبه؟».

«هذا الرجل الذي يملك كل ما يلزم لكي يشعر بأنه مرغوب وسعيد يصبح الشخص الأتعس على وجه الكوكب. لماذا؟ لأنه ليس لديه من يكلمه. عنده رغبة بقبول عرضي، ولا يستطيع مناقشة الأمر مع زملائه، وإلاّ لفعلوا كل شيء لثنْيِهِ عن الرحيل. لا يستطيع الكلام في الموضوع مع زوجته التي ساندت مسيرته الظافرة طوال سنين، فهي اختارت الأمان، ولا تفهم شيئاً عن المخاطر. إنه لا يستطيع الكلام إلى أحد، ويجد نفسه أمام الخيار الأكثر حسماً في حياته. هل تستطيعين تخيل ما يشعر به هذا الرجل؟».

لا، لم يكن الكائن الأشد عزلة في العالم، لأن ماريا تعرف الشخص الأشد عزلة على هذه الأرض: إنه هي نفسها. لكنها اعتبرت نفسها متفقةً معه أملاً بإكرامية سخية ـ حصلت عليها فعلاً. وبدءاً من ذاك اليوم، فهمت أن عليها أن تكتشف وسيلة لتحرير زبائنها من الضغط الهائل الذي يبدو أنهم يتعرضون له. فقد يحسِّنُ ذلك من نوعية خدماتها، ويستوجب إمكانية الحصول على مكافأة إضافية.

عندما فهمت أن تحرير توتر الروح يعود بالربح نفسه على الأقل الذي تكسبه من تحرير توتر الجسد، عادت إلى ارتياد المكتبة. طلبت كتباً تعالج مشاكل زوجية، كتبَ علمِ نفس وسياسة. وكانت أمينة المكتبة شديدة السرور لأن الفتاة التي تشعر تجاهها بكل ذاك الحب عدلت عن الاهتمام بالجنس، وراحت تركز الآن على مواضيع أكثر جدية. راحت تقرأ الصحف بانتظام، متتبعةً قدر الإمكان الصفحات الاقتصادية، لأن غالبية زبائنها من الكوادر. وبقدر ما كان الجميع تقريباً يلتمسون نصائحها، كانت تتحرّى عن مؤلفات حول المساعدة النفسية. درست عدة بحوث حول

الانفعالات البشرية لأن الجميع، لسبب أو لآخر يتألمون. كانت ماريا مومساً محترمة، مختلفة، ومع انتهاء ستة شهور كوّنتْ مجموعةً ممتازة من الزبائن الكثيرين والمخلصين، الأمر الذي أيقَظَ حسدَ رفيقاتها وغيرتهنّ، إنما أيضاً إعجابهن.

أما الجنس فلم يُضِف حتى ذلك الوقت شيئاً إلى حياتها: إنه يقضي بأنْ تُباعد بين ساقيها، تطالب الزبون باستعمال الواقي، تتأوّه قليلاً (بفضلِ نياه اكتشفتْ ماريا أن التأوهات قد تدرّ عليها ما يصل إلى خمسين فرنكاً إضافية)، تستحم فور انتهاء العلاقة، بحيث يغسل الماءُ روحَها قليلاً. أشياء ثابتة. لا قُبَل - القبلةُ لمومس، أقدسُ من أي شيء آخر. علّمتْها نياه أن عليها الاحتفاظ بالقبلة للرجل الذي ستحبه حبّاً كبيراً، مثل الحسناء في الغابة النائمة؛ قبلة توقظها من نومها وتعيدها إلى عالم الحكايات السحرية، العالم الذي تعود فيه سويسرا بلدَ الشوكولا والأبقار والساعات.

أيضاً لا نشوة ولا متعة ولا إثارات متنوعة. وفي سعيها لتكون الأفضل، حضَرت ماريا بضع جلساتٍ لمشاهدة أفلام بورنوغرافية، بهدف تعلُّم ما قد يفيدها. اكتشفت كماً من أشياء مثيرة للاهتمام لم تتوافر لها الشجاعة لممارستها مع زبائنها - لأنها تأخذ وقتاً، فميلان يفضّل أن تلتقي الفتيات بثلاث زبائن في الأمسية الواحدة.

في نهاية هذه الشهور الستة، كانت ماريا قد أودعت في المصرف ستين ألف فرنك سويسري، وأخذت ترتاد مطاعم أفخر، واشترت تلفزيوناً (لم تستخدمه قط). وراحت تفكر جادةً بالانتقال إلى شقة أوسع. كان بوسعها أن تشتري الكتب لكنها استمرت في ارتياد المكتبة - ممرها نحو العالم الحقيقي، الأكثر صلابةً ودواماً. كانت تقدّر تلك الدقائق القليلة من الحديث مع أمينة المكتبة، السعيدة بأن تكون ماريا ربما وجدت من تحبه، أو وجدت عملاً، رغم أنها

لم تطرح أسئلةً قط، لأن السويسريين أناس يميلون بالأحرى إلى التحفّظ والتكتّم (وهي حقيقة مضادة، لأنهم في الـ كوباكابانا وفي السرير، منبسطين أو معقّدين، يتحررون من كوابحهم مثل شعوب العالم كافة).

من يوميات ماريا، عصرَ يوم أحدٍ كئيب:

جميع الرجال، قصاراً أو طوالاً، متعجرفين أو خجولين، محَبّبين إلى القلب أو جافّين، لهم صفة مشتركة: يخافون عندما يصلون إلى كوباكابانا. يُداري أكثرُهُم خبرة خوفَهُ بالكلام بصوت عالٍ، ويفشل المكبوتون في المداراة فيبدؤون بالشرب آملين أن يختفي ذلك الشعور. لكني أشكُّ أبداً: إنهم، باستثناءات نادرة جداً - وهؤلاء هم «الزبائن الخاصّون» الذين لم يقدِّمْهُم ميلان لي بعد - يخافون.

يخافون من ماذا؟ في الحقيقة أنا التي يجب أن ترتجف. أنا التي أذهب إلى مكان غريب، ولا أملك قوة جسدية، ولا أحمل سلاحاً. الرجال شديدو الغرابة، ولا أتكلم فقط عمَّن يأتون إلى كوباكابانا، بل عن جميع من التقيت بهم حتى هذه اللحظة. مهما ضَرَبوا، وصرخوا، وهدَّدوا: تستطيع امرأةٌ أن تُميتهم من الخوف. ربما ليس المرأةَ التي تزوجوا منها، لكن هناك دوماً امرأة تخيفهم وتُخضِعهم لجميع نزواتها، وإن لم تكن غير أمّهم بالذات.

كان الرجال الذين عرفَتْهُم منذ وصولها إلى جنيف، يفعلون أي شيء لكي يبدوا واثقين من أنفسهم، كما لو أنهم سادة العالم وسادة حياتهم الخاصة. لكن ماريا كانت تقرأ في عيونهم، الخوفَ من الزوجة، الذعرَ من عدم حدوث انتصاب، من ألاّ يكونوا فحولاً حقيقيين، حتى أمام غانية يدفعون لها لقاء أتعابها. إذا اشتروا من متجر زوج أحذية لم يعجبهم، بإمكانهم العودة إلى المتجر مع بطاقة الصندوق، والمطالبة باستعادة نقودهم. أما إذا لم يحدث لهم انتصاب، ورغم أنهم دفعوا أيضاً لقاء صحبةِ امرأة، فلن يعودوا إلى الملهى نفسه أبداً، خوفاً من انتشار القصة بين الأخريات ـ وهذا عار.

«أنا التي يجب أن تشعر بالعار. وهُم في الواقع من يشعرون بذلك».

لذا كانت ماريا تبذل جهدها لإشعارهم بالراحة، وعندما يبدو لها أحدُهم ثملاً أو هشاً على نحو خاص، كانت تتجنب الإيلاج وتركِّز على المداعبات والاستمناء ـ وهو ما كان يُرضيهم على أكمل وجه ـ مهما بدا هذا الوضع مضحكاً كونهم يستطيعون مداعبة أنفسهم بمفردهم بالطريقة نفسها.

كان يجب دوماً تجنب إشعارِهم بالعار. فهؤلاء الرجال شديدو البأس والصلف في أماكن عملهم، حيث يواجهون بلا كلل

الموظفين والزبائن والمقاوِلين والأحكامَ المسبقة والأسرارَ والأكاذيب والنفاق والخوف والقمع، يُنهون نهارَهم في ملهى ليلي، ولا يهمُّهم كثيراً دفع ثلاثمئة وخمسين فرنكاً سويسرياً لكي لا يَعودوا أنفسَهُم، لمُدَّةَ أمسيةٍ.

«مدة أمسية؟ أرأيتِ يا ماريا؟ إنك تبالغين. إنها في الحقيقة خمس وأربعون دقيقة، بل إننا إذا أسقطْنا الوقتَ اللازم لنزع الثياب، وللقيام بفعلٍ زائفِ الرِّقة، وتبادلِ بعض الكلام غير المبتَكَر، ثم ارتداءِ الملابس من جديد، تتقلص الأمسيةُ إلى إحدى عشرة دقيقةً من الجنس بالمعنى الحقيقي للكلمة».

إحدى عشرة دقيقة. بالكاد يتلخَّصُ المحورُ الذي يدور حوله العالم في إحدى عشرة دقيقة.

وبسبب هذه الدقائق الإحدى عشرة من يومٍ يمتدُّ أربعاً وعشرين ساعة (بافتراض أن الجميع يمارسونَ الجنس مع زوجاتهم كل يوم، وهو ما يُعتبر كلاماً سخيفاً، وحقيقة مضادة)، يتزوجون، يؤَمِّنون عيشَ أسَرهم، يتحملون بكاء أطفالهم، يُغالون في التفسيرات إذا عادوا متأخرين إلى البيت، ينظرون إلى عشرات أو مئات النساء الأخريات اللواتي يودّون التنزه معهن على شاطئ بحيرة جنيف، يشترون لأنفسهم ملابس فاخرة، ولهنّ ملابس أغلى، يدفعون لغانياتٍ لقاء تعويضِ نُقصاناتهم، يصبحون قوتاً لصناعةِ المواد التجميلية الضخمة، للحِمْيات الغذائية، للرياضة، لصناعة الأفلام الإباحية، للسُلطة ـ وعندما يلتقون برجال آخرين، فإنهم، على عكس ما يُزعَم، لا يتكلمون أبداً عن النساء: يتكلمون عن عملهم، وعن المال والرياضة.

ثمة خلل في الحضارة. وهذا الخلل، على عكس ما تنشره الصحف، ليس تدميرَ غابات الأمازون، طبقة الأوزون، اختفاءَ دببة

الباندا، التبغ، الأطعمة المسرطِنة، والوضع في السجون. إنه موضوعُ عملها بالضبط: الجنس.

إلا أن ماريا لم تكن هناك لكي تنقذ الإنسانية، بل لتملأ حسابها المصرفي، وتَصمُدَ ستة شهور إضافية أمام الوحدة والخيار الذي اختارته، وترسل بانتظام دخلاً لأمها (التي سَرَّها أن تعرف بأن عدم استلامها للنقود حتى ذلك الوقت، يرجع إلى أن خدمةَ البريد السويسري ليست بجودةِ خدمة البريد البرازيلي)، وتحصل على كل ما حلمت به ولم تحصل عليه قط. انتقلت إلى شقة مريحة أكثر، مزودة بتدفئة مركزية (مع أن الوقت كان قد أصبح صيفاً) ومن نافذتها باتت تستطيع رؤية كنيسة، ومطعم ياباني، وسوبر ماركت، ومقهى لطيف اعتادت التردد إليه لقراءة الصحف. فضلاً عن ذلك، وكما وعدت نفسها، يكفيها أن تتَحمّل هذا الروتين ستة شهور أخرى : الـ كوباكابانا، هل تقبلين كأساً، الرقص، ما رأيكَ بالبرازيل؟ الفندق، جعْلُ الزبون يدفع مسبقاً، محادثة، معرفة ملامسة النقاط الصحيحة ـ من الجسد كما من الروح، وخاصةً الروح ـ المساعدة في المشاكل الحميمة، التحول إلى صديقة لمدة ثلاثين دقيقة، إنفاق إحدى عشرة منها في فتح الساقين، ضمّ الساقين، التأوُّه أثناء التظاهر بالاستمتاع. شكراً، أتمنى رؤيتك الأسبوع المقبل، أنت رجل حقاً، سأستمع إلى تتمة القصة في لقائنا القادم، إكرامية ممتازة، ولكن، ما كان يلزم كل ذلك، استمتعتُ جداً بصحبتك.

عليها بصورة خاصة ألاّ تقع في الحب. كانت تلك النصيحة هي الأكثر جوهريةً وحصافةً من بين النصائح التي وجّهتها لها البرازيليةُ قبل اختفائها ـ ربما لأنها هي نفسها وقعت في الحب.

خلال شهرين من العمل تلقت ماريا عدة عروض للزواج، ثلاثة منها على الأقل جدية: عرض من مدير مؤسسة محاسبة، وعرض

من طيار خرجت معه أول مساء، وعرض من صاحب متجر متخصص بالمطاوي والأسلحة البيضاء. وقد وعَدَها ثلاثتُهم بـ «إخراجها من هناك» وإعطائها منزلاً لائقاً، ومستقبلاً، وربما أبناء وأحفاداً.

ذلك كله لقاء إحدى عشرة دقيقة في اليوم فقط! لم يكن ذلك ممكناً! باتت ماريا، وقد قوِيَتْ بتجربتها في الـ كوباكابانا، تعرف بأنها ليست الوحيدة التي تشعر بالوحدة. يستطيع الكائن البشري تحمُّل العطش أسبوعاً، والجوع أسبوعين، ويستطيع قضاء سنين بدون سقف، لكنه لا يستطيع تحمُّل الوحدة. إنها أسوأ أشكال التعذيب والمعاناة. كان هؤلاء الرجال، وجميع من ينشدون صحبتها، يعانون مثلها من ذلك الشعور المدمّر ـ الإحساس بأنك لا تعني شيئاً لأحدٍ على الأرض.

ولكي تتجنب ماريا إغراءاتِ الحب، صبّتْ كل تركيزها على يومياتها. دخلت إلى الـ كوباكابانا مزودةً فقط بجسدها وعقلها الذي راح يزداد حدةً ووضوحاً. تمكنت من إقناع نفسها بأنها جاءت إلى جنيف، وانتهت إلى شارع برن لسبب أسمى، وكانت كلما استعارت كتاباً من المكتبة، تجد تأكيداً لذلك: لَم يكتب أحدٌ قط كما يجب عن تلك الدقائق الإحدى عشرة الأكثر أهمية في اليوم. ربما كان قدرها يكمن هناك مهما بدا ذلك صعباً: أن تؤلف كتاباً، تحكي قصتها، مغامرتها.

تلك هي المغامرة. ورغم أن هذه الكلمة ممنوعة، لا يجرؤُ أحد على النطق بها ـ يفضل معظمُ الناس مشاهدة المغامرة في التلفزيون في أفلام تُعرض على شكل حلقات ـ فإنها الشيء الذي تبحث عنه. توحي لها بالصحارى والسفر إلى المجهول، برجال غامضين يعقدون محادثة على مركب في عرض نهر، بطائرات، باستديوهات سينما، بقبائل هندية وجبال ثلج، بأفريقيا...

أعجبتها فكرة الكتاب، وفكرت حتى بالعنوان: إحدى عشرة دقيقة.

أخذت تصنف الزبائن في ثلاثة أنواع. الرجال من نوع «الترميناتور» (على شرفِ فيلمِ أحبَّتْهُ) الذين تفوح منهم عند دخولهم رائحةُ الكحول، ممن يتظاهرون بعدم رؤية أحد، لكنهم يعتقدون بأن الجميع ينظرون إليهم، يرقصون قليلاً، ويمضون إلى الهدف مباشرةً: الفندق. ثم الرجال من نوع «بريتي وومن» (على اسم فيلم آخر)، الذين يحاولون أن يكونوا أنيقين، لطفاء، حنونين، كما لو أن العالم يتوقف على هذا النوع من الطيبة لكي يسير على ما يرام، والذين يتظاهرون بأنهم دخلوا الملهى بالمصادفة، أثناء نزهةٍ يقومون بها؛ رقيقون في البداية، وقليلو الثقة عند الوصول إلى الفندق، لذا ينتهون بأن يصبحوا أكثر تَطَلُّباً من الرجال الترميناتور. أخيراً الرجال من نوع «العرّاب» (أيضاً اسم فيلم)، الذين يعاملون جسد المرأة كأنه سلعة. وهم الأكثر شبهاً بأنفسهم، يرقصون، يتكلمون، لا يتركون إكراميات، يعرفون قيمة ما يشترون، لا يسمحون لأنفسهم أبداً بالانجرارِ لحديث امرأةٍ اختاروها. إنهم الوحيدون الذين يعرفون، على نحوٍ شديد الدقة، معنى كلمة مغامرة.

من يوميات ماريا ذات يومٍ من أيام دورتها الشهرية لا تستطيع العمل أثناءه:

لو كان عليّ اليوم أن أروي قصة حياتي لأحد، لفعلتُ بطريقة يُظن معها بأني امرأة مستقلة، شجاعة وسعيدة. ولكن لا شيء من ذلك: ممنوع عليّ التنويهُ إلى الكلمة الوحيدة صاحبة الغلبة على الدقائق الإحدى عشرة ـ كلمة حب.

طيلة حياتي فهمتُ الحبَّ نوعاً من عبودية رضيَ بها طرفان. هذا كذب: لا توجد الحرية إلا عندما يوجد الحب. فمن يعطي نفسه كلياً، ويشعر بأنه حر، يحِبُّ بلا حدود.

ومن يحب بلا حدود، يشعر بأنه حر.

لذا، لا شيء له معنى رغم كل ما يمكنني أن أعيشه، أن أعمله، أو أكتشفه. أتمنى أن تنقضي هذه اللحظة بسرعة، لكي أستطيع استئناف البحث عن نفسي ـ حين ألتقي برجل يفهمني، رجل لا يجعلني أتألم.

ولكن أية حماقةٍ أقول؟ في الحب لا يمكن لأحد أن يجرح أحداً: كلٌّ مسؤول عما يعانيه ولا يمكنه لوم الآخر بسببه.

سبق أن شعرت بالجرح عندما فقدتُ الرجال الذين أحببتهم. أنا مقتنعة اليوم بأن أحداً لا يملك أحداً.

تلك هي التجربة الحقيقية للحرية: أن تحصل على الشيء الأهم في العالم دون أن تمتلكه.

مرت ثلاثة شهور أخرى وجاء الخريف، كما جاء أيضاً الموعد المسجل على الروزنامة: تسعون يوماً قبل رحلة العودة. مضى كل شيء بسرعة شديدة وبطء شديد في الوقت نفسه، فكرتْ ماريا وهي تكتشف أن الزمن يمر ببُعدين، حسب حالتها الذهنية، وأن مغامرتها تبلُغُ، مع ذلك، حدَّها في الحالين. كان بمقدورها بالطبع أن تستمر، لكنها لا تنسى الابتسامةَ الحزينة للمرأة الخفية التي رافقتْها في نزهتها حول البحيرة، وهي تحذرها بأن الأمور ليست بتلك البساطة. وبقدرِ ما كانت تسوّل لها نفسُها الاستمرار، وكانت مهيأةً للتحديات التي ظهرت في طريقها، فإن كل هذه الشهور التي عاشتها ماريا بمفردها، علّمتْها أن هناك لحظة يجب فيها إيقاف كل شيء. خلال تسعين يوماً ستعود إلى البرازيل، ستشتري مزرعة صغيرة (لقد كسبت أساساً أكثر مما تتوقع) وبضع بقرات (برازيلية وليس سويسرية)، ستدعو أباها وأمها للسكن معها، وستوظف مستخدَمَيْنِ وتشغّل المزرعة.

مع أنها فكرت أن الحب هو التجربة الحقيقية للحرية، وأن أحداً لا يمكنه امتلاك كائن آخر، فلم تزل رغباتٌ خفية بالانتقام تعتمل في داخلها ـ بمناسبة عودتها المظفرة إلى البرازيل. فبعد تجهيز مزرعتها ستذهب إلى المدينة، وتمر أمام البنك الذي يعمل فيه الشاب الذي تركها من أجل أفضل صديقاتها، وتودع فيه مبلغاً ضخماً من المال. «مرحبا، كيف حالكِ؟ ألا تتذكريني؟» سيسألها.

وستتظاهر ببذل مجهود كبير للتذكُر، وتنتهي بأن تقول لا، وبأنها أمضت عاماً كاملاً في أو ـ رو ـ با (ستنطق الكلمة ببطء شديد لكي يسمعها جميع زملائه)، أو بالأحرى في سـ ـ ويسـ ـ را (هكذا سيبدو الأمر أكثر غرائبية وامتلاءً بالمغامرات من فرنسا)، حيث توجد أفضل مصارف العالم. ومن يكون السيد؟

سيشير إلى مرحلة المدرسة، فتقول: «آه، أظن أني تذكرت»، بهيئةِ من لم يتذكر.

حسناً، ها قد استُهلك الانتقام. الآن يجب استئناف العمل؛ فعندما يسير الأمر كما تصورَتْه تستطيع تكريس نفسها لما يشكل قمة اهتماماتها: اكتشاف الحب الكبير، الرجل الذي ينتظرها منذ كل تلك السنين ولم يُتَح لها لقاؤه بعد.

قررت ماريا أن تنسى إلى الأبد فكرة تأليف كتاب بعنوان إحدى عشرة دقيقة. وبات عليها من الآن وصاعداً أن تركِّز على المزرعة، على مشاريع المستقبل، أو تخاطر المخاطَرةَ المُهلِكَةَ بتأجيلِ عودتها.

ذهبت بعد الظهر إلى صديقتها المفضلة ـ والوحيدة ـ أمينة المكتبة. قالت لها بأنها مهتمة بتربية الحيوانات وإدارة مشروع زراعي، وطلبت منها كتباً حول الموضوع. اعترفت لها أمينة المكتبة:

«تعرفين أنه عندما أتيتِ قبل بضع شهور تريدين كتباً حول الجنس شعرتُ بالقلق عليك. فكثير من الفتيات الجميلات يستسلمن لوَهمِ المال السهل، وينسين أنهن سيَهْرَمْن يوماً، ولن تتاح لهن فرصَة لقاء الرجل الذي سيكون حبَّ حياتهن.

ـ تتكلمين عن البغاء؟

ـ الكلمة كبيرة جداً.

ـ قلت لك أعمل في شركة تصدير واستيراد لحوم. ولكن على فرض أنني أنوي بيع نفسي هل ستكون النتائج بهذه الخطورة إذا توقفتُ في الوقت المناسب؟ كونكِ شابةً يقتضي، أساساً، أن تقترفي أخطاء.

ـ جميع مدمني المخدرات يقولون هذا: يكفي التوقُّف في الوقت المناسب. لكن أحداً لا يتوقف.

ـ كنتِ بالتأكيد امرأة جميلة جداً. ولدتِ في بلد يعيش فيه المرء جيداً. هل كان هذا كافياً لسعادتك؟

ـ أنا فخورة بالطريقة التي تجاوزتُ بها العقبات».

هل كان علي أمينة المكتبة متابعة قصتها؟ لنتابع، كانت تلك الفتاة بحاجة لتعلّم الحياة قليلاً.

«عشتُ طفولة سعيدة، ودرستُ في إحدى أفضل مدارس برن. جئت للعمل في جنيف. التقيت برجلٍ أحببتُه وتزوجتُ. فعلت كل شيء لأجله، وهو أيضاً فعل كل شيء لأجلي، ثم مر الوقت وحان وقت التقاعد. عندما أصبح يملك حرية التصرف بوقته كما يشاء باتت نظرته حزينة ـ ربما لأنه لم يفكر بنفسه قط طوال حياته. لم يقع بيننا شجارٌ خطير أبداً، لم نُكابد انفعالاتٍ قوية أبداً، لم يخدعني أبداً، ولم يقلل قط من احترامي على الملأ. عشنا حياة عادية، عاديةً إلى درجة أنه شعر، وهو بلا عمل، بأنه بلا فائدة، بلا معنى، ومات بالسرطان بعد عام».

كانت تقول الحقيقة، لكن ربما تؤثر كلماتُها تأثيراً سلبياً على الفتاة الواقفة أمامها.

«مهما كان، الأفضل أن يعيش المرء حياة بلا مفاجآت، ختمت كلامها. ربما مات زوجي في وقت أبكر لو لم يكن الأمر كذلك».

خرجت ماريا من المكتبة متأبطةً كتبها، مصممةً على تثقيف نفسها حول إدارة المشاريع الزراعية. ولمّا لم يكن لديها ما تعمله عصراً قررت الذهاب للنزهة ولاحظت في جانب المدينة الأعلى لافتةً صفراء تحمل رسم شمس وكلمات: «طريق القديس جاك». ما هذا إذن؟ نظراً لوجود بارٍ في الطرف الآخر من الشارع، ولكونها تعلّمت كيف تسأل عن كل ما تجهله، دخلت تستَعْلم.

«ليست لدي أدنى فكرة» أجابتها الفتاة الواقفة خلف طاولة الشرب.

كان مكاناً أنيقاً، ثمن القهوة فيه ثلاثة أضعافه في مكان آخر. لكن ماريا طلبت قهوةً، لأنها تملك المال، ولأنها هناك، وقررت

تخصيص الساعات التالية لإدارة المزارع. فتحت كتابها بحماس دون أن تتمكن على أية حال من التركيز على قراءته ـ كان شديد الإملال. ربما تكون مقاربةُ هذا الموضوع مع أحد زبائنها أكثرَ إثارة للاهتمام ـ فهم يعرفون دوماً أفضل طريقة لإدارة المال. سددت ثمن قهوتها، نهضت، شكرت النادلة، تركت إكرامية سخية (كانت قد صَنعتْ لنفسها خرافةً بهذا الشأن: إذا أعطت الكثير حصلت على الكثير)، اتجهت نحو الباب، ودون أن تنتبه لأهمية هذه اللحظة سمعت الجملةَ التي ستُغيِّر إلى الأبد سيرَ مشاريعها، مستقبلَها، مزرعتَها، فكرتَها عن الحب، روحها الأنثوية، مواقفها الذكورية، ومكانها في العالم.

«دقيقة».

مفاجأة. نظرتْ جانباً. كان هذا المكان باراً محترماً، وليس الـ كوباكابانا الذي يحق فيه للرجال قول هذه الكلمات، حتى لو كانت للنساء حرية الرد بـ: «أنا ذاهبة، ولن تمنعني من ذلك».

كانت تستعد لتجاهل المبادرة، لكن فضولَها تَغَلَّب والتفتتْ نحو الصوت. رأت عندئذٍ مشهداً غريباً: رجل ثلاثيني تقريباً (أم عليها أن تقول «فتى»؟ لقد هرمَ عالمّها قبل الأوان)، طويل الشعر، يجثو أرضاً على ركبتيه، تتوزع بجانبه عدة فراشي، وهو بصددِ رسمِ سيدٍ جالس فوق كرسي، وقد وضع بجانبه كأس يانسون. لم تكنْ قد لاحظَتْهُما أثناء دخولها.

«لا تذهبي. سأُنهي هذا البورتريه، وبعدها أودُّ أن أرسمك أيضاً».

أجابت ماريا، وبإجابتها خَلقَت الرابطَةَ التي تَنقُصُ العالمَ.

«لستُ مهتمة.

ـ ثمة ضوء يشع منك. دعيني على الأقل أصنع لك رسماً أولياً».

ما ذلك الرسم الأولي؟ ما ذلك الـ «ضوء»؟ غير أنها امرأة مزهوة بنفسها، تخيلوا إذن أن يرسم صورتَها شخصٌ يبدو جاداً! تحمَّستْ: وماذا لو كان رساماً مشهوراً؟ إنها سوف تُخلَّد إلى الأبد في لوحةٍ! تُعرض في باريس أو في سلفادور دي باهيا! شيء خُرافي!

من ناحية أخرى، ماذا كان ذلك الرجل يفعل وسط كل تلك الفوضى، في بارٍ بهذه الفخامة ولا شكّ أن رُوَّاده من مستوى رفيع؟

وشوشَتْها النادلةُ وقد استشفَّت أفكارها: «إنه فنان معروف جداً».

كان حدسُها صحيحاً. فبذلت ماريا جهدها للحفاظ على برود أعصابها.

«يأتي إلى هنا من وقت لآخر، ويُحضِر دوماً زبوناً هاماً. يقول بأنه يحب جو البار، وأن هذا يُلهِمه؛ إنه يرسم لوحة فيها شخصيات تمثِّل جنيف بطلبٍ من مجلس المدينة».

نظرت ماريا إلى الرجل الذي يرسمه. ومن جديد قرأت الفتاةُ أفكارها.

«إنه كيميائي حقق اكتشافاً ثورياً. لقد حاز على جائزة نوبل.

ـ لا تذهبي، كرَّرَ الرسامُ. سأنتهي خلال خمس دقائق. اطلبي أي شيء واجعليه على حسابي».

ذهبت ماريا كالمُخدَّرة وجلست إلى البار. طلبت كأس كوكتيل باليانسون (الفكرةُ الوحيدة التي خطرت ببالها باعتبارها غير معتادة على الشرب، هي تقليد صاحب جائزة نوبل)، ونظرت إلى الرجل وهو يعمل. «لستُ من شخصيات جنيف، لا بدّ أنه مهتم إذن بشيء آخر. لكنه ليس من النموذج الذي أفضّله» فكرت آلياً مرددةً

ما تقوله دوماً منذ عملت في الـ كوباكابانا: فهذه الفكرة هي دولابُ نَجاتِها، وتَخَلِّيها المتَعَمَّد عن فِخاخ القلب.

طالما كان هذا واضحاً لها لن يكلفها شيئاً قليلٌ من الانتظار - ربما كانت النائلة على حق، وكان بوسعِ هذا الرجل أن يفتح لها أبواب عالم مجهول لطالما حلمت به: ألَم تفكر أساساً بأن تعمل موديلاً؟

راقبت المهارة والسرعة التي يُنهي بهما عمله - يبدو أنها لوحة كبيرة جداً لكنها شبه مطوية، ولم تستطع ماريا رؤية الوجوه الأخرى المرسومة. وماذا لو كانت تلك فرصة جديدة لها؟ لا يبدو الرجل (قررت أنه رجل وليس فتى، ولولا ذلك لبدأت تشعر بأنها عجوز) من النوع الذي يعرض مثل هذا العرض بهدفِ قضاء ليلة معها لا غير. بعد خمس دقائق، كما وعدها، أنهى عمله فيما راحت ماريا تسعى جاهدةً لإقناع نفسها بأنها لا مصلحة لها على الإطلاق في لقاءاتٍ قد تُهدِّد مشاريعها.

«شكراً، تستطيع أن تتحرك الآن»، قال الرسام للكيميائي الذي بدا كأنه خارجٌ من حلم. ثم أضاف بدون مداورة، ملتفتاً نحو ماريا: «اجلسي في هذا الركن وارتاحي. الإضاءة ممتازة».

كما لو أن كل شيء قد رتبه القدر، وأن ذلك هو أكثر الأشياء طبيعية في العالم، كما لو أنها عرفت هذا الرجل طوال حياتها، أو أنها عاشت هذه اللحظة في الحلم، وتعرف الآن ماذا يجب أن تفعل، أخذت ماريا كأس اليانسون وحقيبتَها وكتبَها، واتجهت إلى المكان الذي حدده لها - طاولة قرب النافذة. حمل الفراشيَ، اللوحةَ، مجموعةَ قوارير مليئة بطلاء من مختلف الألوان، علبة سجائر، وجثا بجانبها.

«حافظي على هذه الوضعية.

ـ هذا كثير كطَلَب؛ حياتي في حالة حركة دائمة».

جملةٌ وجدَتْها روحيةً، لكنه لم يعرها أي اهتمام. راحت ماريا تعاين الشارع واللافتة عبر النافذة، وهي تَجهد لتبقى طبيعية، فنظرةُ الرجل كانت تُسبِّب لها الضيق:

«ما هو طريق القديس جاك؟

ـ طريق للحج. في القرون الوسطى كان الحجاج يأتون من جميع أنحاء أوروبا، ويمرون من هذا الشارع للذهاب إلى كنيسة القديس جاك دي كومبوستيل في إسبانيا».

فتح جزءاً من اللوحة وأعدّ فراشيه. لم تعرف ماريا بعد ماذا عليها أن تفعل.

«وإذا سلكتُ هذا الطريق، هل أصل إلى إسبانيا؟

ـ بعد شهرين أو ثلاثة. هل لي أن أطلب منك معروفاً؟ ابقي صامتة؛ لن يدوم الأمر أكثر من عشر دقائق. وأنزلي هذه اللفافة عن الطاولة.

ـ إنها كتب» أجابت مستثارة على نحو غامضٍ من نبرة الرجل الآمرة. يجب أن يعرف بأنه يتعامل مع امرأة مثقفة ترتاد المكتبات بدلاً من المحلات التجارية. لكنه حملها بنفسه ووضعها على الأرض دون مزيد من التكلّف.

لم تنجح في التأثير عليه. لقد كانت هناك أساساً خارج وقت عملها، ومن الأفضل لها أن تحتفظ بسحرها من أجل رجالٍ يدفعون لها بسخاء لقاء عنائها. لِمَ ترتبط بهذا الرسام؟ الرجل الثلاثيني لا يجب أن يكون طويل الشعر، هذا شيء مضحك. لماذا تظن بأنه لا يملك مالاً؟ قالت لها نايلة الملهى بأنه مشهور ـ أيَكون الكيميائيُّ هو المشهور؟ نظرت إلى ملابسه، لكن ذلك لم يجعلها تفهم أكثر؛ فقد علمتْها الحياة بأن الرجال المهمِلين في لباسهم ـ وهو ما

ينطبق عليه - يَبدون دوماً أكثر غِنىً ممن يرتدون البذلةَ وربطة العنق.

«لماذا تفكر بهذا الرجل؟ ما يهمني هو اللوحة».

عشر دقائق ليست ثمناً مرتفعاً جداً لقاء تخليدها في لوحة. وقد تبين لها أنه يرسمها إلى جانب ذلك الكيميائي صاحب الجائزة، وتساءلت ما إذا كان سيطالبها بأجرٍ ما.

«التفِتي نحو النافذة».

أطاعت أيضاً دون أسئلة، الأمر الذي لم يكن أبداً من عادتها. نظرت إلى المارة، إلى لافتة طريق القديس جاك، متخيلةً أن هذا الشارع كان موجوداً قبل قرون، وأنه صمدَ أمام التقدم، أمام تحولات العالم، وتحولات الإنسان. ربما كان ذلك فألاً حسناً؟ ربما تلاقي هذه اللوحةُ المصيرَ نفسه، ويُعثر عليها في المتحف بعد خمسمئة عام...

أخذ الرجل يرسم، وكلما تقدم في عمله، فقدت ماريا حماسها وشعرت بالسخف. عندما دخلت إلى هذا البار، كانت امرأةً واثقة من نفسها، قادرة على اتخاذ قرار حساس - هجرُ مهنة تؤمّن لها النقود - وقبول تحدٍّ أصعب - إدارة مزرعة في موطنها الأصلي. ويعتريها الآن من جديد شعور بعدم الأمان، الشعور الذي لا يمكن لمومس أن تمنح نفسَها ترَفَ الإحساس به.

اكتشفت أخيراً سبب ضيقها: للمرة الأولى منذ شهور لا ينظر إليها شخصٌ ما كشيءٍ ولا كامرأةٍ، بل بطريقة يصعب تعريفها مع أن أقرب تعريف لها هو: «إنه يرى روحي، مخاوفي، هشاشتي، عجزي عن محاربةِ عالمٍ أتظاهر بالسيطرة عليه، لكني لا أعرف عنه شيئاً».

شيء مضحك، راحت تصوّر لنفسها أشياء.

«أودُّ لو...

ـ أرجوكِ، لا تتكلمي، قال الرجل. أرى ضوءكِ».

لم يقل لها هذا أحدٌ أبداً. بل «أرى نهديك المتماسكين»، «أرى فخذيك الرائعين»، «أرى هذا الجمال المَداريَّ الغرائبي»، أو بأفضل الأحوال، «أرى أنك تريدين الخلاص من هذه الحياة، أعطني فرصة وأُنزلكِ في شقة». تلك هي التعليقات التي اعتادت أن تثيرها، أما... ضوءها؟ هل قصدَ بأن الليل بدأ يخيّم؟

«ضوءكِ الشخصي»، أضاف وقد رأى بأنها لم تفهم شيئاً.

ضوء شخصي. لا أحد يمكن أن يكون أكثر حَيْداً عن الواقع من هذا الرسام الساذج الذي، رغم أعوامه الثلاثين، لا يعرف شيئاً عن الحياة. فمن المعروف عموماً أن النساء ينضجن أسرع من الرجال و ـ حتى لو لم تقضِ ماريا ليالي بيضاء في التفكير بصراعاتها الفلسفية ـ فقد كانت تعرف شيئاً واحداً على الأقل: ليس لديها ما يسميه الرسام «ضوء» أو ما تفسره هي بـ «ألق خاص». إنها مثل كل الناس، تعاني بصمت من الوحدة، تحاول تبرير جميع أفعالها، تتظاهر بالقوة وقت ضعفها، وبالضعف عندما تشعر بأنها قوية؛ ورغم زهدها بجميع المشاعر لصالحِ عملٍ ينطوي على مخاطر، فإن لديها، وقد اقتربت من الهدف، مشاريع للمستقبل وحسرات من الماضي. وإنسانٌ في وضع كهذا لا يملك أي «ألق خاص». كان ذلك دون شك طريقة لإرغامها ، مثل حمقاءَ، على الصمت وعدم الحركة.

«ضوء شخصي. كان بوسعه اختراع شيء آخر. «منظرك الجانبي جميل» على سبيل المثال».

كيف يدخل الضوء إلى المنزل؟ عبر النوافذ المشرعة. كيف يدخل الضوء إلى شخص؟ عبر باب الحب، إذا كان مفتوحاً. وبابها ليس كذلك قطعاً. لا بد أنه رسام رديء لا يفقه في الأمر شيئاً.

«انتهيت» قال.

لم تتحرك ماريا. كانت ترغب برؤية اللوحة، لكنها خافت أن يَعتبر طلبَها قلةَ تأدُّب. لكن الفضول غلبها. فطلبت منه، وقبِل.

لم يرسم سوى وجهها؛ كان يشبهها، لكنها لو رأت يوماً هذه اللوحة دون أن تعرف الموديل لقالت عن المرأة المرسومة بأنها شخص أقوى منها بكثير، ومليء بـ «ضوء» لا ترى انعكاسه في المرآة.

«أُدْعى رالف هارت. يمكن أن أقدم لك كأس شراب آخر إذا أردتِ.

ـ لا، شكراً».

يبدو أن اللقاء بدأ يأخذ الآن منحىً متوقعاً على نحو محزن: رجل يحاول إغواء امرأة.

«كأسا شراب اليانسون من فضلك» طلبَ دون اعتبار لجوابها.

ما أفضلُ ما يمكنها عمله؟ قراءة مؤلَّف مملٍ حول الإدارة الزراعية. التنزه على ضفة البحيرة، كما سبق أن فعلت مئات المرات. أم الثرثرة مع رجل رأى فيها ضوءاً تجهله، وتحديداً يوم بدايةِ نهايةِ «تجربتها».

«ماذا تفعلين في الحياة؟».

ذاك هو بالضبط السؤال الذي لا تريد سماعه، والذي فوّتَ عليها عدداً من اللقاءات، عندما كان أحد ما، لسببٍ ما، يقترب منها (نادراً ما حدث ذلك، لأن السويسريين أناس متكتمون بطبيعتهم). بماذا يمكنها أن تجيب؟

«أعمل في ملهى ليلي».

ها قد انزاح عبء هائل عن كتفها ـ وشعرت بالرضى عن كل ما تعلمته منذ قدومها إلى سويسرا؛ أن تسأل (من هم الأكراد؟ وما

هو طريق القديس جاك؟) وأن تجيب (أعمل في ملهى ليلي)، دون اهتمام برأي الشخص الآخر.

«أظن أني رأيتك سابقاً».

شعرت ماريا بأنه يريد أن يمضي أبعدَ، وتلذذت بنصرِها الصغير؛ فالرسام الذي كان قبل دقائق يوجه لها الأوامر، ويبدو واثقاً مما يريد، عاد رجلاً مثل غيره، قليل الثقة أمام امرأة مجهولة.

«وهذه الكتب؟».

أعطته إياها ليراها. زراعة، إدارة مزارع. ضعفت ثقتُه أكثر.

«تعملين في الجنس؟».

خاطرَ وسأل. هل لأنها ترتدي ثياباً على طريقة المومسات؟ على أية حال كان عليها أن تكسب الوقت. بدأت اللعبة تصبح مثيرة للاهتمام، ولم يكن لديها ما تخسره إطلاقاً».

«لماذا لا يفكر الرجال إلاّ بهذا؟».

أعاد الكتب إلى مكانها.

«جنس وإدارة زراعية، ميدانان مملاّن جداً».

كيف؟ شعرت فجأةً بالتحدّي. كيف أمكنه أن يمسّ مهنتها بسوء؟ حسناً، إنه لا يعرف في أي شيء تعمل حقاً، وهو يُعبّر هنا دون شك عن فكرة مسبقة، لكنها لا تستطيع تركه دون جواب.

«حسناً، أنا أظن أنه لا يوجد ما هو أكثر مللاً من الرسم: عمل جامد، حركة موقفة، صورة غير أمينة أبداً للأصل. فن ميت ما عاد أحد يهتم به غير الرسامين ـ أناسٌ يظنون أنفسهم متفوقين، مثقفين، وهم لم يتطوروا مثل باقي البشر. هل سمعتَ عن خوان ميرو؟ أنا لم أسمع عنه قط إلاّ من عربيٍّ في مطعم، وهذا لم يغيّر من حياتي شيئاً على الإطلاق».

كان من المستحيل معرفة ما إذا كانت قد مضت أبعد مما يجب، لأن الطلب أُحضِر والحديث انقطع. لبثا برهةً صامتين. فكرت ماريا بأنه آن أوان الانصراف، وربما قال رالف هارت لنفسه الشيء ذاته. لكن كأسين مملوئين كانا هناك على الطاولة، وتلك ذريعة للبقاء معاً.

«لِمَ الكتاب الذي يتحدث عن الزراعة؟

ـ ماذا تعني؟

ـ سبق أن ذهبتُ إلى شارع برن. أذكر أني رأيتُك في ملهى ليلي غالٍ جداً. لكني، وأنا أرسمكِ، لم أنتبه لذلك لأن ضوءك كان قوياً جداً».

أحست ماريا بالأرض تهرب من تحت قدميها. للمرة الأولى تشعر بالخزي من مهنتها، رغم عدم وجود سبب لذلك. إنها تعمل لتوفير احتياجاتها واحتياجات أسرتها. هو مَن يجب أن يشعر بالخزي لذهابه إلى شارع برن؛ كان كل ذلك الافتتان المحتَمَل قد اختفى بين اللحظة والأخرى.

«اسمع، يا سيد هارت. رغم أني برازيلية فأنا أعيش في سويسرا منذ تسعة شهور. وبتُّ أعرف أن السويسريين متحفظون لأنهم يعيشون في بلد صغير يعرف فيه الجميع تقريباً بعضهم بعضاً، كما تأكدَ لنا للتو. لهذا السبب لا أحد يطرح أسئلةً عن حياة غيره. كان تعليقُكَ في غير مكانه ويفتقد للحساسية ـ أما إذا كان هدفك هو إهانتي لكي تشعر بقدر أكبر من الارتياح، فقد أهدرتَ وقتك. شكراً على شراب اليانسون الآسن الذي سأشربه حتى الثمالة. بعدها سأدخن سيجارة. وفي النهاية سأنهض وأمضي. لكنك تستطيع الانصراف في الحال، لأنه من غير المناسب أن يجلس رسام شهير إلى طاولة مومس. هذا ما أنا، أتفهم؟ مومس. بلا أونصة واحدة من الشعور بالذنب، من رأسي حتى أخمص قدمي،

من الأسفل إلى الأعلى ـ مومس. وتلك هي فضيلتي: أنا لا أخدع نفسي ولا أخدعك، لأن الأمر لا يستحق. أنت لا تستحق كِذْبة. تخيل أن يكتشف الكيميائيُ الشهير الجالس هناك في الطرف الآخر من المقهى، من أكون؟» ورفعتْ نبرتها. «مومس! أتعرف ماذا؟ هذا يجعلني حرةً في معرفةِ أني سأغادر هذا البلد اللعين خلال تسعين يوماً بالضبط، محشوّة بالنقود، وأكثر ثقافة مني وقتِ وصولي وقادرة على اختيار نبيذ جيد، وحقائبي مليئة بصور أُخذت فوق الثلج، وملمّة بالطبيعة الإنسانية!».

كانت نادلة الملهى تستمع إليها مذعورةً، والكيميائي يبدو غير منتبه إليها. ربما كان ذلك من تأثير الكحول، وربما كان ناتجاً عن يقينها بأنها قريباً ستعود برازيليةً من بلدان شمال شرق أمريكا اللاتينية، وربما هو التخفُّف الناتج عن اعترافها بمهنتها، وتمكُّنها من السخرية من ردود الفعل المصدومة، والنظرات المنتَقِدة، والحركات المندِّدة.

«هل فهمتَ جيداً سيد هارت؟ من الأسفل إلى الأعلى، من رأسي حتى قدميّ، أنا مومس، وتلك ميزتي، فضيلتي!».

لزم الصمت، وبقي بلا حراك. شعرت ماريا بالثقة تعود إليها.

«وأنت، أنت رسام لا تفهم شيئاً عمَّن تَرسمهم. ربما يكون الكيميائي الجالس هناك نصفَ نائم، مستَخدَماً في السكك الحديدية، وألاّ يكونَ جميعُ أشخاص لوحتك دوماً ما يَبدون عليه. وإلاّ لما أمكنكَ أبداً الزَّعمُ بأنك التقطتَ «ضوءاً» خاصاً لدى امرأةٍ ليست، كما اتضح لك، سوى عا ـ هـ ـ رة»!

نُطِقت تلك الكلمات الأخيرة نطقاً واضحاً، وبصوت مرتفع. استيقظ الكيميائي، وأحضرت النادلةُ ورقة الحساب.

«الأمر لا يتعلق بالمومس، بل بالمرأة التي تكونين». تجاهل رالف النبرة وأجاب هو أيضاً بهدوء، إنما بصوت منخفض، «فيك

ضوء: ضوء الإرادة التي يتحلى بها كائنٌ قادرٌ على التضحية بأشياء هامة لصالحِ أشياء أخرى يعتبرها أشد أهمية. العينان. ذلك الضوء يظهر في عينيك».

شعرت ماريا بأنها عزلاء؛ لم يستجب لتَحدِّيها. أرادت الاعتقاد بأنه لا يسعى إلاّ إلى إغوائها. لقد منعت نفسها من التفكير - في التسعين يوماً القادمة على الأقل - باحتمالِ وجودِ رجالٍ مثيرين للاهتمام على هذه الأرض.

«ترين شراب اليانسون الموجود أمامك؟ تابعَ. حسناً، إنك لا ترين سوى شراب يانسون. أما أنا، نظراً لأنّ عليّ أن أمضي إلى ما وراء الأشياء، أرى النبتة التي خرج منها، العواصف التي واجهتها هذه النبتة، اليد التي قطفت حباتها، الرحلة بالباخرة من قارة إلى أخرى، عطر هذه النبتة ولونها قبل تماسِها مع الكحول. فإذا رسمتُ هذا المشهد يوماً، سأرسم هذا كله - مع ذلك فإنك حين ترين اللوحة تظنين أنك أمام كأس شراب يانسون تافه.

«كذلك الأمر بينما كنت تنظرين إلى الشارع وتفكرين في طريق القديس جاك - أعرف أنك كنتِ تفكرين بذلك - رسمتُ طفولتكِ، مراهقتكِ، أحلامكِ التي لم تتحقق، مشاريعك القادمة، إرادتكِ - هذا أكثر مايثير حيرتي. عندما شاهدتِ اللوحة...».

شرّعت ماريا أبوابَ دفاعاتها مدركةً بأنه سيكون من الصعب إغلاقها من جديد لاحقاً.

«رأيتُ ذلك الضوء...

- حتى لو أن من كانت هنا ليست سوى امرأة تشبهك».

خيمَ من جديد صمتٌ محرِج. نظرت ماريا إلى ساعتها.

«يجب أن أنصرف. لماذا تقول بأن الجنس ممل؟

- لا بدّ أنك تعرفين ذلك أفضل مني.

ـ أعرف ذلك لأني أعمل في هذا الميدان. إنه الروتين نفسه كل يوم. أما أنت، فإنك رجل في الثلاثين...

ـ في التاسعة والعشرين...

ـ شاب، جذاب، شهير. المفروض أن تهتم بهذه الأمور دون حاجة للبحث عن صحبةٍ في شارع برن.

ـ كنتُ بحاجة لذلك. نمتُ مع عدد من زميلاتك. لكني لم أفعل ذلك لصعوبةٍ في العثور على امرأة. مشكلتي هي مع نفسي».

شعرت ماريا بشيءٍ من الغيرة تخترقها، وخافت. فهمت الآن أن عليها الانصراف بالفعل.

«كانت تلك آخر محاولة لي. عدلتُ الآن عن ذلك»، قال رالف وهو يجمع مواده المنثورة على الأرض.

«مشكلة جسدية؟

ـ أبداً. فقدان الاهتمام وحسب».

لم يكن ذلك ممكناً.

«ادفع الحساب ودعنا نتمشَ. أظن في الواقع أن كثيراً من الناس يعانون ما تعانيه ولا أحد يعترف بذلك. من الجيد الكلام مع شخص بهذا الصدق».

سلكا طريق القديس جاك باتجاه النهر الذي يصب في البحيرة، ويتابع مجراه في الجبال، لينتهي في بقعة بعيدةٍ بإسبانيا. التقيا بمارةٍ عائدين من الغداء، أمهات يدفعن عربات أطفال، سياح يلتقطون صوراً لنافورة الماء وسط البحيرة، نسوة مسلمات محجبات، صبية وفتيات يركضون للتريُض، وجميعهم حجاج يَنشدون هذه المدينة الأسطورية، مدينة القديس جاك دي كومبوستيل، التي ربما لم توجد ولم تكن سوى أسطورة احتاج

الناس للإيمان بها لإعطاء معنىً لحياتهم. على الطريق الذي قطعه كثير من الناس منذ زمن بعيد جداً، كان يسير أيضاً هذا الرجل طويل الشعر الذي يحمل كيساً ثقيلاً مليئاً بالفَراشي، بقوارير الألوان، بأقلام الرصاص، وفتاة تصغره قليلاً تحمل كتباً حول الإدارة الزراعية. لم يخطر لأي منهما التساؤل عن سبب قيامهما بهذا الحج معاً، لأنه كان الشيء الأكثر طبيعية في العالم ـ كان يعرف كل شيء عنها، مع أنها لا تعرف شيئاً عنه.

لذا قررت أن تسأل ـ منذ ذلك الوقت باتت تسأل عن كل شيء. تظاهر في البداية بالخجل، لكنها تعرف كيف تحصل من رجلٍ على أي شيء. روى لها في النهاية بأنه تزوج مرتين (رقم قياسي لشخصٍ في التاسعة والعشرين!)، وسافر كثيراً، وقابل ملوكاً وممثلين شهيرين وشارك في أعياد لا تُنسى. ولد في جنيف، عاش في مدريد وأمستردام ونيويورك وفي مدينة جنوبي فرنسا تدعى تارب غير موجودة على أي محيط سياحي معروف، لكنه يعشقها بسبب قربها من الجبال وأُنسِ سكانها. اكتُشفت موهبته الفنية وهو في العشرين؛ عند قدوم تاجر لوحات فنية كبير ذات يوم مصادفةً، ليأكلِ في مطعم ياباني صَنعَ ديكوراتِهِ في مسقط رأسه. كسب مالاً كثيراً، وكان شاباً وبصحة جيدة، يمكنه أن يفعل ما يشاء، ويذهبّ حيث يشاء، ويلتقي بمن يشاء. عرف جميع الرغبات التي يمكن أن يعرفها رجل، أحبُّ مهنته، ورغم كل ذلك من شهرة ومال ونساء وأسفار كان تعيساً لا يملك في الحياة سوى فرحة واحدة: متعةُ الرسم.

«هل سببت لكَ النساءُ المعاناة؟» سألتْ، وسرعان ما أدركت أن سؤالها أحمق كأنه خارج من كتيّب مدرسي حول «كل ما يجب أن تعرفه النساء للفوز برجل».

«لم يسببن لي المعاناة أبداً. كنتُ سعيداً جداً مع زوجتَيّ. كانتا

تخدعاني وأخدعهما، كما يحدث بين جميع الأزواج. لكن بعد مضي وقت معين لم يعد الجنس يثير اهتمامي. كنتُ ما أزال أحبها، أشتاق صحبتها، أما الجنس... لماذا نتحدث عن الجنس؟

ـ لأني مومس، كما قلتَ بنفسك.

ـ ليس لحياتي أهمية كبيرة. أنا فنان نجح مبكراً، الأمر النادر الحدوث، والأكثر ندرة في الرسم؛ يمكنني اليوم أن أرسم جميع أنواع اللوحات وأحصل منها على سعر جيد حتى وإن ثار غضبُ النقاد، كونهم يَعتبرون أنهم الوحيدون الذين يعرفون ما هو الفن. أنا أحد أولئك الأشخاص الذين يعتقد الجميع أنهم يملكون جواباً لكل شيء: كلما صَمَتُّ أكثر، اعتُبرتِ أكثر ذكاءً».

مضى يحكي عن حياته: كل أسبوع يُدعى إلى مكان. لديه وكيلة في برشلونة ـ هل تعلم ماريا أين تقع هذه المدينة؟ نعم، تعرف ذلك، إنها في إسبانيا. تلك المرأة تُعنى بكل ما يخص النقود والدعوات والمعارض، لكنها لا تحثّه أبداً على القيام بما لا يرغب به: فبعد سنوات من العمل، نالا حصة ثابتة في سوق الفن.

«هل هذه قصة مثيرة للاهتمام؟» كان صوته ينمّ عن بعض الضيق.

«إنها قصة غير مبتذلة. كثيرون يتمنون أن يكونوا في مكانك».

أراد رالف أن يعرف من هي ماريا.

«هناك ثلاثة أشخاص بداخلي، وذلك متعلق بالشخص الذي يأتي إليّ. فأنا فتاة صغيرة ساذجة تنظر إلى الرجل بإعجاب وتتظاهر بالتأثر بحكاياته عن السلطة والمجد. وامرأة مُغوية لا تقاوَم، تهاجم دفعةً واحدة مَن يشعرون بأقلّ قدرٍ من الثقة بالنفس، وبسلوكها هذا تسيطر على الوضع فتجعلهم يشعرون بالراحة نظراً

لأنهم ما عادوا بحاجة للاهتمام بشيء. وأخيراً أمٌ عَطوف، تُدَلِّلُ الرجال المتلهّفين للنصح، وتُصغي بهيئةٍ متفهّمة إلى قصص تَدْخُلُ من أذُنٍ لتخرج من الأخرى. أيٌّ من الثلاثة تريد أن تعرف؟

- أنتِ».

روث ماريا كل شيء. احتاجت لذلك. كانت المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك منذ مغادرة البرازيل. في نهاية روايتها، اتُّضحَ لها بأنها، رغم مهنتِها غير التقليدية، لم تشعر بانفعالات كبرى بعد الأسبوع الذي أمضته في ريو، والشهر الأول في سويسرا. من البيت إلى العمل، ومن العمل إلى البيت،لا غير.

عندما انتهت، كانا جالسين من جديد في ملهى - في الطرف الآخر من المدينة هذه المرة، بعيداً عن طريق القديس جاك. وراح كل منهما يفكر بما خبأه القدر للآخر.

«ما الذي يمكن قوله أيضاً؟ سألتْ.

- مثلاً، إلى اللقاء».

نعم. لم يكن عصر هذا اليوم شبيهاً بغيره. شعرت ماريا بالقلق والتوتر، بأنها فتحت باباً ولا تعرف كيف تغلقه.

«متى يمكنني رؤية اللوحة؟»

قدَّم لها رالف بطاقةَ وكيلته في برشلونة.

«اتصلي بها خلال ستة شهور إذا كنت ما تزالين في أوروبا. لوحة «وجوه من جنيف» المكونة من أشخاص مشهورين ومجهولين، سوف تُعرض للمرة الأولى في صالة ببرلين. بعدها ستتجول في أوروبا».

تذكرت ماريا الروزنامة، الأيام التسعون المتبقية لها، الخطر الذي تمثله علاقة، أو أية صلةٍ كانت.

«ما أهم شيء في هذه الحياة؟ هل هو أن تعيش أم أن تتظاهر بأنها عاشت؟ أن تخاطر الآن وتقول بأن عصر هذا اليوم الذي استمع فيه أحد إليّ دون أن يوجِّهَ انتقادات أو تعليقات، هو أجمل عصرٍ أمضيته هنا؟ أم أن ترتدي ببساطة درعَ المرأة المليئة بالإرادة، التي يشع منها «ضوء»، وتمضي دون أن تُضيف شيئاً؟»

بينما كانا يسيران على طريق القديس جاك، ازداد شعور ماريا بالسعادة وهي تسمع نفسَها تحكي عن حياتها. كان بوسعها الاكتفاء بذلك ـ فقد كان هدية رائعة تقدمها الحياة.

«سآتي لرؤيتكِ، قال رالف.

ـ لا تفعل. سأعود إلى البرازيل قريباً. لم يعد بيننا ما يُقال.

ـ أذهب إليك كزبون.

ـ سيكون ذلك إذلالاً لي.

ـ أذهب إليك لكي تنقذيني».

لقد أسَرَّ لها بعدم اهتمامه بالجنس. أرادت أن تقول بأنها تشعر بعدم الاهتمام نفسه، لكنها أمسكت نفسها ـ لقد مضت بعيداً في إنكاراتها، وسيكون أكثر ذكاءً أن تصمت.

شيء مؤثر. منذ حين كانت برفقة صبي صغير ـ أما هذا فلم يطلب قلماً، بل قليلاً من الصحبة. التفتت نحو ماضيها، وللمرة الأولى غفرت لنفسها: لم يكن خطأها، بل خطأ الصبي قليل الثقة بالنفس، الذي تراجع عند المحاولة الأولى. كانا طفلين، والأطفال يتصرفون على هذا النحو ـ لم يقترف أي منهما خطأً. منحها ذلك ارتياحاً كبيراً، وشعرت بتحسُّن. إنها لم تَخُن أول فرصة في حياتها. الجميع يتصرفون على هذا النحو، وهذا يشكّل جزءاً من سعي الكائن البشري في البحث عن نصفه الضائع.

أما الآن، فقد اختلف الوضع. مهما كانت الأسباب وجيهة

(أعود إلى البرازيل، أعمل في ملهى ليلي، لم يُتَح لنا الوقت لمعرفة بعضنا بعضاً، لا أهتم بالجنس، لا أريد معرفة شيء عن الحب، يجب أن أتعلم كيف أدير مزرعة، لا أفقه شيئاً في الرسم، نعيش في عالمين مختلفين)، فالحياة تقدِّم لها تَحَدِّياً. لم تعد طفلة وعليها أن تختار.

فضلتْ ألاّ تجيب. صافحته كما هو معتاد في هذا البلد، وعادت إلى منزلها. لو أنه حقاً الرجل الذي تتمنى أن يكونه فلن يحرجَه صمتُها.

من يوميات ماريا، مقطع كُتِب في اليوم نفسه:

اليوم، وفيما كنا نسير عند شاطئ البحيرة، على ذلك الطريق الغريب، طريق القديس جاك، ألقى الرجل الذي كان معي ـ رسامٌ، حياةٌ مناقضة لحياتي ـ حصاةً صغيرة في الماء. وحول النقطة التي سقطت فيها الحصاة ظهرت دوائر راحت تتسع حتى وصلت إلى بطة تسبح هناك. وبدلاً من أن يخاف الطير من تلك الموجة غير المتوقعة، راح يلهو بها.

قبل بضع ساعاتٍ دخلتُ مقهىً، سمعتُ صوتاً، كأنّ الله ألقى حجراً صغيراً في ذلك المكان. مسَّتْني أمواجُ الطاقة، ومستْ رجلاً كان يرسم في ركن هناك. شعرَ باهتزازت الحجر، وأنا كذلك. والآن؟

الرسام يعرف عندما يعثر على موديل. الموسيقي يعرف عندما تكون آلته مدوزَنة. وهنا في يومياتي أعي أن بعض الجُمل لم تُكتب من قِبَلي، بل من قِبل امرأة مليئة بـ «ضوء» أتبعه وأرفض قبوله.

بوسعي الاستمرار هكذا، لكن بوسعي أيضاً، مثلما فعلت بطةُ البحيرة، أن ألهو وأستمتع بالموجة التي جعَّدَتْ، على حين غرة، سطحَ الماء.

لهذا الحجر اسم: الهوى. يمكن وصف جمالِ لقاءٍ صاعق بين

شخصين بهذا الاسم لكنه لا يقتصر على هذا. يكمن الهوى في الإثارة من شيء غير متوقع، في الرغبة بالتصرف بورع، في اليقين بالنجاح في تحقيق حلم. يرسل الهوى إشارات توجّهُ حياتَنا، ويجب أن أعرف كيف أقرأ هذه الإشارات.

يطيب لي الاعتقاد بأني مغرمة بأحدٍ ما، لا أعرفه ولم يكن مِن ضمن مشاريعي. كان لكل هذه الشهور التي أمضيتُها في التحكُم بنفسي، ورفض الحب، أثر معاكس تماماً: فقد استسلمتُ لأول شخصٍ منحني اهتماماً مختلفاً.

لحسن الحظ أني لم أطلب منه رقم هاتفه، لا أعرف أين يسكن، وربما أفقده دون أن أشعر بالذنب على إضاعة الفرصة.

وإذا كان الأمر هكذا، فحتى لو فقدتُه فقد كسبتُ يوماً من السعادة في حياتي. في عالمٍ كهذا يعتبر يومٌ منِ السعادة شِبهَ معجزة.

عندما دخلت ماريا ذلك المساء إلى الـ كوباكابانا كان بانتظارها. كان الزبونَ الوحيد. رأى ميلان الذي راح يتابع تلك البرازيلية، ليس دون نوعٍ من الفضول، رأى أن الشابة خسرت المعركة.

«هل تقبلين كأساً؟

ـ يجب أن أشتغل. لا يمكنني أن أفقد عملي.

ـ أنا زبون. وأقدم لك عرضاً مهنياً».

ذلك الرجل الذي بدا، عصراً، شديد الثقة بنفسه، والذي كان يحرك الفرشاة جيداً، ويلتقي بشخصيات هامة، ولديه وكيلة في برشلونة، ويكسب بالتأكيد الكثير من النقود، كان ذلك الرجل يُظهر الآن هشاشته. لقد دخل محيطاً ما كان يجب أن يدخله. لم يعد في مقهى رومانتيكي على طريق القديس جاك. واختفى الفتتانُ عصرِ اليوم.

«هل تقبلين إذن؟

ـ أقبل، ولكن ليس الآن. اليوم هناك زبائن بانتظاري».

سمع ميلان نهاية الجملة؛ لقد أخطأ. لم تقع الفتاة في فخ وعودِ الغرام. إلا أنه في نهاية أمسيةٍ تنقصها الحيوية الشديدة

سأل نفسه عما دعاها إلى تفضيل صحبةِ عجوزٍ، ومحاسبٍ مبتذل، ومندوب تأمين...

حسناً، تلك مشكلتها. طالما أنها تدفع له عمولته فليس له أن يقرر مع من يجب أن تنام أو لاتنام.

من يوميات ماريا، بعد الأمسية التي أمضتها بصحبة العجوز والمحاسب ومندوب التأمين:

ما الذي يريده هذا الرسام مني؟ ألا يعرف أننا من بلدين وثقافتين مختلفتين؟ هل يظن أنني أعرف أكثر منه في المتعة، هل يريد أن يتعلم شيئاً؟

لماذا لم يقل لي شيئاً سوى: «أنا زبون»؟ كان سهلاً جداً أن يقول: «افتقدتكِ»، أو «عشقتُ الأمسية التي أمضيناها معاً». وكنتُ أجبتُ بالطريقة نفسها (أمارس مهنتي). من واجبه أن يفهم بواعث قلقي، لأني امرأة، لأني هشة، ولأني فوق ذلك، شخص آخر في هذا المكان.

إنه رجل، وفنان. ويجب أن يعرف أن غاية الكائن البشري هي فهم الحب المطلق. الحب ليس في الآخَر، بل فينا؛ نحن من نوقظه. لكننا نحتاج إلى الآخر من أجل هذه اليقظة. لا يكون للكون معنى إلاّ عندما يكون لدينا من نشاركه انفعالاتنا.

هو تعبٌ من الجنس؟ أنا أيضاً - ومع ذلك فلا هو ولا أنا نعرف ما الجنس. إننا ندع أكثرَ الأشياء جوهريةً تموت - كنتُ بحاجةٍ أن ينقذني، كان بحاجة أن أنقذه، لكنه لم يترك لي أي خيار.

كانت ماريا خائفة. بدأت تفهم أنه بعد كل ذلك التمَكُّن، ذلك الضغط، تلك الهزة الأرضية، بدأ بركان روحها يعطي إشاراتِ انفجار. وحالما يقع ذلك، قد لا تستطيع السيطرة على عواطفها. من يكون ذلك الفنان الإبليس الذي يُحتَمل جداً أنه كذب عليها، الذي لم تقضِ معه أكثر من بضع ساعات، الذي لم يلمسها، ولم يحاول إغواءها ـ هل هناك ما هو أسوأ؟

لماذا دق قلبُها ناقوسَ الخطر؟ لماذا كانت تظن أن لديه الشعور نفسه؟ لكن الواضح أنها مخطئة في كل شيء. كان رالف هارت يتمنى أن يلتقي بامرأةٍ توقظ النار التي بدأت تخمد، أو تكاد. كان يريد أن يجعل منها ربّة الجنس الكبرى الخاصة به، صاحبة «الضوء» الخاص (كان صادقاً في هذا)، المستعدة لأخذهِ من يده لكي تُريهِ طريق العودة إلى الحياة. كان عاجزاً عن إدراك أنّ ماريا تعاني من عدم الاهتمام نفسه، وأنّ لديها مشاكلها الخاصة (بعد كل هؤلاء الرجال، لم تصل بعدُ إلى النشوة أثناء الإيلاج)، وأنها ذلك الصباح أعدت بعض المشاريع ونظمت عودةً مظفّرة إلى بلدها الأصلي.

لماذا تفكر به؟ لماذا تفكر بشخصٍ، ربما يرسم في هذه اللحظة بالذات، امرأةً أخرى ويقول لها بأنّ فيها «ضوءاً» خاصاً وأن بمقدورها أن تكون ربّةَ الجنس بالنسبة له؟

«أفكر به لأني استطعتُ أن أتكلم».

شيء مضحك! هل فكرت بأمينة المكتبة؟ لا. هل فكرت بالشابة الفيليبينية نياه، الوحيدة بين نساء الـ كوباكابانا التي تستطيع مشاركتها قدراً ولو ضئيلاً من العواطف؟ لا، ومع ذلك فقد كانتا شخصين ترتاح معهما.

حاولت تحويل انتباهها إلى حرارة الطقس، إلى السوبر ماركت الذي لم تستطع الذهاب إليه بالأمس. كتبت لأبيها رسالة مطولة مليئة بتفاصيل تذهل عائلتها حول موضوع الأرض التي تود شراءها. لم تحدد تاريخ عودتها، لكنها أوحت بأنه قريب. أغفت، أفاقت، أغفت مجدداً، أفاقت. تبين لها أن كتاب الإدارة الزراعية، الملائم تماماً في نظر السويسريين، بلا أي نفع للبرازيليين - إنهما عالمان شديدا الاختلاف.

بعد الظهر تبين لها أن الهزة الأرضية والبركان والضغط، راحت تهدأ. استرخت. انتابها سابقاً هذا النوع من الشغف المفاجئ، وكان يهبط ثانيةً دوماً في اليوم التالي - لحسن الحظ أن عالمها بقي على حاله. لديها أسرة تحبها، رجل ينتظرها، ويُكثر الآن من الكتابة لها ليقول لها بأن متجر الأقمشة يزدهر. حتى لو قررت أن تستقل الطائرة في المساء نفسه، فإن لديها ما يكفي من المال للحصول على أرض صغيرة. لقد تغلبت على أكثر العقبات صعوبة، عقبة اللغة، الوحدة، اليوم الأول في المطعم برفقة العربي، ولقد نجحت في إقناع روحها بعدمِ الشكوى مما يفعله جسدُها. إنها تعرف تماماً ما هو حُلمُها، وكانت مستعدة للقيام بأي شيء لتحقيقه. لم يكن في هذا الحلم رجال أساساً، على الأقل ليس فيه رجال لا يتكلمون لغتها الأم، ولا يعيشون في مدينتها الأصلية.

عندما توقفت الهزة الأرضية، فهمت ماريا أنها مسؤولة جزئياً لأنها لم تقل آنذاك: «أنا وحيدة، بائسة مثلك. بالأمس رأيت

فيَّ «ضوءاً»، وكان ذلك أول شيء جميلٍ وصادق قاله لي رجلٌ منذ قدومي إلى هنا».

سمعت من الراديو أغنية قديمة: «تموت علاقاتُ حبي قبل أن تبدأ». كان ذلك هو قدرها.

من يوميات ماريا، بعد يومين من عودة كل شيء إلى طبيعته:

تحت تأثير الهوى، لا يعود الإنسان يأكل أو ينام أو يعمل، يَفقد سلامَه. كثير من الناس يُصابون بالخوف لأنه، أثناء عبوره يَسحَق كلَّ ما له صلة بالماضي.

لا أحد يحب رؤية عالمه مخلخلاً. لذا يتمكن كثيرون من السيطرة على هذا الخطر، وينجحون في الإبقاء على بنيانٍ متداعٍ، واقفاً. هؤلاء هم مهندسو الأشياء التي تجاوزها الزمن.

هناك من يفكرون بطريقة معاكسة تماماً: إنهم يستسلمون للتيار دون تفكير، آملين العثور، في الهوى، على حلٍ لجميع مشاكلهم. يحمّلون الآخر كل مسؤولية سعادتهم، ويجعلونه مسؤولاً عن تعاستهم المحتملة. إنهم مغتبطون دوماً لأن شيئاً رائعاً حدث لهم، أو محبَطين لأن حدثاً غير متوقع قد دمّر كل شيء.

حماية النفس من الهوى أو الاستسلام له بشكل أعمى، أيٌّ من هذين الموقفين هو الأقلّ تدميراً؟

لا أعرف.

في اليوم الثالث عاد رالف هارت كأنه خارج من بين الأموات، وقد أوشك أن يصل بعد فوات الأوان: كانت ماريا قد بدأت تتكلم إلى أحد الزبائن. لكنها عندما رأته شرحت لهذا الأخير بشكل مهذب بأنها لا تريد الرقص، وأنها تنتظر شخصاً ما.

عندها فقط تبين لها أنها انتظرته كل تلك الأيام. وقبلت في تلك اللحظة كل ما وضعه القدرُ في دربها.

لم تتذمر: كانت سعيدة، بات بإمكانها أن تمنح نفسها هذا الترَف، لأنها ستغادر هذه المدينة ذات يوم. كان لديها هذا الحب المستحيل. لذا، وبما أنها لا ترجو شيئاً ستحصل على كل ما تنتظره من هذه الفترة من حياتها.

اقترح عليها رالف مشروباً، وطلبت ماريا كوكتيل فاكهة. نظر صاحبُ الملهى، متظاهراً بغسل الكؤوس، إلى البرازيلية دون أن يفهم: ما الذي غيَّر لها رأيها؟ كان يتوقع ألاّ تبقى هناك لتشرب كأسها، وارتاح عندما سحبت الرجلَ إلى منصة الرقص. إنهما يتبعان الطقوس وليس هناك ما يدعو للقلق.

أحست ماريا باليد فوق خصرها، بالوجه لِصقَ وجهها، وكان الصوت، لحسن الحظ، عالياً جداً يحول دون إجراء أي حديث. شراب كوكتيل الفاكهة لم يكن كافياً لاستعادة شجاعتها، والكلمات القليلة التي تبادلاها كانت شكلية جداً. المسألة الآن مسألة وقت: هل سيذهبان إلى الفندق، هل سيمارسان الحب؟ لا شيء من هذا

صعب، ليس في الأمر سوى تنفيذ تعهداتها المهنية، مما قد يساعدها على قتل كل أثر للهوى. باتت تسألُ نفسها لماذا عذَّبت نفسها إلى هذا الحد بعد لقائهما الأول.

ستلعب هذا المساء دور الأمِّ المتفهّمة. رالف هارت رجل يائس مثل آلافٍ غيره. وإذا أتقنتْ دورها، إذا تمكنت من اتباع السيناريو الذي حدَّدَته لنفسها منذ بداياتها في الـ كوباكابانا، فلن يكون هناك ما تخشاه. لكنها تُقدِم على مخاطرة كبيرة مع هذا الرجل، الآن وقد راحت تشمّ ـ وتحب ـ رائحته، تكتشف ـ وتحب ـ ملامسة جلده، وتعرف أنها كانت تنتظره ـ وهذا ما لم يكن يروق لها أبداً.

خلال خمس وأربعين دقيقة، اجتازا جميع محطات الطقوس، وتوجه الرجل إلى صاحب الملهى: «سآخذها لبقية الليل. وسأدفع عن ثلاثة زبائن.

هز صاحب الملهى كتفيه، وفكر أن الشابة البرازيلية ستقع في فخ الحب. أما ماريا فقد فوجئت: كانت تجهل أن رالف هارت يعرف القواعد هذه المعرفة.

«لنذهب إلى بيتي».

ربما كان ذلك أفضل قرار، فكرت. ورغم مخالفة ذلك لجميع توصيات ميلان فقد قررت أن تجعله استثناءً. ففضلاً عن أنها ستكتشف مرة وإلى الأبد إذا كان متزوجاً، ستعرف طريقة حياة الفنانين الشهيرين، ويمكنها أن تنشر في بلدها مقالاً في الصحيفة المحلية ـ هكذا يعرف الجميع أنها، أثناء إقامتها في أوروبا، قد خالطت الأوساط الفكرية والفنية.

أية ذريعة غبية!

بعد نصف ساعة من ذلك وصلا إلى قرية بالقرب من جنيف تدعى كولونيي؛ كل شيء في مكانه، كنيسة، مخبز، ومبنى إداري. كان يسكن بيتاً من طابقين، وليس شقة! أولاً: لا بدّ أنه يملك المال حقاً. ثانياً: لو كان متزوجاً لما جرؤ أبداً على دعوتها إلى بيته، بسبب ما قد يثيره ذلك من أقاويل.

إنه غني وعازب إذن.

دخلا بهواً تبدأ منه سلالم تؤدي إلى الأعلى، لكنهما استمرا في السير إلى الأمام، حتى الحجرتين في صدر المكان، المطلتين على حديقة. إحداهما غُطيت جدرانها باللوحات، تُستخدم لوضع كل مستلزمات المائدة من أجل حجرة الطعام. والأخرى تحتوي على بضع أرائك وكراسٍ ورفوف مليئة بالكتب، ومنافض سجائر وكؤوس وسخة.

«يمكنني إعداد بعض القهوة».

رفضت ماريا بإشارة من رأسها. لا، لا يمكنه أن يعاملني على نحو مغاير أيضاً. سأتحدّى أبالستي وأنقض كلّ وعودي. ولكن هدوءاً! هل سألعب اليوم دور المومس أم الصديقة أم الأم المتفهمة، مع أنني، داخل روحي، فتاة جائعة للحنان. فقط عند انتهاء كل شيء يمكنك أن تعد لي القهوة.

«في آخر الحديقة يقع مشغَلي، ومعه روحي. هنا دماغي ومعه أفكاري بين كل هذه اللوحات وكل هذه الكتب».

فكرت ماريا بشقتها. ليس فيها حديقة ولا كتب، عدا تلك التي تستعيرها من المكتبة، لأنه من غير المجدي إنفاق النقود على شيء تستطيع الحصول عليه مجاناً. ليس فيها لوحات أيضاً، فيها فقط ملصق لسيركٍ بهلواني من شنغهاي تحلم بمشاهدة أحد عروضه.

تناول رالف زجاجة ويسكي وقدّمها إليها.

«لا، شكراً».

صب لنفسه كأساً دون ثلج وشربها جرعة واحدة. راح يتكلم بحَمية. كانت ماريا تعرف، مهما بدا لها الحديث هاماً، أن هذا الرجل يتخوف مما سوف يحدث بينهما الآن وقد أصبحا بمفردهما. فاستعادت السيطرة على الموقف.

صبّ رالف لنفسه من جديد، ثم، وكما لو أنه يقول شيئاً بلا أهمية، صرّح: «أحتاج إليك».

تَوَقُّفٌ. صمت طويل. لم يحاول كسر الصمت، لنرَ كيف تابعَ.

«أحتاج إليك يا ماريا. يوجد فيك ضوء، حتى لو لم تثقي بي بعد، حتى لو فكرتِ بأني أحاول فقط إغواءك بهذا الخطاب. لا تسأليني: «لماذا أنا؟ ما الشيء الخاص بي؟» ليس فيك شيء خاص، لا شيء مما أستطيع فهمه بوضوح. مع ذلك ـ وهذا هو سر الحياة ـ لا أستطيع التفكير بشيء آخر.

ـ لم أكن سأسألك هذا السؤال، كذبَتْ.

ـ لو بحثتُ عن سبب، سأقول إن المرأة الماثلة أمامي نجحت في تجاوز العذاب وجعلهِ إيجابياً، خلاّقاً. لكن هذا لا يفسر كل شيء».

بات الفرار صعباً.

استأنف: «وأنا؟ بكل قدرتي الإبداعية، ولوحاتي التي تتنازعها صالات العالم بأسره، وحلمي الذي تحقق، وقريتي التي أنا طِفلُها المدلل، ونسائي اللواتي لم يطالبنني قط بدفعات معونةٍ غذائية، وصحتي الجيدة ومظهري الجميل، كل ما يتمناه رجل... ها أنذا أقول لمرأةٍ التقيتها في مقهى، ولم أقضِ معها سوى عصرِ يوم: «أحتاج إليكِ». هل تعرفين ما هي الوحدة؟

ـ أعرف.

ـ لكنك لا تعرفين ما هي عندما تتوافر لديك إمكانية لقاء الناس، وتتلقين يومياً دعوة إلى حفلة، أو كوكتيل، أو عرض مسرحي أول؛ عندما لا ينقطع الهاتف عن الرنين، والمتّصلات معجبات بفنك يتمنين بحرارة تناول العشاء معك، نساءٌ جميلات، ذكيات، مثقفات. ثمة ما يردّك قائلاً: «لا تذهب. لن تجد تسلية، ستُمضي الليل مرة أخرى في محاولة التأثير عليهن، وستبدد طاقتك في البرهنة لنفسك بأنك قادر على إغواء الجميع». فأبقى في بيتي، أدخلُ مَرسَمي، أبحث عن الضوء الذي رأيته فيك، ولا أتمكن من رؤية ذلك الضوء إلاّ حين أعمل.

ـ ماذا يمكن أن أعطيك وليس عندك؟» أجابت شاعرةً بشيء من الإهانة بسبب هذا التلميح إلى النساء الأخريات، قبل أن تتذكر بأنه، في نهاية المطاف، قد دفع لقاء صحبتها.

جرع كأساً ثالثةً من الويسكي. رافقته ماريا بفكرها، فيما الكحول يحرق حنجرتها، معدتها، يمتزج بدمها، مالئاً إياها بالشجاعة، وشعرت بالثَّمَل يجتاحها... اشتدّ صوت رالف:

«حسناً. لا أستطيع شراء حبكِ، لكنك قلتِ لي بأنك تعرفين كل شيء عن الحب. إذن علِّميني. أو كلميني عن البرازيل. أي شيء طالما أستطيع أن أكون بقربك».

والآن؟

«لا أعرف سوى مدينتين من بلدي: تلك التي ولدت فيها وريو دي جانيرو. أما بخصوص الجنس فلا أعتقد أني أستطيع أن أعلِّمك أي شيء. أنا في حوالى الثالثة والعشرين من العمر، وأنت لا تزيدني بأكثر من ست سنين، لكني أعرف أنك عشتَ بكثافة أكثر. أنا ألتقي برجال يدفعون لي لكي أفعل ما يريدون وليس ما أريد.

ـ فعلتُ كل ما يمكن لرجل أن يحلم بفعله مع امرأة، اثنتين، ثلاث نساء معاً. ولستُ واثقاً من أني تعلمتُ الكثير».

الصمت من جديد. حان الآن دور ماريا لتتكلم. ولم يساعدها، ليس أكثر مما ساعدتْهُ هي.

«هل تريدني كمحترفة؟

- أريدكِ كما ترغبين».

لا، لِمَ يجِب بذلك، إنه كل ما تود سماعه. الهزة الأرضية من جديد، البركان، العاصفة. سرعان ما سيصبح الإفلاتُ من فخِّ ذاتِها مستحيلاً، ستفقد هذا الرجل دون أن تحصل عليه حقاً.

«أنت تعرفين، يا ماريا، علّميني. ربما ينقذني ذلك، ينقذكِ، يجعلنا نستعيد الحياة. معك حق. لا أزيدكِ إلاّ بست سنين، ومع ذلك فقد عشتُ ما يعادل أكثر من حياة. مررنا بتجارب مختلفة تماماً، لكننا كلانا يائسان. الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يمنحنا السلام هو أن نكون معاً».

لماذا قال هذه الكلمات؟ لم يكن ذلك ممكناً، لكنه مع ذلك صحيح. التقيا مرة واحدة، وكان أحدهما بحاجة للآخر. تخيّلوا لو ظلّا يلتقيان، أية كارثةٍ ستكون! كانت ماريا امرأة ذكية، أمضت شهوراً تقرأ وتراقب الجنس البشري؛ كان لها بالتأكيد هدف في الحياة، لكن لها روحاً أيضاً، روحاً يُفترض أن تكتشف «ضوءها».

سئمت من كونها ما هي عليه، ومع أن التخطيط لرحلة عودتها إلى البرازيل تحدٍّ هام، لم تكن قد تعلمت بعد كل ما تستطيع تعلمه هنا. كان رالف هارت رجلاً تجاوز كثيراً من الصعاب، ويطلب الآن من هذه الشابة، المومس، الأم المتفهمة، أن تنقذه. أي عبث!

ثمة رجال آخرون تصرفوا بالطريقة ذاتها أمامها. كثيرون لم يحدث معهم انتصاب، آخرون أرادوا أن يُعامَلوا كأطفال، وآخرون أيضاً كانوا يزعمون أنهم يريدونها زوجة لأنهم يُستَثارون لفكرةِ أن لزوجاتهم العديد من العشاق. ورغم أنها لم تلتق بعد بأيٍّ من

«الزبائن الخاصين»، اكتشفت ماريا وجود مخزون هائل من التخيلات التي تسكن روح الإنسان. لكن أياً من هؤلاء الرجال لم يطلب منها أبداً: «خذيني بعيداً عن هنا». على العكس، كانوا يريدون أخذ ماريا معهم.

حتى لو أنها وجدت نفسها بعد انصرافهم أكثر ثروةً وفراغاً من طاقتها، فمن غير الممكن ألاّ يكون هؤلاء الرجال قد علموها شيئاً. ولكن إذا كان البعض يبحث حقاً عن الحب، ولم يكن الجنس سوى جزء من هذا البحث، كيف كانت تحب أن تُعامَل؟ ما الشيء المهم الذي يجب أن يحدث في لقاء أول؟ ماذا كانت تحب فعلاً أن يحدث؟

«أن أتلقى هدية» قالت ماريا.

لم يفهم رالف هارت. هدية؟ لقد دفع سلفاً في التكسي مقابل قضاء الليل كله، لأنه يعرف الطقوس. ماذا تقصد بهذا؟

تبين لماريا فجأةً أنها تفهم ما يشعر به رجل وامرأة في هذه الدقيقة. أمسكته من يده وقادته إلى الصالون.

«دعنا لا نصعد إلى غرفة النوم» قالت.

أطفأت جميع الأنوار تقريباً، جلست فوق البساط ورجته الجلوس مقابلها. لاحظت وجود موقد في الحجرة.

«أشعل ناراً.

ـ لكننا في الصيف.

ـ أشعل ناراً. أنت تريدني أن أوجّه خطواتنا هذا المساء، وهذا بالضبط ما أفعله».

وجهت إليه نظرة ثابتة، آملةً أن يميز «ضوءها» من جديد. رآه لأنه خرج إلى الحديقة، جمع بعض الحطبات المبللة بالمطر،

وأضاف إليها صحفاً قديمة. ثم مضى إلى المطبخ ليأتي بزجاجة ويسكي أخرى، لكن ماريا أوقفته.

«هل سألتني ما أريد؟

ـ لا.

ـ حسناً، اعلمْ أن الإنسانة التي معك، موجودة. فكِّرْ بها. اسأل نفسك إذا كانت تريد ويسكي، جن، قهوة. اسألها عما ترغب به.

ـ ماذا تريدين أن تشربي؟

ـ نبيذاً. وأود أن تشاركني».

ترك الويسكي وعاد حاملاً زجاجة نبيذ. في تلك اللحظة كانت النار قد بدأت تلحس الحطبات. أطفأت ماريا الأنوار القليلة التي تُركت مضاءة، تاركةً ألسنةَ اللهب تُنير الحجرة. كانت تتصرف وكأنها عرفت على الدوام بأن هذه الخطوة هي الأولى: الاعتراف بالآخر معرفة أنه موجود.

فتحت حقيبتها ووجدت فيها قلم حبر اشترته من السوبر ماركت. أي شيء يمكن أن يفي بالغرض.

«هذا لك. عندما اشتريته ظننتُ أني أحتاجه لتدوين أفكارٍ عن الإدارة الزراعية. استعملتُه يومين. عملتُ حتى فاحت مني رائحة التعب. إنه يحمل بعضاً من عرقي، من تركيزي، من إرادتي، والآن أقدمه لك».

وضعت القلم بهدوءٍ في يده.

«بدلاً من أن أشتري لكَ شيئاً تود امتلاكه أعطيك شيئاً يعود لي، لي حقاً. هدية. دليل احترام للشخص الذي يواجهني، طريقة لإفهامه كم هو مهم كَوْني بقربه. لديه الآن جزء صغير مني، قدمتُهُ له بحرية وعفوية».

نهض رالف، اتجه نحو أحد الرفوف وأحضر منه شيئاً قدمه

إلى ماريا: «هذه مقطورة قطارٍ كهربائي كان عندي وأنا طفل. لم يُؤذن لي باللعب به بمفردي، فقد كان أبي يزعم بأنه مستورد من الولايات المتحدة وغالي الثمن جداً. لذا لم يعد لي إلاّ انتظار أن يرغب هو في تركيب القطار في منتصف الصالون ـ لكنه كان عموماً يمضي أيام الآحاد في سماع الأوبرا. وهكذا بقي القطار من أيام طفولتي دون أن يمنحني أي فرح. وضعتُ في السقيفة جميع السكك والقاطرة والمنازل وحتى أداة التحريك؛ فقد كنت أملك قطاراً ليس لي، ولا ألعب به. لو أنه فقط دُمِّر مثل جميع الألعاب الأخرى التي تلقيتُها ولا أتذكرها! شغف التدمير جزء من الطريقة التي يكتشف الطفل العالم بها. لكن هذا القطار الذي لم يُمسّ يذكرني دوماً بجزء من طفولتي لم أعشه بحجة أنه ثمين جداً، أو بحجة انشغال والدي في مكان آخر. أو ربما لأنه، كلما ركّبَ القطار، خشي من إثبات حبه لي».

راحت ماريا تنظر بثبات إلى لهب الموقد. يحدث شيء ما ـ ليس بتأثير النبيذ ولا الجو المضياف. تقديمُ الهدايا.

التفت رالف أيضاً باتجاه النار. لبثا صامتين يستمعان إلى طقطقة ألسنة اللهب. شربا نبيذاً كما لو أن الكلام غير ضروري. كانا هناك معاً ينظران بالاتجاه نفسه، ولا شيء آخر يهم.

«في حياتي قطارات كثيرة لم تُمسّ، قالت ماريا أخيراً. أحدها هو قلبي. أنا أيضاً لم أكن ألعب بها إلاّ عندما كان الآخرون يركّبون السكك، ولم تكن تلك هي اللحظة المناسبة دوماً.

ـ لكنكِ أحببت.

ـ نعم، أحببت. أحببت كثيراً. أحببتُ إلى درجة أنني عندما طلب مني حبيبي هديةً خفتُ وهربت.

ـ لا أفهم.

ـ لا داعٍ. اكتشفتُ شيئاً كنت أجهله وأعلمكَ إياه: الهدية، أن

تعطي شيئاً تعود ملكيته لك. عليك أن تعطي قبل أن تطلب شيئاً مهماً. معك كنزي: قلم الحبر الذي كتبتُ به بعض أحلامي. معي كنزك: المقطورة، جزء من الطفولة لم تعشه. أحمل معي الآن جزءاً من ماضيك، وتحمل معك شيئاً من حاضري. هذا شيء في غاية الطيبة».

قالت كل ذلك دون أن يرف لها جفن، دون أن تندهش من سلوكه، كما لو أنها عرفت منذ زمن طويل أنها طريقة التصرف الوحيدة. نهضت ببطء، تناولت سترتها من علاقة المعاطف، وقبلته فوق خده. لم يُظهر رالف الذي خدرته النار، والذي ربما يفكر بأبيه، في أية لحظة، نيةً بالنهوض.

«لم أفهم جيداً أبداً لماذا احتفظتُ بهذه المقطورة. الأمر واضح اليوم: لكي أهديها ذات مساءٍ تشتعل فيه النار في الموقد. أصبح هذا البيت أكثر خفةً الآن».

أعلن أنه في اليوم التالي سيقدم السكك والعربات المقطورة والقاطرات والحبيبات التي تُطلق سحب دخان إلى ميتم.

«ربما يكون هذا القطار قطعةً نادرةً اليوم، وغالية الثمن جداً»، نبهته ماريا التي ما لبثت أن ندمت على ذلك. لا تكمن المسألة هنا، بل في التحرر من عاطفةٍ أغلى على قلبنا.

وقبل أن تقول من جديد كلاماً غير لائق، قبلته قبلة أخرى على خده واتجهت إلى الباب. كانت عيناه ما تزالان تحدقان بالنار، ورجتْهُ بلطفٍ أن يأتي ليفتحه لها.

نهض رالف، وشرحت له خرافةً غريبة من بلدها: عندما يزور البرازيليون شخصاً ما للمرة الأولى يجب ألاّ يفتحوا الباب بأنفسهم عند الانصراف؛ لأنهم إذا فعلوا ذلك يعرّضون أنفسهم لخطر عدم دخول هذا البيت ثانيةً أبداً.

«أريد أن أعود إلى هذا البيت.

ـ لم ننزع ثيابنا، ولم ألجك، لم ألمسك حتى، لكننا مارسنا الحب».

ضحكت ماريا. عرضَ أن يرافقها لكنها رفضت.

«سأذهب إليك غداً في *الـ كوباكابانا* .

ـ لا تفعل. انتظر أسبوعاً. الانتظار هو الأصعب، وأريد الاعتياد عليه؛ أن أعرف أنك معي عندما لا تكون بقربي».

مشت في البرد والعتمة، مثلما فعلت مرات كثيرة في جنيف. في الأوقات العادية تقترن هذه النزهات بالحزن، والوحدة، والرغبة بالعودة إلى البرازيل، وهجمات الكآبة التي تولدها فيها تلك اللغة التي تعلمتها حديثاً، وحساباتها المالية، وإكراهات التوقيت. أما اليوم فقد كانت تمشي للقاءِ نفسِها، لقاءِ تلك المرأة التي مكثت، أربعين دقيقة، أمام النار بصحبة رجل، ممتلئةً بالضوء، والحكمة، والخبرة، والافتتان. كانت ماريا قد لمحت وجهها قبل بعض الوقت، وهي تتنزه على شاطئ البحيرة وتتساءل إذا ما كان عليها تكريس نفسها لحياة جديدة تماماً ـ كان للمرأة عصر ذلك اليوم، ابتسامة حزينة. رأت ماريا وجهها مرة أخرى فوق لوحة مطوية، والآن تشعر بحضورها من جديد. لم تستقل سيارة أجرة إلاّ بعد وقت طويل من ذلك، عندما تبين لها أن هذا الحضور السحري قد اختفى وتركها وحيدةً، كما هي حالها دوماً. الأفضل ألاّ تفكّر بتلك الأمسية لكي لا تفسد ذكراها، ولا تدع القلق يحل محل الوقت الطيب الذي أمضته للتو. إذا كانت هذه الماريا الأخرى موجودة حقاً فإنها ستعود.

مقطع من يوميات ماريا كُتب يوم أهداها رالف المقطورة الكهربائية:

الرغبة العميقة، الرغبة الأكثر حقيقية، هي رغبة الاقتراب من شخص ما. انطلاقاً من ذلك تخرج ردود الأفعال، يدخل الرجل والمرأة اللعبةَ، لكن الانجذاب الذي جمعَهُما لا يمكن تفسيره. إنها الرغبة في نقائها الخالص.

عندما تكون الرغبة ما تزال بهذا النقاء، يُشغَف الرجل والمرأة بالحياة، يعيشان كل لحظة بتبجيل، بشكل واعٍ، منتظرين على الدوام اللحظة المناسبة للاحتفال بالمباركة القادمة.

الناس الذين يعرفون ذلك ليسوا على عجلة من أمرهم، لا يستعجلون الأحداثَ بأفعالٍ اعتباطية. يعرفون أن المقدَّر سيقع، وأن الحقيقة تجد دوماً سبيلاً للظهور. لا يترددون، لا يضيّعون فرصة، لا يدعون أية لحظة سحرية تفوت، لأنهم يقدِّرون أهمية كل ثانية.

اكتشفت ماريا في الأيام التالية أنها وقعت من جديد في أسر الفخ الذي طالما تجنبته. مع ذلك لم تكن تشعر أنها حزينة أو قلقة. كانت على العكس حرةً، بما أنه لم يعد لديها ما تخسره.

مهما كان الموقف رومانسياً كانت تعرف أن رالف هارت سيفهم يوماً أنها مجرد مومس، وهو فنان محترم؛ أنها قادمة من بلد ما يزال في أزمة، يقع في الطرف الآخر من العالم، فيما يسكن هو في الجنة، المكان الذي حياةُ أقلِّ مواطنٍ فيه منظمةٌ ومحمية منذ ولادته. تعلّم في أفضل الكليات، وزار أكبر متاحف الأرض، في حين أنها بالكاد أنهت دراستها الثانوية. وفي النهاية، إن أحلاماً من هذا النوع لا تدوم، وقد عاشت ماريا ما يكفي لكي تلاحظ أن الواقع لا يتوافق مع أحلامها. كان أكبر فرح لها الآن هو أن تقول للواقع بأنها لا تحتاج إليه، بأن سعادتها لا تتعلق بالأحداث التي تقع.

«يا إلهي كم أنا رومانسية».

تساءلت خلال الأسبوع عما يمكن أن يُسعد رالف هارت: لقد أعاد إليها كرامةً و«ضوءاً» ظنتهما ضاعا إلى الأبد، لكن الطريقة الوحيدة التي تملكها لمكافأته هي الجنس، الذي يعتبره من اختصاص ماريا. وبما أن روتين الـ كوباكابانا لا يحيد شعرةً عن مساره، قررت الاستفسار عن الموضوع من مصادر أخرى.

ذهبت لرؤية بعض أفلام البورنو، لكنها هنا أيضاً لم ترَ شيئاً يثير الاهتمام ـ ربما باستثناء خيار متعلق بعدد الشركاء. وللمرة الأولى منذ قدومها إلى جنيف قررت شراء كتب، باعتبار أن الأفلام لم تقدم لها عوناً كبيراً، رغم أنها وجدت دوماً أنه من العملي أكثر عدم إتخام شقتها بكتبٍ لن تنتفع منها بعد قراءتها. فاتجهت إلى مكتبة لاحظتها أثناء نزهتها مع رالف على طريق القديس جاك، وسألت عن عناوين للرجوع إليها حول هذا الموضوع.

«يوجد كم هائل منها، أجابت البائعة. في الحقيقة كأن الناس لا يهتمون إلاّ بهذا. إضافةً إلى الأقسامِ المتخصصة، هناك مشهد جنسي واحد على الأقل في كل رواية ترينها هنا. والواقع هو أن الناس لا يفكرون إلا بهذا الموضوع، حتى لو اختبأ خلف قصص حب مؤثرة أو بحوث جافة في السلوك البشري».

كانت ماريا، بكل خبرتها، تعرف أن الشابة مخطئة: يريد الناس دوماً الاعتقاد بأن العالم بأسره لا يفكر إلا بالجنس. يتبع الناس الحميات الغذائية، يضعون شعراً مستعاراً، يمضون ساعات في صالات تصفيف الشعر أو بيوت الرياضة، يرتدون أزياء مثيرة، بهدف تحريض الشرارة المطلوبة. وبعد؟ عندما يأتي وقت الفعل، إحدى عشرة دقيقة، وهذا كل شيء. لا وجود لأي إبداع، لا شيء يصعد بك إلى السماء السابعة؛ وفي وقت لا يُذكر لا يعود للشرارة ما يكفي من قوة لإبقاء النار مشتعلة.

لا فائدة من مناقشة الشابة الشقراء التي يمكن تفسير العالم بالنسبة لها داخل الكتب. فطلبت ماريا رؤية القسم المتخصص، وهناك وجدت عدة عناوين حول الشاذين، والسحاقيات، والراهبات ـ تكشف قصصاً محرجةً عن الكنيسة ـ ، ومؤلفات مصورة حول تقنيات شرقية. ثمة مؤلف واحد أثار اهتمامها: «الجنس المقدس»، لا بد أنه على الأقل مختلف.

اشترته وعادت إلى منزلها، أدارت الراديو على محطة تبث موسيقى ملائمة للتفكير، فتحت الكتاب ولاحظت رسوماً منوعة لأوضاعٍ لا يمكن لغير لاعب سيرك أن يتخذها. وكان النص مملاً.

تعلمت ماريا ما يكفي لكي تعرف أن الوضعية التي نمارس بها الحب ليست كل شيء، وأن ثمة تنويعاً يحدث عفوياً، لاشعورياً في أغلب الأحيان، مثل خطوات رقصة. لكنها بذلت جهدها لكي تركز على ما تقرؤه.

بعد ساعتين أدركت أمرين. الأول هو أن عليها قريباً تناول العشاء، لأنها يجب أن تعود إلى العمل في الـ كوباكابانا. والثاني هو أن مؤلف هذا الكتاب لا علاقة له بالموضوع إطلاقاً. فيه كثير من النظرية، ومن الإحالات الشرقية، ومن الطقوس الزائدة عن الحاجة، والاقتراحات السخيفة. كان واضحاً أنه فكر بموضوعه في الهيمالايا (يجب أن تستعلم لتعرف أين تقع هذه الهيمالايا)، واتبع دروساً في اليوغا (سمعت عن ذلك)، وقرأ كثيراً حول الموضوع لأنه يستشهد بالعديد من المؤلفين، لكنه يجهل الشيء الجوهري. الجنس ليس نظرية، أو بخوراً يحترق، أو نقاط تماس، أو انحناءات أو أشكالاً أخرى من الاحترام المبالغ به. كيف جرؤ هذا الشخص (وهو في الواقع امرأة) على الكتابة في مسألةٍ، حتى ماريا التي تعمل في هذا المجال لا تملك معرفة جيدة بها؟ ربما كان الذنب ذنب الهيمالايا، أو الحاجة لتعقيدِ موضوعٍ يكمُنُ جمالُه في البساطة والشغف. إذا أمكن لهذه المرأة نشر مؤلَّف بهذا الغباء فبوسع ماريا التفكير جديّاً بكتابها الخاص الذي يحمل عنوان «إحدى عشرة دقيقة»: سيقتصر، دون وقاحة ولا نفاق، على سرد قصتها لا غير.

لكنها لم تكن تملك الوقت ولا المزاج للتفكير بذلك؛ عليها تركيز كل طاقتها على كيفية إسعاد رالف هارت، وكيفية إدارة مزرعة.

من يوميات ماريا، بعد وقت قليل من إهمال الكتاب الممل:

التقيت برجل وأُخذتُ به. سمحت لنفسي أن أقع في الحب لسبب بسيط هو أني لا أنتظر شيئاً. أعرف أني خلال ثلاثة شهور سأكون في مكان بعيد، وأنه لن يعود أكثر من ذكرى بالنسبة لي، لكني لم أعد أحتمل العيش دون حب؛ لقد بلغتُ الحد.

أكتب قصة لأجل رالف هارت، وهذا هو اسمه. لا أعرف إذا كان سيعود إلى الملهى الليلي الذي أعمل فيه، لكني وللمرة الأولى في حياتي لا أشعر بوجود أي فرق. يكفيني أن أحبه، أن أكون معه بفكري، وأن تعطي خطواتُهُ وكلماته وحنانه هذه المدينةَ شديدةَ الجمال ألواناً. عندما سأغادر هذا البلد سيكون له وجه، اسم، سأحمل معي ذكرى نارٍ في موقد. كل شيء آخر عشتُهُ هنا، كل التجارب الصعبة التي مررتُ بها لن تكون شيئاً بالمقارنة.

أتمنى أن أفعل له ما فعله لي. فكرتُ كثيراً واكتشفت أني لم أدخل ذلك المقهى بالمصادفة؛ فاللقاءات الأكثر أهمية تكون الأرواح قد أعدَّتْها قبل أن ترى الأجساد بعضها بعضاً.

تحدث هذه اللقاءات عموماً عندما نصل إلى حد، عندما نكون بحاجة إلى أن نموت ونحيا انفعالياً. اللقاءات تنتظرنا، لكننا غالباً ما نمنعها من الحدوث. وإذا يئسنا، إذا لم يعد لدينا ما نخسره، أو إذا حركتْ فينا الحياةُ الحماسَ، عندئذٍ يظهر الشخص المجهول، ويغيِّر عالمُنا مجراه.

يعرف الجميع كيف يحبون. إنه أمر يولد مع الإنسان. البعض يفعلون ذلك بشكل طبيعي، لكن معظم الناس بحاجة ليتعلموا من جديد، ليتذكروا من جديد كيف يحبون، والجميع دون استثناء يجب أن يحترقوا في نارِ انفعالاتهم الماضية، ويعيشوا من جديد أفراحاً وآلاماً، سقطاتٍ ولحظات تَعافٍ، إلى أن يتمكنوا من تمييز الخيط الموجِّه الكائنِ خلف كل لقاء جديد.

عندما تتكلم الأجسادُ لغةَ الروح: هذا ما يسمى الجنس، هذا ما أستطيع إعطاءه للرجل الذي أعاد لي روحي، حتى لو كان يجهل كلياً إلى أية درجة هو مهم في حياتي. هذا ما طلبه مني، وسيحصل عليه؛ وأريده أن يكون سعيداً.

الحياة تكون شحيحة جداً أحياناً: أُمضي أياماً، شهوراً وسنين، دون أن أشعر بشيء جديد. ثم، وما أن نفتح باباً ـ وتلك حال ماريا مع رالف هارت ـ ، حتى يهوي انهيارٌ ثلجي حقيقي في الفسحة التي فُتحت. في لحظةٍ لا يكون لديك شيء، وفي اللحظة التالية يكون لديك أكثر مما تستطيع قبوله.

بعد ساعتين من كتابة يومياتها وعندما وصلت ماريا إلى الـ كوباكابانا، أقبل إليها ميلان صاحب الملهى: «إذن، هل خرجتِ مع ذلك الرسام؟».

لا بدّ أنه معروف في الدار، ولقد أدركت ذلك عندما دفع تَعرفةَ ثلاثة زبائن دون حاجة للاستفسار عن المبلغ المطلوب. اكتفت ماريا بإيماءة من رأسها بالإيجاب، محاولةً خلقَ نوع من اللغز. لكن ميلان لم يلقِ أي بالٍ للأمر، لأنه يعرف هذه الحياة أفضل منها.

«أنتِ مستعدة ربما لمرحلة قادمة. هناك «زبون خاص» يطلبك باستمرار. كنت أقول له بأنك لا تملكين الخبرة، وهو يثق بي. ربما حان الوقت لتجرّبي».

«زبون خاص»؟

«ما علاقة ذلك بالرسام؟

ـ هو أيضاً «زبون خاص».

إذن، كل ما فعلَتْهُ مع رالف، فعلَتْهُ أيضاً واحدةٌ من زميلاتها؟ عضت ماريا على شفتيها ولزمت الصمت ـ لقد أمضت أسبوعاً جميلاً، ومستحيل أن تنسى ما كتبَتْه.

«هل يجب أن أفعل ما فعلته معه؟

ـ لا أدري ماذا فعلتما، أما اليوم، فإذا عرض عليك أحد مشروباً، لا تَقبلي. الزبائن الخاصون يدفعون أكثر، لن تندمي».

بدأت الأمسية كالمعتاد. التايلانديات جالسات معاً، الكولومبيات يُظهرن قرفاً من كل شيء، البرازيليات الثلاثة (بمن فيهن هي) يتظاهرن باللهو، كما لو أن شيئاً من كل هذا ليس جديداً ولا مثيراً للاهتمام. كانت هناك نمساوية وألمانيتان، والبقية في التقسيم مكونات من نساء من أوروبا الشرقية، وجميعهن طويلات، ذوات عيون فاتحة، جميلات، وفي النهاية يتزوجن أسرع من الأخريات.

دخل بضع رجال ـ روس وسويسريون وألمان، كوادر عليا دوماً، مُجهَدون، قادرون أن يمنحوا أنفسَهم خدماتِ أغلى المومساتِ في واحدةٍ من أغلى المدن في العالم. اتجه البعض إلى طاولة ماريا، لكنها كانت تلقي نظرة باتجاه ميلان الذي يشير إليها كل مرةٍ أن ترفض. كانت مسرورة: لن يتوجب عليها هذا المساء فتح ساقيها وتحمُّل الروائح، والاغتسال في حمّامات سيئة التدفئة. كل ما يتوجب عليها أن تفعله هو أن تعلِّم رجلاً تعِباً من الجنس ممارسة الحب. وعند التفكير بالأمر لن تتوافر لأية امرأة مثلُ قدرتِها الإبداعية لاختراع قصة الهدية.

كانت في الوقت نفسه تتساءل: «لماذا إذن يريدون العودة إلى البداية بعد أن جربوا كل شيء؟» ليس ذلك من شأنها في النهاية... ستكون تحت تصرفهم طالما يدفعون.

دخل رجلٌ يبدو أصغر قليلاً من رالف هارت: جميل، أسود الشعر، أسنانه كاملة، وطقم على الطريقة الصينية ـ دون ربطة عنق، فقط ياقة فوق قميص ناصع البياض. اتجه نحو البار. نظرَ ميلان وهو إلى ماريا، واقترب الزبون منها: «هل تشربين شيئاً؟»

هزّ ميلان رأسه إيجاباً، فدعت ماريا الرجل إلى الجلوس إلى طاولتها. طلبت كوكتيل فاكهة، وكانت بانتظار الدعوة إلى الرقص عندما قدّم نفسه: «أدعى تيرنس، أعمل في دار أسطوانات في إنجلترا. ولِعِلْمي بأني في مكان أستطيع الثقة فيه بالناس، أعتقد أن الأمر سيبقى بيننا».

كانت ماريا ستكلمه عن البرازيل عندما قاطعها:

«قال لي ميلان إنك تعرفين ماذا أريد.

ـ لا أعرف ماذا تريد، لكني أعرف ماذا أفعل».

لم تتم الإجراءات المتعارف عليها؛ فقد دفع الحساب وأخذها من ذراعها. صعدا سيارة أجرة، وقدّم لها ألف فرنك. فكرت لحظةً بالعربيّ الذي رافقته إلى ذلك المطعم المزين باللوحات الشهيرة. كانت تلك هي المرة الثانية التي تتلقى فيها مثل هذا المبلغ، وبدلاً من أن يرضيها ذلك فقد وتَّرَ أعصابها.

توقفت السيارة أمام أحد أفخم فنادق المدينة. ألقى الرجل التحية على البواب، دليل اعتياده على المكان. صعدا حالاً إلى الغرفة، وهي ملحق مع إطلالة على النهر. فتح تيرنس زجاجة نبيذ، من المرجح أنه نادر جداً، وقدم لها كأساً.

راحت ماريا تنظر إليه وهي تشرب. ما الذي ينتظره من مومس، رجلٌ غني، جميل، من هذا النوع، وباعتباره لم يكن يتكلم تقريباً، بقيت هي أيضاً صامتة تتساءل عما يمكن أن يُرضي «زبوناً خاصاً». شعرت أنه ليس عليها أخذ المبادرة؛ لكنها كانت

تنوي حقاً الانخراط بالقدر اللازم في السياق حالما يبدأ. إنها في النهاية لا تكسب ألف فرنك كل مساء.

«لدينا الوقت، قال تيرنس، كل ما نريده من وقت. تستطيعين النوم هنا إذا شئتِ».

عاودها شعورها بالضيق. لم يبدُ الرجلُ محرَجاً، وراح يتكلم بصوتٍ هادئ مختلف عن صوت بقية الزبائن. كان يعرف ماذا يريد! وضعَ موسيقى مثالية، بشدةِ صوتٍ مثالية، في الغرفة المثالية، المطلةِ على بحيرةِ مدينةٍ مثالية. كان طقمه مصنوعاً بإحكام، والحقيبةُ في ركنٍ، صغيرةٌ كأنه لا يحتاج إلى الكثير لكي يسافر ـ أو كأنه لم يأت إلى جنيف إلا لأجل هذه الليلة.

«سأعود للنوم في بيتي»، أجابت ماريا.

فجاةً تغيَّر الرجل الذي يواجهها. برقتْ نظرتُهُ المُجامِلةُ بريقاً جليدياً.

«اجلسي هنا»، قال مشيراً إلى كرسي قرب الكتبيّة.

كان ذلك أمراً! أمر بالفعل. أطاعت ماريا، وعلى نحو يثير الفضول أثارها ذلك.

«استقيمي. هيا، انتصبي، كأنك معلمة مدرسة. وإلاّ عاقبتك».

عقاب! زبون خاص! فهمت كل شيء في برهة، فأخرجت الألف فرنك من حقيبة يدها، ووضعتها على مسند الكتابة.

«أعرف ماذا تريد، قالت وهي تحدق في عينيه الزرقاوين الجليديتين. لستُ مستعدة».

بدا أن الرجل عاد طبيعياً ورأى أنها تقول الحق.

«اشربي نبيذك، قال. لن أرغمك على شيء. تستطيعين البقاء قليلاً، أو الانصراف إذا أردت».

شعرت بالاطمئنان.

«لدي عمل. رئيسي يحميني ويثق بي. أرجوك لا تقُل له شيئاً».
نطقت بهذه الكلمات بنبرة ليس فيها أي استعطاف، إنه الواقع ببساطة.

عاد تيرنس كما كان ليس رقيقاً ولا قاسياً، بل مجرد رجلٍ يعطي الانطباع بأنه، على عكس بقية الزبائن، يعرف ماذا يريد. بدا خارجاً من غشية، من مسرحيةٍ لم تبدأ.

هل يستحق الأمر عناء الذهاب هكذا دون اكتشاف معنى عبارة «زبون خاص»؟

«ماذا تريد على وجه الدقة؟

ـ تعرفين. ألم. عذاب. وكثير من المتعة».

«ألم وعذاب لا يتوافقان كثيراً مع المتعة»، فكرت ماريا، مع أنها أرادت بكل جوارحها أن تؤمن بالعكس، وتجعلَ قسماً كبيراً من تجارب حياتها السلبية إيجابياً.

أخذها من يدها وقادها نحو النافذة: في الجانب الآخر للبحيرة يُرى برجُ كنيسة ـ تذكرت ماريا أنها مرت من هناك بصحبة رالف هارت، على طريق القديس جاك.

«أترين هذا النهر، هذه البحيرة، هذه البيوت، هذه الكنيسة؟ قبل أكثر من خمسمئة عام كان كل هذا يشبه تقريباً ما هو عليه اليوم. الفرق هو أن المدينة كانت مقفرة تماماً. انتشر مرض مجهول في كل أوروبا، ولم يعرف أحد لماذا يموت كل أولئك الناس. سُمي هذا المرض بالطاعون الأسود ـ عقاب أرسله الله للبشر على خطاياهم. وعندها قرر جماعة من الناس التضحية بأنفسهم في سبيل البشرية: فقدَّموا أكثرَ شيء يخشونه: الألم الجسدي. بدأوا يذرعون هذه الشوارع والجسور، في النهار والليل، وهم يجلدون أنفسهم بالسِياط أو السلاسل. كانوا يتألمون

باسم الله ويسبِّحون الله بألمهم. وخلال وقت قليل اكتشفوا أنهم باتوا أكثر سعادة منهم وهم يخبزون، أو يزرعون الأرض، أو يعلفون الدواب. لم يكن الألم عذاباً بل متعةَ افتداءِ البشر من خطاياهم. أصبح الألم فرحاً، معنىً للحياة، متعةً».

استعادتْ عيناه البريقَ البارد نفسه الذي رأتْهُ فيهما قبل دقائق. أخذ النقود التي وضعتها فوق مسند الكتابة، سحب منها مئة وخمسين فرنكاً، ووضعها في حقيبة يدها.

«لا تهتمي لصاحب الملهى. هذه هي عمولته وأعدك ألاّ أقول له شيئاً. يمكنك الانصراف».

استعادت النقود كلها.

«لا!».

إنه مفعول النبيذ، أو تأثير العربيّ في المطعم، أو المرأة ذات الابتسامة الحزينة، أو فكرة أنها لن تعود ثانيةً أبداً إلى هذا المكان اللعين، أو الخوف من الحب الذي يأتي في ملامح رجل، أو الرسائل التي تُرسلها إلى أمها وتحكي لها فيها عن حياة مليئة بفُرص العمل، فتى طفولتها الذي طلب منها قلماً، معاركها ضد نفسها، الشعور بالذنب، الفضول، المال، البحث عن حدودها الخاصة، الفرص المؤاتية وتلك التي تركتها تفلت منها. كانت هناك ماريا أخرى: لم تعد تقدم الهدايا، بل تقدم نفسها أُضحيةً.

«ذهب خوفي. دعْنا نمضِ أبعد. وإذا لزم الأمر عاقبني لأني عاصية. لقد كذبتُ، خنْتُ، أسأتُ التصرف مع مَن حَموني وأحبوني».

لقد دخلتْ في اللعبة. وراحت تقول ما يجب قوله.

«اركعي على ركبتيك!» أمرَ تيرنس بصوتٍ أصمّ ومثير للقلق.

أطاعت ماريا. لم تُعامَل من قبل بهذه الطريقة أبداً، لم تكن

تعرف إذا كان ذلك خيراً أم شراً، أرادت فقط أن تمضي أبعد. كانت تستحق أن تُهان لأجل كل ما فعلتْه في حياتها. كانت تتلبسُ جسدَ شخصية جديدة، امرأة لا تعرفها أبداً.

«ستُعاقَبين. لأنك بلا فائدة، لا تعرفين القواعد، لا تعرفين شيئاً عن الجنس، عن الحياة، عن الحب».

بينما كان تيرنس يتكلم راح ينفصم: رجلٌ يشرح لها القواعد، ورجل آخر يُشعرها بأنها أحطُّ شخص في العالم.

«هل تعرفين لماذا أقبل بهذا؟ لأنه ليس هناك متعة أكبر من تنسيبِ أحدٍ إلى عالمٍ مجهول، سَخْبِ عُذريّتِه ـ ليس عذرية الجسد، بل عذرية الروح، هلْ تفهمين؟»

كانت تفهم.

«بإمكانكِ اليوم طرح الأسئلة. أما في المرة القادمة، عندما يُرفع ستار مسرحنا، فإن المسرحية ستبدأ ولن نستطيع إيقافها. إذا توقفتْ فهذا يعني أن روحينا لم تتفقا. تذكّري: إنها مسرحية. يجب أن تكوني تلك الشخصية التي لم تتجرأي أن تكونيها أبداً. ستكتشفين رويداً رويداً أن هذه الشخصية هي أنت نفسك، ولكن طالما لم يتبين لك ذلك بوضوح، حاولي أن تتظاهري بذلك، أن تكوني خلاّقة.

ـ وإذا لم أحتمل الألم؟

ـ لا يوجد ألم، يوجد فقط إحساس يتحول إلى متعة، غموض. أن تطلبي «لا تعاملني هكذا، إني أتألم جداً» جزءٌ من المسرحية. أن تقولي «توقف، لم أعد أحتمل!» أيضاً جزء منها. إذن، لتجنب الخطر... اخفضي رأسكِ، لا تنظري إليّ!»

خفضت ماريا، الراكعة على ركبتيها، رأسها وحدقت في الأرض.

«لكي نتجنب أن تُحدِث هذه العلاقة أضراراً جسدية كبيرة، سيكون هناك مفتاحان. إذا قال أحدنا «أصفر»، فهذا يعني أنه يجب تقليل درجة العنف قليلاً. إذا قال «أحمر»، فهذا يعني أنه يجب التوقف فوراً.

ـ هل قلتَ «أحدُنا»؟

ـ سنتناوب الأدوار. واحدُنا لا يوجد من دون الآخر، ولن يستطيع أحدٌ أن يُهين إذا لم يتعرض هو نفسه للإهانة».

كانت تلك كلمات رهيبة من عالمٍ لا تعرفه، عالم ظلام، وحل، عفن. مع ذلك كانت ترغب في أن تمضي أبعد ـ كان جسدها يرتجف من الخوف والإثارة.

لمستْ يدُ تيرنس رأسَها بحنانٍ غير متوقع.

«النهاية».

رجاها أن تنهض، دون رقة خاصة، إنما دون العدوانية الجافة التي برهن عنها من قبل. لبست ماريا سترتها وهي ما تزال ترتجف. فلاحظ تيرنس حالتها.

«دخني سيجارة قبل أن تذهبي.

ـ لم يحدث شيء.

ـ لم يكن ضرورياً. سيسلك الأمرُ طريقَه إلى روحكِ. في لقائنا القادم ستكونين مستعدة.

ـ هل تساوي هذه الأمسية ألف فرنك؟»

لم يجب. أشعل هو أيضاً سيجارة، أنهيا النبيذ، استمعا إلى الموسيقى، مستمتعين معاً بالصمت. ثم جاءت لحظةُ قولِ شيء، وفوجئت ماريا بكلماتها بالذات:

«لا أفهم لماذا أرغب بالسير في هذا الوحل.

ـ ألف فرنك.

ـ ليس هذا».

بدا تيرنس مفتوناً بجوابها.

«أنا أيضاً طرحتُ على نفسي هذا السؤال. كان المركيز دي ساد يقول إن أهم التجارب التي يمكن لرجل القيام بها، هي تلك التي تقوده إلى أقصى الحدود. بهذه الطريقة نتعلم، لأن هذا يتطلب كل شجاعتنا. إن رب عملٍ يهين مستَخدَمَهُ، أو رجلاً يهين زوجته شخصان جبانان فقط أو ينتقمان من الحياة. لم يجرؤا قط على النظر في أعماق روحيهما. لم يحاولا أن يعرفا من أين تأتي الرغبةُ بتحريرِ الوحش، ولا أن يَفهما بأن الجنس والألم والحب تجاربَ حَدِّية للإنسان. من يعرف هذه الحدود هو وحده من يعرف الحياة؛ وما تبقّى هو تمضية للوقت، وتكرار للمهمة نفسها، وهو أن نكبر في السن ونموت دون أن نعرف حقاً ما الذي كنا نفعله في هذه الدنيا».

الشارع من جديد، البرد من جديد، والرغبة بالسير من جديد. هذا الرجل مخطئ: ليس ضرورياً للإنسان أن يعرف شياطينَهُ لكي يَلقى الله. صادفتْ مجموعة طلاب يخرجون من حانة؛ كانوا مرحين، وقد شربوا قليلاً، جميلين، مليئين بالعافية، سيُنهون دراستهم قريباً ويبدأ بالنسبة لهم ما يسمى بـ «الحياة الحقيقية». عمل، زواج، أطفال، روتين، مرارة، شيخوخة، شعور بخسارة هائلة، إحباطات، مرض، عجز، تبعية، وحدة، موت.

ما الذي يحدث؟ هي أيضاً كانت تبحث عن الاطمئنان لكي تعيش «حياتَها الحقيقية». الوقت الذي أمضته في سويسرا في ممارسةِ مهنةٍ لم تتخيل أبداً من قبل أنها ستمارسها، لم يكن سوى فترة صعبة يتعرض لها الجميع عاجلاً أم آجلاً. طوال تلك الفترة

كانت تتردد إلى الـ كوباكابانا، تخرج مع الرجال لأجل المال، تتصرف كفتاة صغيرة ساذجة، كامرأة مُهلِكة أو كأم رؤوم تبعاً للزبون. لم يكن ذلك سوى عمل كرست نفسها له بأكبر قدر من الحِرفية ـ بسبب الإكراميات ـ وأقل قدر من الاهتمام ـ خوفاً من الاعتياد عليه. أمضت تسع سنين في مراقبة العالم من حولها؛ وقبل قليل من وقت عودتها إلى بلدها، اكتشفت قدرتها على الحب دون المطالبة بشيء بالمقابل، وعلى التألُّم دون مبرر. كما لو أن الحياة اختارت هذه الوسيلة الغريبة، المقزِّزة لكي تكشف لها جانباً من أسرارها الخاصة، ضوءها وعتماتها.

من يوميات ماريا، مساء لقائها مع تيرنس:

استَشهَدَ بـ ساد الذي لم أقرأ سطراً واحداً له، لكني سمعتُ الشروح التقليدية عن السادية: لا يعرف الإنسان نفسه إلا عندما يبلغ حدوده بالذات. هذا شيء أكيد. لكنه خطأ أيضاً، لأنه ليس من الضروري أن نعرف كل شيء عن أنفسنا. الكائن البشري ليس مصنوعاً فقط لكي يحاول أن يعرف، بل أيضاً لكي يحرث الأرض وينتظر المطر ويزرع قمحه ويحصد الحب ويعجن الخبز.

أنا امرأتان: واحدة تريد أن تعرف الفرح، الهوى، المغامرات التي تقدمها لها الحياة، والثانية تريد أن تكون عبدةً للروتين، للحياة العائلية، للأفعال الصغيرة التي يمكن التخطيط لها وتحقيقها. أنا ربةُ البيت والمومس في جسد واحد، واحدة تكافح ضد الأخرى.

لقاء امرأةٍ مع نفسها لعبةٌ تنطوي على مخاطر جدية. رقصة ربانية. عندما نلتقي، نكون طاقتين إلهيتين، عالمين يتصادمان. وإذا نقص الاحترامُ الضروريّ في هذا اللقاء، فإنّ عالماً يدمّر الآخر.

من جديد صالون رالف هارت، النار في الموقد، النبيذ، وكلاهما يجلسان أرضاً، وكل ما عانته بالأمس مع مدير دار الأسطوانات الإنجليزي ذاك، لم يعد سوى حلم أو كابوس تبعاً لحالتها النفسية. كانت في تلك اللحظة، تبحث عن مبرر وجودها أو بالأحرى ذلك الفعل المجنون كلياً الذي يَهَبُ فيه الإنسانُ قلبَهُ ولا يطلب شيئاً بالمقابل.

لقد تقدمتْ كثيراً بانتظار تلك اللحظة. اكتشفتْ أخيراً أن الحب الحقيقي لا علاقة له بما كانت تتخيله، أيْ بسلسلة الأحداث الناجمة عن طاقة الحب ـ ولادة الحب، الالتزام، الزواج، الأطفال، الانتظار، الشيخوخة معاً، نهاية الانتظار، ليحل محله تَقاعدُ الزوج، الأمراض، الإحساس بأن الأوان قد فات لعيشِ الأحلام سويةً.

نظرت إلى الرجل الذي قررت أن تهبهُ نفسَها دون أن تقول له أبداً ما تشعر به، لأن انفعالاتها لم تأخذ شكلاً بعد، ولا حتى شكلاً جسدياً. كان يبدو مرتاحاً كمن يجتاز فترة آسرةً من حياته. كان يبتسم، يحكي عن الرحلة التي قام بها مؤخراً إلى ميونيخ لكي يلتقي بمديرِ متحفٍ كبير.

«سألني إذا كانت لوحة «وجوه من جنيف» جاهزة. فقلتُ له إني تعرفتُ على شخصٍ ممَّن أودُّ رسْمَهُم. امرأة ممتلئة بالضوء. لكني لا أريد الكلام عن نفسي، أريد أن أقبّلك، أرغب بك».

رغبة. رغبة؟ رغبة! تلك هي نقطة انطلاق تلك الأمسية، إنها شيء تعرفه على أكمل وجه!

مثلاً: إيقاظ الرغبة عن طريق عدمِ تسليمِ موضوعِها حالاً.

«ارغبْ بي إذن. هذا ما نفعله في هذه اللحظة. أنت على بعد أقلّ من مترٍ مني. ذهبتَ إلى ملهى ليلي، دفعتَ لقاءَ خدماتي، وتعرف أن لك الحق في أن تلمسني. لكنك لا تجرؤ. انظر إليّ. انظر إليّ، وفكِّرْ أني ربما لا أريد أن تنظر إليّ. تخيّلْ ما يختفي تحت ثيابي».

كانت ما تزال ترتدي ثوباً أسود، ولا تفهم لماذا تحاول فتياتُ الـ كوباكابانا الأخريات أن يكنّ مثيرات بفتحاتِ ثيابهنّ وألوانهن الصارخة. إثارة رجلٍ بالنسبة لها تعني أن تلبس مثلما تلبس أية امرأةٍ قد يجدها في مكان عمله، في القطار، أو عند إحدى صديقات زوجته.

نظر إليها رالف. شعرت ماريا أنه يعرّيها بنظراته، وراقَ لها أن تكون مرغوبةً على هذا النحو، دون ملامسة ـ مثلما في مطعمٍ أو في طابور انتظارٍ أمام صالة سينما.

«نحن في محطة. استأنفت ماريا. أنتظرُ القطار بجانبك، وأنت لا تعرفني. لكن عينيّ تلتقيان مصادفةً بعينيك ولا أشيح بوجهي بعيداً. أنت لا تدري ما الذي أحاول أن أقوله، لأنك، رغم أنك رجل ذكي، قادر على التقاط «ضوء» الآخرين، لستَ حساساً بما يكفي لترى ما ينيرهُ ذلك الضوء».

لم تكن قد نسيت «المسرح». كانت تتمنى لو تمسح من ذاكرتها بأسرع ما يمكن وجهَ ذلك المدير الفني الإنجليزي، لكنه كان هناك، يوجِّهُ خيالَها.

«أنظرُ إلى عينيك مباشرةً، وربما أتساءل: «هل رأيتُهُ سابقاً

في مكان ما؟» أو أكون شاردة، أو قد أخاف أيضاً من أن أبدو غليظةً، ربما تعرفني، أمنحكَ ميزةَ الشكّ لبضع ثوان، قبل أن نتوصل إلى أن أحدنا يعرف الآخر بالفعل، أو أنه سوء تفاهم. ولكن يمكن أيضاً أني أريد أبسط شيء في العالم: أن ألتقي برجل. يجوز أني هاربة من حبٍ سبَّب لي الألم. يجوز أني أسعى إلى الانتقام لخيانةٍ حديثة، وأني جئتُ إلى المحطة بحثاً عن رجل مجهول. ربما أرغب بأن أكون مومستكَ لِليلةٍ، لمجردِ كسرِ رتابة حياتي. بل ربما أكون مومساً تبحث عن عمل».

صمتٌ. فجأةً شردتْ ماريا. عادت إلى ذلك الفندق، الإذلال ـ «أصفر»، «أحمر»، «ألم وكثير من المتعة». ذلك كله لامسَ روحَها على نحو غير سار.

لاحظَ رالف ذلك، وبذل جهده لكي يعيدها إلى المحطة:

«في هذا اللقاء هل ترغبين أنتِ أيضاً بي؟

ـ لا أعرف. لا يكلم أحدُنا الآخر، وأنت لا تعرف».

لحظات شرود. على أية حال، كانت فكرة المسرح تساعدها كثيراً؛ راحت الشخصية الحقيقية تعود للظهور مُبعِدةً كل الشخصيات الزائفة التي تَسكنُنا.

«لكن الواقع هو أني لا أحيد بنظري عنك، وأنت لا تدري ماذا يجب أن تفعل. هل يجب أن تقترب؟ هل ستُصَدّ؟ هل سأنادي شرطياً؟ أم هل سأدعوك لتناول فنجان قهوة؟

ـ أنا عائد من ميونيخ» قال رالف هارت، وكانت نبرة صوته مختلفة كما لو أنهما يلتقيان فعلاً للمرة الأولى. «أخطط لرسمِ سلسلة لوحات حول شخصيات تعمل في الجنس. الأقنعة العديدةَ التي يختبئ الناس خلفها لكي لا يخوضوا تجربةَ لقاءٍ حقيقي أبداً».

كان يعرف «المسرح»، وقد قال ميلان بأنه «زبون خاص». دوّى إنذار خطر، لكنها كانت تحتاج للوقت كي تفكر.

«قال لي مدير المتحف: «على أي أساس سيقوم عملك؟» أجبتُ: «على نساءٍ يشعرن أنهن حُرّات في ممارسة الجنس لأجل المال». فكان له التعليق التالي: «غير ممكن، هؤلاء النساء مومسات». أجبتُ: «نعم، مومسات. سأدرسِ قصتهن وسأرسم شيئاً فيه ثقافة أكثر، منسجم أكثر مع ذائقةِ الأسر التي ترتاد متحفك. المسألة كلها مسألة ثقافة كما تعرف. أن تقدّم ما يصعب هضمهُ بطريقة لطيفة».

«أصرّ المدير: «لكن الجنس لم يعد من المحرّمات. إنه مسألة مطروقة إلى درجة يصعب معها القيام بعمل حول هذا الموضوع». أجبتُ: «وهل تعرف من أين تأتي الرغبة الجنسية؟» «من الغريزة» قال المدير. «نعم، من الغريزة، لكن هذا شيء يعرفه الجميع. كيف نقيم معرضاً جميلاً إذا لم نلتمس إلاّ العلم؟ أريد الكلام عن الطريقة التي يفسّر بها الإنسانُ هذا الانجذاب، التي يفسره بها فيلسوفٌ مثلاً». طلب مني المدير أن أعطيه مثالاً. قلتُ له بأني عندما سأركب القطار عائداً إلى بيتي، وتنظر إليّ امرأة، سأتكلم معها؛ سأقول لها إنها باعتبارها غريبة، فنحن أحرار أن نفعل كل ما حلمنا به، أن نعيش كل تخيلاتنا، ثم يعود كل منا إلى بيته، إلى زوجه، دون أن يرى أحدنا الآخر ثانيةً قط. أراكِ إذن في تلك المحطة.

ـ قصتكَ مثيرة للاهتمام إلى درجة أنها تقتل الرغبة».

ضحك رالف وأقرّ بذلك. كانت زجاجة النبيذ قد فرغت، ذهب إلى المطبخ لإحضار زجاجة أخرى. نظرت إلى النار، وهي تعرف ما ستكون عليه المرحلة التالية، متذوّقةً ذلك الجو المضياف، ناسيةً الإنجليزيّ، مستسلمةً للتيار من جديد.

صبّ رالف كأسين.

«بدافع الفضول فقط، قالت، كيف ستُنهي تلك القصة مع مدير المتحف؟

ـ سأذكر فيلسوفاً يونانياً، بما أني سأكون أمام رجل ثقافة. في بداية الخلق كان الرجال والنساء، حسب أفلاطون، مختلفين جداً عما هم اليوم؛ كان هناك فقط كائنات ثنائية الجنس، بجسد ورقبة ورأس له وجهان، كل منهما ينظر باتجاه. كأنّهما مخلوقان ملتصقان ظَهراً لظهر، لهما عضوان جنسيان، وأربع سيقان وأربع أذرع.

«لكن الآلهة اليونانية الغيورة لاحظت أن كائناً بأربعة أذرع يعمل أكثر؛ وأنّ وجهين أحدهما يعاكس الآخر يبقيان متيقظين، فلا تستطيع مهاجمته غدراً؛ وأن أربع سيقان لا تتطلبان جهداً كبيراً لكي يبقى واقفاً أو يمشي طويلاً. والأخطر هو أن هذا المخلوق المزود بجنسين لا يحتاج لأحد لكي يتكاثر. عندئذٍ قال زيوس سيد الأولمب الأعلى: «لدي خطة لكي أنتزع من هؤلاء الزائلين قوَّتَهُم». وأرسلَ البرقَ فشطرَ هذا المخلوق إلى اثنين، خالقاً الرجل والمرأة. زاد هذا الفعل من عدد سكان الأرض كثيراً، وفي الوقت نفسه حيَّرَهم وأضعفهم ـ فقد بات عليهم الآن البحث عن نصفهم الضائع، معانقتهُ ثانيةً، وبوساطة هذا العناق استعادة قوَّتهم السابقة، ومهارتهم في اتّقاء الغدر، ومقاومتهم للتعب وصبرهم على العمل. هذا العناق الذي يتّحد فيه الجسدان مجدداً لتشكيل جسد واحد، نسميه الجنس.

ـ هل هذه القصة حقيقية؟

ـ نعم، حسب أفلاطون».

نظرت إليه ماريا مفتونةً، وكانت تجربة الأمس قد امّحت من ذهنها تماماً. باتت ترى أمامها الرجلَ مليئاً بذلك «الضوء» الذي

رآه فيها، وهو يروي تلك القصة الغريبة بحماس، وعيناه تلمعان ليس من الرغبة، بل من الفرح.

«هل يمكنني أن أطلب منكَ معروفاً؟»

أجاب رالف أن بوسعها أن تطلب منه أي شيء.

«أريدك أن تكتشف لماذا، عندما فصلت الآلهةُ تلك المخلوقات ذات الأربع أرجل، قرر بعضها أن العناق ليس سوى مسألة مثل غيرها، تسحب من الناس طاقتهم بدلاً من أن تزيدها.

ـ تقصدين البغاء؟

ـ نعم. هل يمكنك أن تكتشف لماذا لم يعد الجنس مقدساً؟

ـ سأفعل إذا أردتِ ذلك، أجاب رالف. لم أفكر بالأمر قط، وعلى حد علمي لم يفعل أحد ذلك أبداً؛ ربما لا يوجد شيء حول هذا الأمر».

ألحتْ ماريا:

«هل خطر لك مرةً أن النساء، والمومسات بشكل رئيسي، قادرات على الحب؟

ـ نعم. خطر لي عندما كنا جالسين إلى الطاولة في المقهى ورأيتُ ضوءكِ. عندما عرضتُ عليك تناول كأس، اخترتُ الإيمان بكل شيء، بما في ذلك الإيمان باحتمالِ أن تعيديني إلى العالم الذي غادرتهُ منذ زمن طويل جداً».

لم يعد هناك عودة ممكنة الآن. على ماريا العشيقة أن تأتي لنجدته حالاً، تُقَبِّله، تضمه بين ذراعيها، ترجوه ألاّ يتركها.

«لنعُدْ إلى المحطة، قالت. أو بالأحرى لنعد إلى ذلك اليوم الذي جئنا فيه إلى هذا الصالون للمرة الأولى، والذي اعترفتَ فيه أني موجودة، وقدمتَ لي هدية. كانت تلك محاولتك الأولى للدخول إلى

روحي، ولم تكن تعرف إن كنتَ مرَحَّباً بك. ولكن كما ترويه قصتك فقد فُصلت الكائنات البشرية، وهي منذ ذلك الوقت تبحث عن ذلك العناق الذي يجمعها. إنها غريزتنا، لكنه أيضاً السبب الذي من أجله نحتمل جميع الصعاب التي تعترضنا طوال هذا البحث.

«أريد أن تنظر إليّ، وأريد في الوقت نفسه ألاّ تجعلني ألاحظ ذلك. الرغبة الأولى هامة لأنها مخبأة، ممنوعة، غير موافَق عليها. أنتَ لا تعرف إذا كنتَ تقف أمام نصفكَ الضائع وهي أيضاً لا تعرف. لكن شيئاً ما يجذبكما، ويجب الإيمان به».

«من أين أُخرِجُ كلَّ ذلك؟ فكرتْ. أُخرِجه من أعماق قلبي، لأني أتمنى لو أنّ الأمر كان كذلك دوماً. أُخرِج هذه الأحلام من حلمي الخاص كامرأة».

أنزلت كتفَ ثوبها قليلاً، بطريقةٍ تكشف جزءاً، جزءاً يسيراً جداً من نهدها.

« ليست الرغبةُ ما ترى، بل ما تتخيل».

كان رالف ينظر إلى امرأة سمراء تلبس فستاناً بقتامةِ لون شعرها، جالسة فوق أرضِ صالونه، مليئة برغباتٍ شاذة ـ النار في الموقد في عز الصيف مثلاً. نعم، كان يريد أن يتخيل ما يخفيه ذلك الثوب، كان بوسعه أن يستشف حجم نهديها وكان يعرف أن حمالة النهدين التي تلبسها ليست ضرورية، مع أنها قد تكون ضرورة مهنية. نهداها ليسا كبيرين ولا صغيرين، بل فتيين. نظرتها لا تشي بشيء؛ ما الذي تفعله هنا؟ لماذا يقيم هذه العلاقة الخطيرة، اللاعقلانية إذا لم يكن يجد أية صعوبة في العثور على امرأة؟ إنه غني، شاب، شهير، حسن المظهر، يعشق عمله. أحبَّ المرأتين اللتين تزوّج منهما وأحبَّتاه. إنه في النهاية، وفقاً لكل المعايير، شخص يجدر به أن يعلن بقوة وبأعلى صوته: «أنا سعيد».

لكنه لم يكن كذلك. ففي حين يتقاتل غالبية البشر لأجل قطعة خبز، أو سقفٍ، أو عمل يعيشون منه بكرامة، كان رالف هارت يملك هذا كله، مما يزيده بؤساً أيضاً. وإذا أُخِذ كل شيء بالحسبان، فربما حدثَ له مؤخراً، قبل يومين أو ثلاثة، حين نظر وهو يستيقظ إلى الشمس ـ أو المطر ـ أنْ شعرَ بالفرح لأنه حيّ، ببساطة بالفرح، دون رغبة بشيء، دون القيام بأي مشروع، دون طلبِ شيءٍ بالمقابل. وباستثناء تلك الأيام النادرة، فلقد أضنى نفسه أكثر مما يَحتمل بالأحلام والإحباطات والإنجازات، بالرغبة بتجاوز نفسه وبالأسفار. الشيء الأكيد أنه أمضى حياته في محاولة إثباتِ شيء، لا يعرف بالضبط لمن، ولا ماذا.

راح ينظر إلى المرأة الجميلة الجالسة أمامه، بثوب أسود محتشم، التي التقى بها مصادفةً مع أنه سبق أن رآها في ملهى ليلي، ولاحظ أنها نَشازٌ في ذلك المكان. كانت تطلب منه أن يرغب بها، وكان يرغب بها جداً، أكثر كثيراً مما تتخيله ـ لكن ما يرغب به لم يكن نهداها أو جسدها، بل صُحبتها. كان يكفيه أن يضمها إلى صدره وهو يتأمل النار بصمت، يشرب النبيذ ويدخن سيجارة أو اثنتين. صُنِعت الحياةُ من أشياءَ بسيطة، وكان تعِباً من كل تلك السنين التي أمضاها بحثاً عن شيءٍ لا يدري ما هو.

لكن كل شيء سيضيع إذا لمسها. ورغم «ضوئها» لم يكن أكيداً من أنها فهمتْ كم كان جيداً وجودُها إلى جانبه. كان يدفع؟ نعم، وسيستمر بالدفع إلى أن يظفر بها، يجلس معها على ضفة البحيرة، يتكلم عن الحب ـ ويسمع الشيء نفسه. الأفضل عدم المخاطرة، عدم استعجال الأمور، عدم قول شيء.

كفَّ رالف هارت عن تعذيب نفسه وركز على اللعبة الجديدة التي اخترعاها للتو. كانت المرأة الجالسة مقابله على حق: النبيذ،

النار، السيجارة، الصحبة، أشياء غير كافية. يحتاج الأمر إلى نوعٍ آخر من الثَّمَل، يحتاج إلى لهيبٍ آخر.

كانت ترتدي ثوباً بحمّالات، وقد انكشفَ أحد نهديها، وكان يستطيع رؤية بشرتها التي تبدو كامدةً أكثر منها بيضاء. كان يشتهيها، يشتهيها جداً.

رأت ماريا التغيُّر في عيني رالف. كان شعورُها بأنها مشتهاة يثيرها أكثر من كل شيء. لم يكن لهذا علاقة بالوصفة المتعارف عليها - أريد ممارسة الحب معك، أريد الزواج، أريدك أن تنتشي، أريد أن يكون لي طفل، أريد التزامات. لا، الرغبة إحساسٌ حر، اهتزازٌ في الفسحة، إرادةٌ تُثري الحياة، وهذه الإرادة تَهدُّ جبالاً، تحث ماريا على المضي إلى الأمام... وتبلِّل عضوَها.

الرغبة هي مصدر كل شيء: أن يغادر رجلٌ أرضه، يكتشف عالماً جديداً، يتعلّم الفرنسية، يتجاوز أحكامه المسبقة، يحلم بالحصول على امرأة، يحب دون مقابل، وأن تشعر امرأةٌ بأنها امرأة في عين رجل. وببطءٍ محسوب أنزلت حمالة ثوبها الثانية فانزلق الثوب على طول جسدها. بعد ذلك فكّت حمالة نهديها وبقيت هناك، ونصف جسدها الأعلى عارٍ، تتساءل إذا كان سيرتمي عليها، يلمسها، يعاهدها على الحب، أم هل هو حساس بما يكفي لكي يشعر، في الرغبة ذاتها، بمتعة الجنس الحقيقية.

لم يعد صوت الأشياء موجوداً من حولهما. اختفى الموقد واللوحات والكتب، وحلت محلها رعدةٌ فيها تلك الرغبة الغامضة وحدها، ولا أهمية لشيء آخر فيها.

لم يتحرك الرجل. قرأت في البداية نوعاً من الخجل في عينيه، لكن ذلك لم يدم طويلاً. راح ينظر إليها، يداعبها بلسانه في الخيال.

راحا يمارسان الجنس، يتعرّقان، يتعانقان، يمزجان الحنان بالعنف، يصرخان ويتأوهان معاً.

لكنهما في الحقيقة لم يكونا يقولان شيئاً، ولم يكونا يتحركان مما يزيد في إثارتها، لأنها كانت هي أيضاً حرة في التفكير بما تريد. راحت ترجوه أن يداعبها بلطف، تباعد بين ساقيها، تداعب نفسها أمامه، وتلفظ دون اكتراث كلماتٍ رومانسية أو مبتذلة، وصلت إلى عدة نشوات، أيقظت الجيران، نبّهت العالمَ بأسره. هنا يوجد رجُلُها الذي يمنحها الرغبة والفرح، والذي تستطيع معه أن تكون نفسَها، أن تشير إلى مشاكلها الجنسية، وتستطيع أن تقول له كم تحب البقاء معه بقية الليل، بقية الأسبوع، بقية الحياة.

بدأ العرق يتصبب فوق جبينيهما. كان أحدهما يقول للآخر في سره: إنها نار الموقد. لكن كلاً منهما كان قد بلغ حدَّه، واستعمل كل خياله، وعاش مع الآخر دهراً من اللحظات اللذيذة. كان عليهما التوقف لأن خطوة إضافية واحدة كانت كافية لكي يُدمِّر الواقعُ هذه الصورة.

ببطء شديد ـ لأن النهاية أصعب دوماً من البداية، زرَّرت حمالة صدرها وغطت نهديها. عاد الكونُ إلى مكانه، عادت الأشياء المحيطة إلى الظهور، رفعت ثوبها ولبسته، ابتسمت، وبلطفٍ لمست وجهه. أمسك بيدها وشدّها فوق خدِّه، وهو لا يعرف إلى متى يُبقيها هناك، ولا بأية قوة يُمسك بها.

رغبت أن تقول له بأنها تحبه، لكن هذا قد يفسد كل شيء، قد يخيفه، أو ـ الأسوأ من هذا ـ ربما يجيب بأنه هو أيضاً يحبها. وماريا لا تريد ذلك: حريةُ حبِّها هي عدم طلبٍ أو انتظارِ شيء.

«الشخص القادر على الإحساس يعرف أن الاستمتاع ممكن حتى قبل ملامسة الآخر. الكلمات، النظرات، هذا كله يحتوي على

سر الرقصة. لكن القطار وصل وكل يمضي في طريقه. أتمنى مرافقتكَ في هذه الرحلة إلى؟... إلى أين؟

ـ للعودة إلى جنيف، أجاب رالف.

ـ مَن يراقب الشخصَ الذي طالما حلم به ويكتشفه يعرف أن الطاقة الجنسية تسبق العلاقة الجنسية. ليس الجنسُ أكبرَ متعة، بل الشغف الذي يُمارَس به. حين يكون هذا الشغف من نوعية عالية يأتي الجنس لإتمام الرقصة، لكنه ليس الشيء الجوهري أبداً.

ـ تتكلمين عن الحب كأنك محترفة».

قررت ماريا أن تتكلم لأن هذا هو دفاعُها، وسيلتُها في تسليم نفسها دون تعريضها لأي خطر:

«مَن يحب يمارس الحب طوال الوقت، حتى وهو لا يمارسه. حين يلتقي الجسدان فإن الكأس يفيض فقط. يستطيعان البقاء معاً ساعاتٍ، بل أياماً. يمكنهما البدء بالرقصة في يوم والانتهاء منها في اليوم التالي، أو عدم الانتهاء منها من شدة المتعة. لا علاقة لهذا بالإحدى عشرة دقيقة.

ـ ماذا؟

ـ أحبك.

ـ أنا أيضاً أحبك.

ـ عفواً، لا أدري ما أقول.

ـ ولا أنا».

نهضتْ، قبّلتْهُ وخرجَت.

من يوميات ماريا صباح اليوم التالي:

مساء أمس، عندما نظر إليّ رالف هارت، فتح باباً مثل لص. لكنه عندما ذهب لم يأخذ معه شيئاً مني؛ على العكس، ترك عطرَ ورود. لم يكن لصاً بل خطيباً يزورني.

كل كائن بشري يعيش شهوتَهُ الخاصة: هذا جزء من ثروته، ورغم أن هذا انفعال قد يُبعِد الآخَر، فهو عموماً يُقَرِّب من المحبوب. إنه انفعال اختارته روحي، قوي إلى درجة أنه قد ينتشر على كل محيطي.

كل يوم أختار الحقيقة التي أريد العيش معها. أحاول أن أكون عملية، فعالة ومحترفة. لكني أودّ لو أستطيع دوماً اتخاذ الشهوة رفيقاً. ليس بدافع الإلزام، ولا لتخفيفِ الوحدة في حياتي بل لأنها شيء لذيذ. نعم لذيذ جداً.

ثمان وثلاثون امرأة وسطياً، يترددن بانتظام إلى الـ كوباكابانا، رغم أنّ الفيليبينية نياه هي وحدها التي استطاعت ماريا اعتبارها صديقةً، أو شبه صديقة. تبلغ مدة بقائهن في الملهى ستة شهور على الأقل، وثلاث سنين على الأكثر - إما لأنهنّ يتلقين سريعاً طلب زواج، أو دعوة لكي يصبحن عشيقات بِلَقَب، أو لأنهن ما عِدْنَ يجذبن الزبائن، عندئذٍ يرجوهنّ ميلان بلطفٍ البحث عن عمل في مكان آخر.

كان مهماً إذن احترام زبائن كل واحدة، وعدم محاولة إغواء الرجال الذين يتجهون مباشرةً إلى فتاة بعينها. فضلاً عن أن هذا سلوك مخالف للشرف، فقد يصبح خطيراً أيضاً؛ ففي الأسبوع الفائت أخرجتْ فتاة كولومبية من حقيبتها شفرة حلاقة، وضعتها فوق كأسِ اليوغوسلافية، وحذّرت هذه الأخيرةَ بصوتٍ هادئ بأنها ستشوّهها إذا واظبت على قبولِ دعوةِ شخصٍ يعمل مدير مصرف هو زبون منتظم لها. أكدت اليوغوسلافية أنّ الرجل حر وأنها لا تستطيع الرفض إذا اختارها.

ذلك المساء دخل الرجل، حيّا الكولومبيةَ واتجه إلى طاولة الفتاة الأخرى. تناولا مشروباً، رقصا، ورمَقت اليوغوسلافيةُ - رأت ماريا أن هذا شكّلَ استفزازاً زائداً عن اللزوم - الكولومبيةَ بطرف عينها، كأنما لكي تقول لها: «أرأيتِ؟ لقد اختارني!».

لكن هذه النظرة كانت تنطوي على أشياء عديدة لم تُقَل: «اختارني لأني أجمل منك، لأني ذهبتُ في الأسبوع الفائت معه، وأحبَّ ذلك، لأني فَتيّة». لزمت الكولومبية الصمت. حين عادت اليوغسلافية بعد ساعتين جلست بجانبها، أخرجت شفرة الحلاقة من حقيبة يدها وشطبت وجهها قربَ الأذن: لا شيء عميق، لا شيء خطير، فقط ما يكفي لتركِ ندبةٍ تذكّرها دوماً بتلك الليلة. اشتبكت الفتاتان فأمسكت كل منهما بالأخرى من وسطها، انتشر الدم، وخرج الزبائن خائفين.

عندما وصلت الشرطة، صرّحت اليوغوسلافية بأنها جُرحت في وجهها بكأسٍ سقط من أحد الرفوف (لم يكن هناك رفوف في الـ كوباكابانا). إنه قانون الصمت، أو «الأومرتا»، كما يحلو للمومسات الإيطاليات أن يقلن: كل ما يجب حله في شارع برن، بدءاً من الحب حتى الموت، يجد حلاً ـ ولكن دون تدخل القانون. هنا أهل المكان هم الذين يصنعون القانون.

كان رجال الشرطة يعرفون الأومرتا. تَبَيَّنَ لهم أن المرأة تكذب، لكنهم لم يلحّوا ـ فلو أنهم قرروا توقيفها، ورفع قضيةٍ بحقّها، وإطعامها أثناء حبْسِها قد يكلف هذا دافعَ الضرائبِ السويسري غالياً جداً. شكرهم ميلان على سرعةِ تدخلهم، فالأمر كله ليس أكثر من سوء تفاهم، أو دسيسةٍ من منافِس.

حال خروجِ رجال الشرطة رجا الفتاتين ألاّ تعودا للعمل في ملهاه. فالـ كوباكابانا هو بعد كل شيء مؤسسة عائلية (تأكيدٌ لم تكن ماريا تفهم معناه جيداً) ولها سمعة يجب الدفاع عنها (وهذا مازاد من حيرتها). هنا لا شِجار، والقاعدة الأولى هي احترام الزبون. الثانية هي التكتم المطلق، «كما في مصرف سويسري» كان يؤكد. كان ممكناً بصورة خاصة الوثوق بالزبائن، الذين يتم اختيارهم بالعناية التي يتم بها اختيار زبائن مصرف وفقاً

لحسابهم الجاري، وكذلك وفقاً للضمانات التي يقدمونها بحياةٍ لائقة وعادات جيدة.

كان يحدث التباس أحياناً، وفي أحيان نادرة، تحدث حالات امتناع عن الدفع، اعتداء أو تهديدات بحق الفتيات. منذ أن أسس ميلان الـ كوباكابانا وطوَّرها، قبل سنين، كان يجيد التعرف على مَن يجب أو لا أن يرتاد الدار. لم تكن أيٌّ من النساء تعرف ما هي معاييره بالضبط، لكنهنّ رأينه أكثر من مرة يُخبر رجلاً حسن الملبس بأن الملهى ممتلئ ذلك المساء (مع أنه فارغ) وأنه سيكون كذلك في الأمسيات القادمة (بعبارة أخرى: رجاءً، لا فائدة من العودة). رأين أيضاً رجالاً بملابس رياضية، غير حليقي الذقون، يدعوهم ميلان بحماس لشربِ كأس شمبانيا. لم يكن صاحب الـ كوباكابانا يحكم تبعاً للمظاهر، ولم يكن يخطئ أبداً.

في العلاقة التجارية الجيدة، يجب أن يكون كل طرف راضياً. في أغلب الأحوال كان الزبائن متزوجين أو يشغلون منصباً في شركة. كذلك بعض النساء العاملات هناك متزوجات ولهن أطفال ويحضرن اجتماعات أولياء التلاميذ، لعلمهنّ بعدم وجود ما يُهدِّدهن. وإذا تواجَدَ رب أسرة في الـ كوباكابانا سيتورط بدوره ويضطر أن يلزم الصمت. هكذا تعمل الأومرتا.

كان هناك نوع من الزمالة، لكن لا توجد صداقة؛ لا أحد يتمدد بالحديث حول حياته الشخصية. وخلال الأحاديث النادرة التي عقدتها ماريا لم تكتشف لدى زميلاتها مرارةً ولا إحساساً بالذنب ولا حزناً، بل نوعاً من التسليم فقط. وأيضاً نظرة تحدٍّ غريبة، كما لو أنهن كن فخورات بأنفسهن، يواجهن العالم، مستقلات واثقات. كل قادمة جديدة تُعتبر بعد أسبوعٍ «محترفةً» وتتلقى تعليمات الدفاع عن الزواج (لا يمكن أن تشكِّل المومسُ تهديداً لاستقرار البيت الأسري)، وعدم قبول مواعيد خارج أوقات العمل أبداً،

والإصغاء للمكاشفات دون إعطاء رأي، والتأوه لحظة النشوة، وتحية رجال الشرطة في الشارع، وتجديد بطاقة العمل، والقيام بالفحوص الصحية النظامية، وأخيراً عدم الإكثار من التساؤل حول الجوانب الأخلاقية أو الشرعية للمهنة؛ هُنَّ ما هُنَّ والسلام.

قبل أن تحتدم الأمسية كانت ماريا تُرى دوماً ومعها كتاب، وسرعان ما اعتُبرت «مثقفةً» المجموعة. أرادت الأخريات في البداية معرفة إذا كانت تقرأ قصص حب، ولكن، ونظراً لكون الأمر يتعلق بموضوعات جافة لا تثير الاهتمام - اقتصاد، علم نفس، ومؤخراً، إدارة زراعية - كن يدعنها وشأنها لبحوثها وحواشيها.

وبما أن لدى ماريا عدة زبائن منتظمين وتذهب إلى الـ كوباكابانا يومياً، حتى في أيام الإقبال الضعيف، فقد فازت بثقة ميلان وجلبت لنفسها حسدَ زميلاتها؛ كنّ يقُلن فيما بينهن بأن البرازيلية طموحة ومتغطرسة ولا تفكر إلا بكسب النقود. لم تكن هذه النقطة الأخيرة خاطئة تماماً، مع أنها رغبت أن تسألهن إذا لم يكنّ هناك للسبب نفسه.

الثرثرات الفاضحة لا تَقتلِ على أية حال، إنها ضريبة النجاح. الأفضل لها أن تتجاهلها وتركِّز على هدفَيْها: العودة إلى البرازيل في الموعد المحدد، وشراء مزرعة.

كان رالف هارت منذ ذلك الوقت وصاعداً يحتل تفكيرها من الصباح حتى المساء. باتت للمرة الأولى قادرة على الاستمتاع بحب غائب - كانت نادمة قليلاً على أية حال على اعترافها ذاك، مخاطِرةً بخسارةِ كل شيء. ولكن، ماذا لديها لتخسره، إذا لم تطلب شيئاً بالمقابل؟ تذكرت كيف خفق قلبها بسرعة عندما أشار ميلان بأنه - أو كان - «زبون خاص. ما الذي يعنيه ذلك؟ شعرت أنها تعرضت للخيانة، شعرت بالغيرة.

حتى لو أن الحياة علَّمت ماريا بأنه من غير المجدي الاعتقاد بإمكانية امتلاك شخصٍ ما ـ يخدع نفسه من يعتقد بذلك ـ ، فالغيرة شيء طبيعي تماماً. لا يمكن أبداً كبح شعور كهذا أياً كانت النظريات الكبرى التي نملكها حول المسألة، أو الاقتناع بأنها دليل هشاشة.

أقوى حب هو ذلك الذي يمكنه البرهنة على هشاشته. على أية حال، إذا كان حبي حقيقياً (وليس فقط وسيلة لتسلية نفسي، لخداع نفسي لتمضية الوقت الذي يتمطى إلى ما لانهاية في هذه المدينة) فإن الحرية ستقهر الغيرة والألمَ اللذين يسببُهما ـ لأن الألم أيضاً جزء من سيرورة طبيعية. يعرف ذلك مَن يمارس الرياضة: عليه أن يكون مستعداً لتحمُّل جرعة يومية من الألم والضيق إذا أراد بلوغ أهدافه. في البداية يكون الضيق مثبطاً، ثم نفهم مع الوقت أنه مرحلة في سيرورةِ الرخاء، ثم تأتي لحظةٌ يشعر فيها المرء بأن التمرين الرياضي لا يُنتِج الأثر المرجوّ بدون الألم.

الشيء الخطير هو التركيز على هذا الألم، إعطاؤه اسماً، الاحتفاظ به حاضراً في الذهن دوماً؛ استطاعت ماريا بفضل الله التحرر من هذا.

لكنها كانت تضبط نفسها مع ذلك وهي تتساءل أين رالف، ولماذا لا يأتي في طلبها، وهل وجدَها غبية بقصةِ المحطة والرغبة المكبوتة تلك، هل هرب إلى الأبد لأنها اعترفت له بحبها. ولكي تَحُولَ دون تحَوُّلِ مشاعر بهذا الجمال إلى عذاب، طوَّرت طريقة: عندما تخطر لماريا ذكرى إيجابية بخصوص رالف هارت ـ النار في الموقد، النبيذ، فكرة ودّتْ مناقشتها معه، أو ببساطة الرغبة اللذيذة بمعرفةِ متى يعود ـ تُوقف ما هي بصددِه، تبتسم للسماء، تشكرها لأنها على قيد الحياة ولا تنتظر شيئاً من الرجل الذي تحبه.

على العكس، إذا أخذ قلبها يشكو من غيابه أو من الحماقات التي ارتكبتها وهُما معاً، كانت تقول لنفسها: «أهذا ما تريدين التفكير به؟ ليَكُنْ، كما تشائين، أنا سأكرس نفسي لأشياء أهم». تُتابع القراءة، أو تعير كل اهتمامها، إذا كانت في الشارع، لما يحيط بها: الألوان، الناس، الأصوات - خاصةً الأصوات، ضجيج خطواتها، ضجيج السيارات، حفيف الأوراق التي تقلبها، شذرات الأحاديث - وتختفي الفكرة السلبية. إذا عادت للظهور بعد خمس دقائق، تكرر ماريا العملية إلى أن تبتعد الذكريات التي هي في الوقت نفسه مقبولةٌ ومرفوضةٌ بلطف لمدة طويلة.

إحدى تلك «الأفكار السلبية» هي فرضية عدم رؤية رالف ثانيةً أبداً. وبقليل من الممارسة وكثير من الصبر نجحت ماريا في تحويلها إلى «فكرة إيجابية»: بعد رحيلها، ستكون جنيف بالنسبة لها وجهاً، وجه رجلٍ شَعرُه طويل جداً ذو قصَّةٍ ليست على الموضة، ابتسامته طفولية، وصوته أجش. إذا سألها أحد بعد بضع سنين لاحقة، عن المكان الذي عرفته في شبابها، سيكون بوسعها أن تجيب: «كان جميلاً، يستطيع أن يُحِبّ، وأن يُحَبّ».

من يوميات ماريا أحد أيام الحركة القليلة في الـ كوباكابانا:

من شدة الاحتكاك بالناس الذين يأتون إلى هنا أستنتج بأن الجنس مثل أي مخدِّر آخر: يُستخدم للهرب من الواقع، لِنسيان المصاعب ولِلاسترخاء. إنه، مثل جميع المخدرات، ممارسة ضارّة ومدمِّرة.

إذا أراد أحد تخدير نفسه فهو حر أن يختار بين الجنس أو أية مادة مخدرة أخرى؛ وستكون نتائج أفعاله سعيدة إلى هذا الحد أو ذاك حسب الخيار الذي وقع عليه. أما عندما يتعلق الأمر بالتقدم في الحياة فهناك حفرة بين ما هو «جيد بما فيه الكفاية» وما هو صراحةً «أفضل».

وعلى عكس ما يعتقده زبائني لا يُمارَس الجنس في أي وقت. في كلٍّ منا ساعة داخلية، ولكي يمارس شخصان الحب من الضروري أن تشير عقارب ساعتيهما في اللحظة نفسها إلى الوقت نفسه. هذا أمر لا يحدث كل يوم. من يحب لا يتَّبع للفعل الجنسي لكي يشعر بالارتياح. على الشخصين المتحابَّينْ واللذين يعيشان معاً أن يضبطا عقارب ساعتيهما بصبرٍ وجلَد، بمساعدةِ ألعاب وعروض «مسرحية»، ثم عليهما أن يدركا بأنّ فعل الجنس هو أكثر من لقاء: إنه «عناق» للأجزاء التناسلية.

كل شيء هام. مَن يعِشْ بكثافة يستمتع طوال الوقت، لا يشتاق للجنس. إذا كانت له علاقة جنسية فلأن هناك وَفْرة، لأن كأسه مليء

إلى درجة أنه يفيض، لأنه يستحيل تجنب الأمر، لأنه يلبي نداء الحياة، لأنه في هذه اللحظة، فقط في هذه اللحظة بإمكانه أن يفقد السيطرة.

حاشيةٍ: قرأتُ للتو ما كتبته: يا رب السماء، كم أتَحولُ إلى شخصٍ مفكّر!

بعد وقت قليل من كتابة ماريا لهذه الكلمات، وفيما كانت تستعد لتعيش أمسيةً أخرى كأمٍّ رؤوم، أو كفتاة صغيرة بريئة، انفتحَ باب الـ كوباكابانا ودخل تيرنس.

بدا ميلان خلف البار راضياً: لم تخذله الفتاة. تذكرت ماريا في اللحظة نفسها تلك الكلمات التي تعني أشياء كثيرة ذات المعنى المبهم لها: «ألم، عذاب، وكثير من المتعة».

«جئتُ من لندن لأراك خصيصاً. فكرتُ بك كثيراً».

ابتسمت جاهدةً ألاّ تكون ابتسامتُها تشجيعاً. هذه المرة أيضاً لم يتبع الطقوس، لم يدْعُها للشرب أو الرقص، بل جلس وحسب.

«عندما يساعد أستاذٌ تلميذاً على اكتشافِ شيء فإنه هو أيضاً يقوم باكتشاف.

ـ أعرف عمّا تتكلم»، أجابت ماريا التي كانت تفكر برالف هارت وهي تشعر في الوقت نفسه بالغيظ من هذه الذكرى: إنها أمام زبون وعليها أن تحترمه وتعمل ما بوسعها لإرضائه.

«هل تريدين المضي أبعد؟».

ألف فرنك. عالم خفيّ. صاحب الملهى الذي ينظر إليها. يقينها بأنها تستطيع التوقف متى تشاء. الموعد المحدد للعودة إلى البرازيل. رجل آخر لا يَظهر.

«هل أنت مستعجل؟» سألته ماريا.

أجاب بالنفي. ما الذي كانت تريده؟

«أريد كأس شرابي ورقصتي احتراماً لمهنتي».

تردَّدَ بضع دقائق، لكن الهيمنة والخضوع للهيمنة تشكل جزءاً من العرض. دفع ثمن الشراب، رقصَ، طلب سيارة أجرة، سلمها النقود وهما يعبران المدينة. اتجها إلى فندقِ المرة السابقة ذاته. دخلا. حيّا البوابَ الإيطالي كما في مساءِ تَعارُفِهما، وصعدا إلى الغرفة نفسها المطلة على النهر.

أشعل تيرنس قشة كبريت، وعندها فقط تبين لماريا أن شمعاتٍ لا تُعَدّ منتشرة في الغرفة. بدأ يشعلها.

«ماذا تريدين أن تعرفي؟ لماذا أنا هكذا؟ لماذا، إذا لم أكن مخطئاً، أحببتِ الأمسية التي أمضيناها معاً؟ تريدين أن تعرفي لماذا أنت أيضاً هكذا؟

- في البرازيل خرافة تقول بأنه يجب عدم إشعال أكثر من ثلاث شمعات بقشة الكبريت نفسها. وأنتَ لا تمتثل لها».

تجاهلَ الملاحظة.

«أنتِ مثلي. أنت لم تأتي إلى هنا من أجل الألف فرنك، بل بسببِ شعورٍ بالذنب، بالتبعية، بسبب عُقَدِكِ ونقصِ ثقتكِ. ليس هذا خيراً ولا شراً، إنه الطبيعة البشرية».

تناول جهاز التحكم وتنقّل بين عدة قنوات في التلفزيون قبل أن يتوقف عند نشرة أخبار تصوّر لاجئين فارّين.

«أترين هذه الصور؟ هل سبق أن شاهدت البرامج التي يعرض فيها الناس مشاكلهم الشخصية أمام الجميع؟ هل سبق أن ذهبت إلى الكشك لقراءة عناوين الصحف؟ الجميع يستمتع بالعذاب والألم. إنها ساديةٌ عندما ننظر إلى هذا كله، مازوخيةٌ عندما نتوصّل إلى

أننا لا نحتاج لمعرفة هذا كله لكي نكون سعداء، لكننا نحتاج أحياناً أن نشهد مأساة الآخر ونكابد ألمها».

صبَّ كأسيْ شمبانيا، أطفأ التلفزيون، وعاد يشعل الشموع، دون أن يلقي بالاً للخرافة التي حذرته ماريا منها.

«أكرر لكِ: إنه الشرط الإنساني. إننا، منذ طردنا من الجنة، إما نتعذب، أو نُعذِّب ونتأمل عذاب الآخرين. لا نستطيع شيئاً حيال ذلك».

سمعا هزيم الرعد، كانت عاصفة شديدة تقترب.

«لكني أعجز عن ذلك، قالت ماريا. يبدو لي سخيفاً أن أفكر بأنك سيدي وأنا عبدَتُك. لسنا بحاجةٍ لأي «حيلة مسرحية» للقاءِ العذاب؛ الحياة توفِّر لنا أكثر مما يجب من فرص التوجُّع».

أُشعلت كل الشموع. أخذ تيرنس واحدةً منها ووضعها في مركز الطاولة، صبَّ مجدداً الشمبانيا وقدَّم الكافيار. شربت ماريا بسرعة وهي تفكر بالألف فرنك في حقيبة يدها، وبالمجهول الذي يسحرها ويخيفها في آن واحد، وبأفضل وسيلة للسيطرة على خوفها. كانت تعرف أنه لا توجد أمسية شبيهة بسابقتها مع هذا الرجل، ولا تستطيع تهديده.

«اجلسي».

كان الصوت رقيقاً ومتسلطاً، بالتناوب. أطاعت ماريا، واجتاحت جسدَها موجةٌ من الحرارة. كان هذا الصوت مألوفاً لها فاطمأنت أكثر. «لعبة مسرحية. عليّ أن أدخل في اللعبة».

شيء جيد أن يؤمَر المرء. لم يكن عليها أن تفكر، بل أن تطيع فقط. طلبت مزيداً من الشمبانيا، فأحضر لها الفودكا؛ إنها تصعد إلى الرأس بشكل أسرع، تُحَرِّر الإعاقات بصورة أيسر، وتوافق الكافيار أكثر.

فتحَ الزجاجة، شربث ماريا بمفردها عملياً. كان الرعد ما يزال يقصف. كل شيء يساعد على كَمال اللحظة، كما لو أن طاقةَ السماوات والأرض كانت هي أيضاً تُظهر عنفَها.

تناول تيرنس عندئذٍ من الخزانة حقيبة صغيرة وضعها فوق السرير.

«لا تتحركي».

أطاعت ماريا. فتحها وأخرج منها زوجيْ أصفاد من معدن مطلي بالكروم.

«اجلسي مباعدةً بين ساقيكِ».

امتثلت، عاجزةً طوعاً، مذعنةً لأنها ترغب بذلك. رأت أنه ينظر بين فخذيها، ويستطيع أن يرى سروالها الأسود، جوربيها، فخذيها، وأن يتخيل عانتها وعضوها.

«وقوف!»

قفزت عن الكرسي. لاقى جسدها صعوبةً في التوازن، وتبين لها أنها أشدُ ثملاً مما تظن.

«لاتنظري إليّ. اخفضي رأسك، أطيعي سيدك!».

قبل أن تُنفّذ لمحت سوطاً رفيعاً جداً يخرج من الحقيبة ويفرقع في الهواء كأنّ له حياة خاصة به.

«اشربي. دعي رأسك مطأطئاً، لكن اشربي».

ابتلعت كاساً، كأسين، ثلاثة كؤوس أخرى من الفودكا. الآن لم تعد تلك لعبة مسرحية، بل الواقع: كان ذلك أقوى منها. باتت تحس أنها شيء، مجرد أداة، ومهما كان الأمر غير قابل للتصديق كان ذلك الإذعانٍ يمنحها شعوراً بحريةٍ شاملة. لم تعد العشيقةَ، لم تعد تلك التي تُعلِّم، تُؤاسي، تستمع إلى الاعترافات، تُثير: لم تعد سوى فتاة صغيرة من داخل البرازيل أمام سلطة الرجل الهائلة.

«انزعي ثيابك».

كان ذلك أمراً جافاً، دون رغبة - ومع ذلك إيروسياً إلى أقصى حد. فكّت ماريا، برأسٍ مازال مطأطئاً علامةَ الاحترام، ثوبها وتركته ينزلق إلى الأرض.

«هل تعلمين أنك لا تسلكين سلوكاً جيداً؟».

من جديد فرقعَ السوط.

«يجب أن تُعاقبي. فتاة في سنكِ، كيف تجرؤين على معاكستي؟ عليك أن تركعي على ركبتيك أمامي!»

استعدت للركوع لكن السوط أوقفها؛ وراح للمرة الأولى يضرب لحمها - فوق مؤخرتها. كان ذلك يُحرِق لكن بدا أنه لا يترك أثراً.

«لم أقل لك أن تركعي. هل قلتُ ذلك؟

- لا».

ضرب السوطُ مؤخرتَها أيضاً.

«قولي: لا ياسيدي».

ضربات من جديد. الحرقُ من جديد. لجزء من الثانية فكرت أنها تستطيع إيقاف كل شيء في الحال؛ مثلما تستطيع المضي أيضاً حتى النهاية، ليس من أجل المال، بل من أجل ما أكّده تيرنس في المرة الأولى: لا يعرف إنسان نفسَه إلاّ عندما يبلغ حدودَه.

وتلك كانت المغامرة، وهي شيء جديد. ما زال بوسعها أن تقرر لاحقاً الاستمرار إذا شاءت، لكنها في تلك اللحظة، كفت عن كونها الفتاة التي تسعى نحو أهداف في الحياة، تلك التي تكسب المال بوساطة جسدها، والتي تعرفت على رجلٍ لديه قصص مثيرة للاهتمام يرويها أمام نار موقد. هنا، لم تكن أحداً، ولأنها ليست أحداً، كانت كلَّ ما حلمت به.

«انزعي كل ثيابك. وامشي لكي أستطيع رؤيتك».

أطاعت مطأطئة الرأس دون قول كلمة. كان الرجل الذي يراقبها مرتدياً ثيابه، غير قابل للتأثر. لم يكن الكائنُ الذي التقته في الملهى الليلي ـ كان «أوليساً» قادماً من لندن، «تيسيوس» هابطاً من السماء، خطّافاً يجتاح المدينة الأكثرَ أماناً في العالم، والقلبَ الأكثر إغلاقاً على الأرض. نزعت سروالها وحمالة صدرها، وشعرت أنها عزلاء ومحمية معاً. فرقع السوط في الهواء دون إصابة جسدها.

«دعي رأسك مطأطئاً! أنت هنا لكي تُذَلّي، لكي تذعِني لكل رغباتي، مفهوم؟

ـ نعم، سيدي».

أمسك بمعصميها ووضع لها الأصفاد.

«سترين ما سيصيبك! إلى أن تتعلمي كيف تتصرفين كما يجب».

بكفهِ المفتوح صفعها على مؤخرتها. صرخت ماريا، فقد توجعت هذه المرة.

«تحتجّين، أليس كذلك؟ حسناً سترين ما هو جيد».

قبل أن تفعل شيئاً أغلقت كمامةٌ من الجلد فمَها. لم تكن تمنعها من الكلام، كان بوسعها أن تقول «أصفر» أو «أحمر»، لكنها سمحت لهذا الرجل أن يفعل بها ما يشاء، وليس لديها أية وسيلة للهرب. كانت عارية، مكمّمة، مقيّدة، والفودكا تسري في العروق بدل الدم.

ضربة جديدة على المؤخرة.

«امشي من جانب إلى آخر!»

أخذت ماريا تمشي مطيعةً الأوامر، «توقفي»، «إلى اليمين»، «اجلسي»، «باعدي ما بين ساقيك». كانت من وقت لآخر، وبلا سبب، تتلقى ضربة، وتشعر بالألم، بالذل ـ الأشدّ والأكثر حدة من الألم ـ ، وتكوّن لديها شعور بأنها في عالم آخر ما عاد يوجد فيه شيء آخر. كان ذلك إحساساً شبه ديني: أن يتلاشى المرء كلياً، أن يَخدم، أن يفقد وعيه بأناه، برغباته، بإرادته الخاصة. باتت مبللة تماماً، مستثارة، ولا تفهم ما الذي يحدث.

«على ركبتيك من جديد!».

بما أن ماريا بقيت مطأطئة الرأس علامةَ الطاعة والإذعان لم يكن بوسعها أن ترى ما يحدث بالضبط؛ لكنها لاحظت أن هذا الرجل في عالم آخر، فوق كوكب آخر، يلهث تعِباً من الفرقعة بالسوط وضربِ مؤخرتها، فيما راحت تشعر هي بأنها تزداد قوة وامتلاءً بالطاقة. لم تعد تشعر الآن بالخجل، ولا بأي حرج من إظهار استمتاعها بذلك؛ راحت تتأوه، طلبت منه أن يلمس عضوها، لكن الرجل، بدلاً من أن يرضيها أمسكها ورمى بها فوق السرير.

بعنفٍ ـ لكنه عنف تعرفه، العنف الذي لن يسبب لها أذىً ـ باعدَ لها ما بين ساقيها وربطهما على كلٍّ من جانبي السرير. كانت يداها مقيدتين وراء ظهرها، وساقاها مباعدتان، وفمها مكمَّماً. متى سيلِجُها؟ ألا يرى أنها جاهزة، أنها تريد أن تخدمه، أنها عبدته، حيوانَتَهُ، شيأه، أنها ستفعل كل ما قد يطلبه؟

«هل تحبين أن أجعلك تستمتعين؟».

أسنَدَ قبضةَ السوط فوق عضوها. فركَهُ من أعلى إلى أسفل، ولحظةَ لامسَ بظرَها فقدتْ كل سيطرة. لم تكن تعرف منذ كم من الوقت كانا هناك، كم مرة ضُرِبتْ، لكنها النشوة فجاةً، النشوة التي لم يستطع عشرات، بل مئاتُ الرجال، طوال كل هذه الشهور، إيقاظها. كان هناك انفجار للضوء، شعرت ماريا أنها تدخل ثقباً

أسود في أعمق أعماق روحها، حيث يمتزج الألم والخوف بالمتعة المطلقة، ماضيَيْن بها إلى ما وراء كل الحدود التي عرفتْها. تأوهت، أطلقت صرخةً خنقَتْها الكمامة، اهتزّت فوق السرير، شعرت أن القيد ينشر معصميها، والسيور الجلدية تجرح كاحليها، اهتزّت كما لم تفعل في حياتها ـ بالضبط لأنها لا تستطيع الحركة ـ صرخت كما لم تصرخ في حياتها قط ـ بما أن فمها مغطى بكمامة ولا يستطيع أحد سماعها. كان ذلك هو الألم والمتعة، قبضة السوط التي تضغط فوق بظرها بقوة أكثر فأكثر، فيعبّر فمُها، وعضوُها، وعيناها، ومساماتُها، وجِلدها بالكامل، عن المتعة.

سقطت في نوع من غشيةٍ خرجت منها رويداً رويداً. لم يعد هناك سوط بين فخذيها. شعرها مبلل بعرقٍ غزير؛ ويدان ناعمتان نزعتا لها الأصفاد وفكّتا السيور الجلدية عن كاحليها.

بقيت هناك ممددةً، مرتبكة، عاجزة عن النظر إلى الرجل لأنها خجلة من نفسها، من صرخاتها، من نشوتها. راح يداعب شعرها ويلهث هو أيضاً ـ لكن المتعة كانت لها حصراً؛ لم تحدث له أية نشوة.

التصق جسدُها العاري بذلك الرجل الذي كان بكامل ثيابه، منهكاً من ذلك القدر من الأوامر، من ذلك القدر من الصراخ، من ذلك القدر من السيطرة على الوضع. لم تعرف ماذا تقول الآن، كيف تتابع، لكنها تشعر بالأمان والحماية: لقد دعاها لبلوغ جزءٍ منها لم تكن تعرفه. كان حاميها وسيدها.

أخذت تبكي وانتظر بصبر أن تهدأ.

«ماذا فعلتَ بي؟ قالت بين دموعها.

ـ ما أردتِني أن أفعل».

نظرت إليه وشعرت أنها بحاجة ماسّة إليه.

«لم أقسرك، لم أجبرك، ولم أسمعك تقولين «أصفر». سلطتي الوحيدة هي تلك التي كنتِ توليني إياها. لم يكن هناك أي نوع من الإكراه، أي ابتزاز، بل إرادتكِ وحسب؛ حتى لو كنتِ أنت العبد وأنا السيد، فقد كانت سلطتي الوحيدة هي دفعُكِ نحو حريتك الخاصة».

أصفاد وسيور جلدية في القدمين. كمامةٌ. الإذلال الأشد والأكثر حدة من الألم. مع ذلك فقد كان على حق، كان الإحساس إحساساً بحرية شاملة. كانت ماريا مليئة بالطاقة وقوة الحياة، ومتفاجئة من تَبَيُّنها أنّ الرجل الذي بجانبها منهك.

«هل استمتعت؟

- لا، قال. السيد موجود لكي يقسر العبد. متعة العبد هي فرح السيد».

لا شيء من ذلك كان له معنى. إنه عالمٌ من الهلوسات لا تتناوله الكتب أبداً وليس له شأن بالحياة الواقعية. كانت ممتلئة بالضوء، ويبدو هو معتماً ومفرَغاً.

«يمكنك الانصراف متى شئتِ، قال تيرنس.

- لا أريد الانصراف، أريد أن أفهم».

نهضت في جمال وكثافةِ عريِها، وملأت كأسي نبيذ. أشعلت سيجارتين وأعطته واحدة. انعكستْ الأدوار، باتت هي السيدة التي تخدم العبد مكافأةً له على المتعة التي منحها إياها.

«سأرتدي ثيابي ثم أذهب. لكني أريد أن أتكلم قليلاً أولاً.

- ليس هناك ما يُقال. كان هذا ما أريد، وكنتِ رائعة. أنا تعب ويجب أن أسافر غداً إلى لندن».

تمدد وأغمض عينيه. لم تكن تعرف ما إذا كان يتظاهر

بالنوم، لكن هذا لا يهمها كثيراً؛ دخنت سيجارة باستمتاع، شربت كأس نبيذها ببطء، ملصقةً وجهها إلى زجاج النافذة وهي تنظر إلى البحيرة وتتمنى أن يراها أحد ما على هذه الصورة ـ عارية، مليئة، مفعمة، واثقة بنفسها.

لبست ثيابها، خرجت دون أن تودّع، ودون أن يكون لفعلِ فتحها الباب بنفسها أية أهمية: لم تكن متأكدة من رغبتها بالعودة.

سمع تيرنس الباب ينغلق. انتظرَ ليرى إذا كانت ماريا ستعود تحت أية ذريعة، ثم، وبعد مضي بضع دقائق نهض وأشعل سيجارة.

الفتاة متميزة، فكَّرَ. لقد تحملت السوط، أكثر العقوبات شيوعاً وأقدمها، وأقلّها شأناً. تنكرَ المرة الأولى التي عاشَ فيها بنفسه تجربةَ تلك العلاقة الغامضة بين شخصين يريدان التقارب ولا يحققانه إلاّ إذا أنزلَ كل منهما عقوبة العذاب بالآخر.

ملايين الأزواج في الخارج يمارسون يومياً، دون أن يعلموا، فنَّ السادومازوخية. يذهبون إلى العمل، يعودون، يشتكون من كل شيء، يهاجم الرجل زوجته أو تهاجمه، يشعران أنهما بائسان ـ لكنهما متعلقان تعلقاً عميقاً بتعاستهما الخاصة، ويجهلان أنه تكفي خطوة، يكفي قول «ليس بعد الآن» من أجل التحرر من القهر. لقد عرفَ تيرنس هذا مع زوجته، المغنية الإنجليزية الشهيرة؛ كان ممزَّقاً بالغيرة، يثير شجاراتٍ صاخبة معها، يعيش أياماً تحت تأثير المهدئات، ويمضي ليالٍ ثملاً من الكحول. كانت تحبه ولا تفهم لماذا يتصرف على هذا النحو؛ وكان يحبها ولا يفهم سلوكه الخاص أيضاً. لكن بدا كما لو أن الآلام التي ينزلها أحدهما بالآخر ضرورية، لا غنى عنها من أجل حياتهما.

ذات يوم نسي موسيقيٌ ـ رجلٌ كان تيرنس يجده غريباً لأنه يبدو عادياً بشكل مفرط في هذا الوسط من الأناس المتميزين ـ

نسي كتاباً في الاستديو. «فينوس بالفراء»، لـِ ليوبولد فون سانتشر مازوخ. تصفَّحَهُ تيرنس، وكلما أمعن في القراءة، فهم نفسه أكثر.

نزعت المرأة الجميلة ثيابها وتناولت سوطاً طويلاً ذا قبضة صغيرة ربطتهُ إلى معصمها. «لقد طلبتَ ذلك، قالت. لذا سأجلدك». «افعلي، همس عشيقها. أتوسل إليك».

كانت زوجة تيرنس في الجانب الآخر من الحاجز الزجاجي للاستديو في أوج التدريبات. طلبتْ قطْع الميكروفون الذي يتيح للتقنيين سماع كل شيء، ولُبِّيَ طلبُها. فكر تيرنس أنها ربما تكون بصدد إعطاء موعد لعازف البيانو. لقد فهمَ: إنها تُجَنِّنُهُ - لكنه كان، كما يبدو، قد اعتاد على المعاناة، وما عاد يستطيع العيش بدونها.

«سأجلدكَ» قالت المرأة التي تعرّت، في الرواية التي كان يمسك بها. *«افعلي. أتوسل إليك».*

إنه رجل جميل، يتمتع بسلطة في دار الأسطوانات التي يملكها. ما حاجتُهُ إلى عيشِ هذه الحياة؟

كان يحب ذلك. يستحق أن يعاني بكثرة، لأن الحياة سخية معه، وليس أهلاً لكل تلك النِّعم - مال، احترام، وشُهرة. بلغت مسيرتُه المهنية النقطةَ التي غدت مرتهَنَةً فيها للنجاح، وهذا شيء أقلقَه لأنه رأى كثيراً من الناس يسقطون من أعلى.

قرأ الكتاب حتى آخر سطر. أخذ يقرأ كل ما يتصل بالوحدة غير المفهومة بين الألم والمتعة. اكتشفت زوجته أفلام الفيديو التي يستأجرها، الكتب التي يخفيها وسألته عما يعنيه ذلك، وهل هو مريض. أكّد لها تيرنس أن لا، وأنها أبحاث من أجل صورٍ إيضاحية لعمل جديد. واقترحَ، بهيئةِ غيرِ المكترث للأمر: «ربما يجدر بنا أن نجرب».

جَرَّبا. بخجل شديد في البداية، فقط باستعمال الأدوات اليدوية التي عثرا عليها في محلات الأدوات الجنسية. وشيئاً فشيئاً طوَّرا تقنيات جديدة، بلغا الحدود، مخاطِرَيْن ـ لكنهما شعرا أن زواجهما يزداد متانة. كانا شريكين في سرٍّ ممنوعٍ ومُدان.

تحولت تجربتهما إلى فن: ابتدعا موضة جديدة، جلد ومسامير معدنية. تدخل زوجته إلى المسرح ممسكةً بسوط، مرتديةً جزمةً ومِشَدَّ جوارب، فتُهَيِّج الجمهور. وصلت هذه الأسطوانة الجديدة إلى المرتبة الأولى في مسابقة الأغاني بإنجلترا، وحققت نجاحاً مدوِّياً في أوروبا بأسرها. كان تيرنس متفاجئاً من تقبُّل الشبّان بهذه السهولة لهلوساته الشخصية. وتفسيرُه الوحيد هو أن عُنفَهُم المتضَمَّن يستطيع بهذا الشكل التعبير عن نفسه في شكلٍ مكثَّف لكنه غير مؤذٍ.

أُعيد إنتاجُ السوط، الذي بات رمزَ الفرقة، فوق بلوزات، وعلى شكل وشْمٍ وصور لاصقة، وبطاقات بريدية... وأخذ تيرنس، الذي يملك نوعاً من التأهيل الفكري، يبحث عن أصلِ هذا كله لكي يفهم نفسه فهماً أفضل.

على عكس ما قاله للمومس لم يكن لذلك علاقة بأعضاء الأخوية الدينية الراغبين بإبعادِ الطاعون الأسود. فقد فهمَ الإنسانُ منذ أقدم الأزمان أن العذابَ، حالما يُرَوَّض، هو جواز سفره نحو الحرية.

المفهوم القائل بأن الإنسان الذي يضحي بنفسه ينقذ بلدَهُ والعالمَ كان موجوداً في مصر وروما وبلاد فارس. وعندما كانت تحل كارثة طبيعية في الصين يعاقَب الامبراطور، لأنه يمثل الإله على الأرض. كان أفضل مقاتلي إسبارطة واليونان القديمة يُجلَدون مرة في العام، منذ الصباح حتى المساء، تكريماً للربة أرتيميس ـ بينما يطلق الحشدُ الصراخَ لحثِّهم على تحمّل الألم الذي يُعدُّهم

لمواجهةِ الحروب القادمة بكرامة. في نهاية النهار يعاينُ الرهبانُ الجروح المتروكة فوق ظهورهم، ويقرؤون فيها مستقبل المدينة.

آباءُ الصحراء، الجماعة الرهبانية القديمة التي قامت في القرنِ الرابع في مكان غير بعيدٍ عن الاسكندرية، كانوا يلجؤون إلى الجَلْد لإبعادِ الأبالسة، أو إثبات تفوق النفس على الجسد في التطلّع الروحي. ويعجّ تاريخُ القديسين بالأمثلة ـ القديسة روز كانت تركض في حديقة من الأشواك، والقديس دومينيك لوريكاتوس كان يجلد نفسه كل مساء قبل الذهاب إلى النوم، وكان الشهداء يُسلمون أنفسهم طوعاً للموت البطيء على الصليب، أو يدّعون الوحوش تفترسهم. الجميع كانوا يؤكدون أن الألم، حالَ قهرهِ، يقود إلى الوجد الصوفي.

تكشف دراسات حديثة، غير مؤكّدة، أن فطراً له خواصّ مُهَلْوِسة ينمو فوق الجروح، فيُحْدث رؤىً. بدا أن المتعة كانت من القوة بحيث أن تلك الممارسة سرعان ماغادرت الأديرةَ وانتشرت في العالم.

في العام 1718 ظهرت معاهدةُ «جلْد الذات» التي تُعلِّم كيفية اكتشاف المتعة عبر الألم، دون التسبُّب بأضرار جسدية. وفي نهاية القرن الثامن عشر انتشرت في كل أرجاء أوروبا أماكن كثيرة ينشد فيها الناسُ المتعةَ عبر الألم. وقد اعتاد ملوك وأميرات، حسب سجلات معينة، أن يطلبوا جَلْدهم من قِبل خدَمِهم، قبل أن يكتشفوا إمكانية الحصول على المتعة، ليس بتلقّي الألمِ وحسب، بل بتطبيقه على الآخر ـ رغم كون هذا أكثر إنهاكاً وأقلّ إمتاعاً.

بينما كان تيرنس يدخن شعر بنوع من الرضى وهو يقول لنفسه إن القسم الأكبر من الإنسانية عاجز عن فهم أفكاره. والأمر أفضل هكذا: الانتماء إلى نادٍ مغلق، لا يستطيع الوصول إليه غيرُ

النخبة. تذكَّرَ كيف تَحَوَّلَ، في حالته، هَمُّ كونهِ متزوجاً، إلى افتتان. كانت زوجته تعرف لأي غرضٍ يأتي إلى جنيف، ولا يزعجها ذلك - على العكس، ففي هذا العالم المريض أسعدها أن يعثر زوجها على المكافأة المنتظرة بعد أسبوع من الكدّ.

الفتاةُ التي خرجت للتو من الغرفة فهمت كل شيء. شعرَ بتقارُب روحيهما، مع أنه لم يكن مستعداً للوقوع في الحب لأنه يحب زوجته. لكن راق له التفكير بأنه حر، والحلم بعلاقة جديدة.

بقيت التجربة الأصعب: أن يجعل منها تلك الـ فينوس بالفِراء، أن يجعل منها الملكة، العشيقة، القادرة على إذلاله ومعاقبته دون شفقة. فإذا نجحت في الاختبار سيكون مستعداً لفتح قلبه لها والسماح لها بالدخول.

من يوميات ماريا وهي ما تزال ثملةٌ من الفودكا ومن المتعة:

عندما لم يعد لديّ ما أخسره حصلت على كل شيء. عندما كففتُ عن أن أكون ما أنا، وجدتُ نفسي. عندما عرفتُ الإذلال والخضوع التام، تحررتُ. لا أعرف هل أنا مريضة، هل هذا كله حلم، أم أنه لا يحدث سوى مرة واحدة. أعرف أني أستطيع العيش دونه، لكني أود مصادفته من جديد، تكرار التجربة، المضي إلى أبعد.

كنت خائفة قليلاً من الألم، لكنه كان أهونَ من الإذلال ـ لم يكن أكثر من ذريعة. عندما شعرتُ بنشوتي الأولى منذ شهور، بعد كل أولئك الرجال وكل ما فعلوه بجسدي، شعرتُ أني ـ هل هذا ممكن حقاً؟ ـ أكثر قرباً إلى الله. تذكرتُ ما قاله بشأن الطاعون الأسود، تلك اللحظة التي وَجدَ فيها مَن يجلدون أنفسهم، وهم يَهَبون ألَمَهُم لخلاصِ البشرية، المتعةَ في هذا الألم. لم أكن أريد إنقاذ البشرية ولا إنقاذه، ولا إنقاذ نفسي؛ كنتُ هناك وحسب.

فن الجنس هو فن السيطرة على فقدان السيطرة.

لم تكن تلك لعبة مسرحية: كانا حقاً في المحطة، نزولاً عند طلب ماريا التي تحب نوعاً من البيتزا لا يتوافر إلاّ هناك. بات بوسعها السماح لنفسها ببعض المزاجية. كان على رالف الحضور قبل يوم، عندما كانت ماتزال امرأة باحثة عن حب، عن رغبة، نار موقد ونبيذ. لكن الحياة شاءت غير ذلك. لم تحتَجِ اليوم للتركيز على الأصوات وعلى اللحظة الحاضرة، لسببٍ وجيه هو أنها لم تفكر مرة واحدة برالف، واكتشفت أشياء تثير اهتمامها أكثر منه بكثير.

ما العمل مع هذا الرجل الواقف إلى جوارها، والذي يأكل نوعاً ربما لا يحبه من البيتزا، بانتظار الذهاب إلى منزله؟ عندما دخل الـ كوباكابانا، وقدم لها مشروباً، فكرت ماريا أن تقول له بأن الأمر انتهى، وأن بوسعه البحث عن فتاة أخرى؛ ومن جهة أخرى، كانت تشعر بحاجة ملحّة للكلام مع شخصٍ ما عن الأمسية الماضية.

حاولت مع مومسات يتعاملن أيضاً مع «زبائن خاصّين»، لكنهن أعْرَضن جميعاً. ومن بين كل من تعرفهم من الرجال ربما كان رالف هارت هو الوحيد الذي يستطيع فهمها، كون ميلان يعتبره «زبوناً خاصاً». إلاّ أنه راح ينظر إليها بعينين تلمعان بالحب، مما زاد الأمر صعوبةً. الأفضل عدم قول شيء.

«ماذا تعرف عن الألم، العذاب والكثير من المتعة؟»

مرة أخرى لم تستطع السيطرة على نفسها.

توقف رالف عن الأكل.

«أعرف كل شيء ولا يهمني».

كان الرد فورياً، وصُدمت ماريا. الجميع يعرفون كل شيء إذن، باستثنائها هي؟ أيُّ عالمٍ هذا، يا إلهي؟

«التقيتُ بأبالِستي وظلماتي، تابعَ رالف. لقد مضيتُ إلى الحدود القصوى، جربتُ كل شيء، ليس فقط في هذا المجال، بل في مجالات كثيرة أخرى. أما عندما التقينا في المرة الأخيرة فقد وجدتُ حدودي من خلال الرغبة، وليس الألم. غصتُ إلى أعماق روحي، وما زلتُ أتطلّع إلى أشياء جيدة، أشياء جيدة كثيرة في هذه الحياة».

أراد أن يقول: «أنتِ إحداها، أرجوكِ لا تسلكي هذا الطريق»، لكنه لم يجرؤ. بدلاً من نلك نادى سيارة أجرة وطلب من السائق أخذهما إلى ضفة البحيرة ـ قبلِ دهرٍ سارا هنالك معاً، يوم تعارَفا. دُهشت ماريا لكنها لزمت الهدوء ـ فحاسّتُها تقول لها إنّ لديها أشياء كثيرة يمكن أن تخسرها، مع أن روحها ما تزال ثملةً مما حدث بالأمس.

لم تخرج من سلبيتها إلاّ عندما بلغا ضفة البحيرة. كان الوقت ما يزال صيفاً لكن الليل بارد.

«ما الذي نفعله هنا؟ سألتْ عندما نزلا من السيارة. هناك رياح وسأصاب بالرشح.

ـ فكرتُ كثيراً بكلماتكِ: عذاب، متعة. اخلعي حذاءك».

تذكرتْ أن أحد زبائنها طلب منها الشيء نفسه، وأنه استُثير لمجرد رؤية قدميها. لم تدَعها المغامرةُ بسلامٍ إذن؟

«سأصاب بالبرد.

ـ افعلي ما أقوله لك، ألحَّ. لن تصابي بالبرد إذا لم نبقَ طويلاً. ثقي بي كما أثق بك».

فهمت ماريا أنه يريد مساعدتها؛ ربما لأنه عاش تجربة مريرة واعتقدَ أنها تتعرض للخطر نفسه. لكنها لم تكن تريد المساعدة، كانت مسرورةً من عالمها الجديد الذي لم يعد العذابُ مشكلةً فيه. إلا أنها فكرت بالبرازيل، وباستحالةِ مصادفةِ شريكٍ يقاسمها عالماً مختلفاً إلى هذا الحد، وبما أن البرازيل أهمُّ من كل شيء في حياتها، فقد خلعتْ حذاءها. كانت الأرض مغطاةً بحجارة صغيرة سرعان ما مزقتْ جوربيها. إنه أمر لا أهمية له، ستشتري غيرهما.

«انزعي سترتك».

كان بوسعها أن ترفض، لكنها اعتادت منذ أمس على متعة إطاعة الأوامر كافة. نزعت سترتها. لم يُبدِ جسدُها، الذي كان ما يزال دافئاً، استجابةً على الفور، ثم أزعجَهُ البردُ رويداً رويداً.

«دَعينا نسِرْ ونتكلم.

ـ هذا مستحيل هنا؛ المكان مليء بالحجارة.

ـ بالضبط. أريدك أن تحسّي بهذه الحجارة، أريدها أن تسبب لك الألم، تجرحك: لا شك أنك خبرتِ العذابَ المرتبط بالمتعة ـ مثلما خبرتُهُ أنا أيضاً ـ وأريد انتزاع هذا من روحك».

ودت ماريا لو تقول: «لا فائدة، أحب ذلك». إلا أنها تابعت السير ببطء، بسبب البرد والحجارة الحادة الزوايا التي تحزُّ باطن قدميها.

«قادني أحد مَعارِضي إلى اليابان، تماماً في وقتٍ كنتُ متورطاً أثناءه فيما تسميه «عذاب، إذلال وكثير من المتعة». ظننت آنذاك أنه طريق بلا رجعة ممكنة، أنني سأغرق فيه أكثر فأكثر، ولم يبق في حياتي سوى الرغبة بإنزالِ العقاب والخضوع للعقاب.

«نحن بشر، نولد وفينا شعور بالذنب، نخاف عندما تصبح السعادةُ ممكنة، ونموت ونحن نرغب بمعاقبة الآخر لأننا نشعر دوماً بأننا عاجزون، نُعامَل بعدم إنصاف، وتعساء. أن ندفع ثمن خطايانا، ونعاقب الخُطاة، آه، أليس هذا لذيذاً؟ نعم، إنه شيء رائع».

أخذت ماريا تسير، وبدأ الألم والبرد يشوشان انتباهها عن كلام رالف، رغم كل جهودها.

«اليوم شاهدتُ الآثار فوق معصميك».

الأصفاد. لقد لبستْ أساور عديدة لإخفائها، لكن العين الخبيرة تجد دوماً ما تبحث عنه.

«في نهاية الأمر، إذا قادَكِ كل ما جرَّبتِهِ مؤخراً إلى القيام بهذه الخطوة فلستُ أنا من سيمنعك منها. لكن، لِتَعْلَمي بأنه ليس لهذا أي علاقة بالحياة الحقيقية.

ـ هذه الخطوة؟

ـ ألم ومتعة. سادية ومازوخية. سَمِّي الأمر ما شئتِ. إذا كنت مقتنعة بأن هذا هو طريقك، فسأشعر بالألم، سأتذكر الرغبة، لقاءاتِنا، والنزهةَ على طريق القديس جاك، وسأتذكر ضوءك. سأحتفظ بقلم حبرٍ في مكانٍ خاص، وكلما أشعلتُ ناراً في هذا الموقد سأفكر بك. لكني لن أسعى لرؤيتك ثانيةً أبداً».

خافتْ ماريا. إنه وقتُ التراجع وقولِ الحقيقة، والكف عن التظاهر بأنها تعرف عن الأمر أكثر منه.

«التجربة التي خضتُها مؤخراً ـ باختصار، بالأمس ـ لم أخُضها من قبل أبداً. ما يخيفني هو أنني، عند حد المهانة، وجدتُ نفسي».

بات الكلام صعباً ـ فقد كانت ترتعد من البرد، وقدماها تهزّانها بشدة.

في معرضي، بمنطقةٍ تُدعى كومانو، جاء حطّابٌ، استأنف رالف وكأنه لم يسمعها. لم يحبّ لوحاتي، لكنه استطاع كشفَ ما أعيشه وأحس به من خلال رسومي. في اليوم التالي جاءني إلى الفندق وسألني إذا كنتُ مسروراً. فإن كنتُ كذلك عليّ الاستمرار في فعلِ ما أحب. وإلاّ فعليّ أن أرافقه وأُمضي بضعة أيام معه.

«أرغمني على السير فوق الأحجار مثلما أفعل الآن معك. جعلني أعاني من البرد. أجبرني على فهم جمال الألم. لكنه ألِم تُسبّبه الطبيعة، وليس الإنسان. سَمّى ذلك بالـ شوكندو، وهو ممارسة تعود لألفِ سنة.

«قال لي بأني رجل لا أخاف الألم وأن هذا شيء جيد، لأنه لأجل السيطرة على الروح يجب أيضاً تعلُّم السيطرة على الجسد. لكني كنتُ أستعمل الألم بطريقة خاطئة، وهذا شيء سيء للغاية.

«ذاك الحطاب الأمّي ظنّ أنه يعرفني أكثر من نفسي، وقد أغاظني ذلك. وفي الوقت نفسه كنتُ فخوراً لمعرفةِ أن لوحاتي تُعبّر بالضبط عمّا أفكر فيه».

أحست ماريا أن حجراً أكثر تدبُّباً حزَّ قدمها، لكن البرد كان أقوى من كل شيء. ضعُفَ جسدُها ووجدت صعوبةً في متابعة كلام رالف هارت. لماذا لا يهتم الرجال في هذا العالم إلاّ بجعلها ترى الألم؟ ألم مقدّس، ألم مع متعة، ألم بتفسير أو دونه، إنما دوماً ألم، ألم...

لمستْ قدمُها الجريحةُ حجراً آخر. كَبَتَتْ صرخةً وتابعت سيرها. حاولت في البداية الحفاظ على طهارةِ نفسها، وتحكُمِها بنفسها، وعلى ما سمّاه «ضوؤها». إنها الآن تسير ببطء، بينما يجتاح الغثيانُ معدتها وتدور أفكارُها حول نفسها: ظنت أنها ستتقيأ. فكرت أن تتوقف، فلا شيء من هذا له معنى، ولم تتوقف.

لم تتوقف احتراماً لنفسها؛ بمقدورها تَحمُّل هذه النزهة حافية القدمين الزمنَ اللازم لها، فلن يدوم هذا كلَّ حياتِها. فجأةً عبرت خاطرَها فكرةٌ أخرى: وماذا لو لم تستطع الحضور إلى الـ كوباكابانا في اليوم التالي، بسبب جرح بليغ في القدم، أو حمى شديدة نتيجة الزكام الذي سيصيبها بالتأكيد؟ فكرت بالزبائن الذين ينتظرونها، بميلان الذي يثق بها ثقة كبيرة، بالمال الذي لن تقبضه، بمزرعة المستقبل، بأبويها شديدَيْ الفخر بها... لكن العذاب سرعان ما أبعدَ كل تفكير، فوضعت قدماً أمام الأخرى، آملةً بجنونٍ أن يعترف رالف هارت بمجهودها ويقول لها بأن هذا يكفي، وأنها تستطيع أن تلبس حذاءها.

بدا هو في هذه الأثناء لا مبالياً، بعيداً، كأنها الطريقة الوحيدة لتحريرها من شيء تجهله، شيء يفتنها، لكنه في النهاية سيترك عليها على نحوٍ مغاير آثاراً أعمق من أثر الأصفاد. ومع معرفتها بأنه يحاول مساعدتها، وأياً كانت جهودُها لإثباتِ قوةِ إرادتها، أخذ الألم يمنعها من التفكير بأية فكرة - دنيوية أو نبيلة. الألم وحده يشغل الحيِّز كله، يخيفها ويجبرها على الاعتراف لنفسها بأنّ هناك حدّاً، وأنها لن تبلغه.

لكنها مشت خطوة.

وأُخرى.

بدا أن الألم يجتاح الآن نفسَها ويضعفها روحياً، لأن قليلاً من اللعب في فندق بخمس نجوم، وهي عاريةً، وأمامها فودكا

وكافيار، وبين فخذيها سوط، هو شيءٌ، ووجودُها في البرد، دون حذاء تحزُّ الأحجارُ قدميها، شيءٌ آخر. شعرت أنها تائهة لا تستطيع تبادل كلمة مع رالف هارت. لا يوجد في عالمها سوى الأحجار، الصغيرة والقاطعة، التي تشق طريقاً بين الشجر.

وبينما كانت على وشك العدول اجتاحها شعورٌ غريب: لقد بلغت حدَّها، وما وراءه تمتد فسحةٌ فارغة كأنما تُحَلِّق فيها فوق نفسها وتجهل ما تشعر به. هل هو ذلك الشعور الذي انتابَ أعضاءَ الأخَوية؟ في الطرف الآخر للألم اكتشفتْ باباً ينفتح على مستوىً آخر من الوعي، لا مكان فيه إلاّ للطبيعة التي لا تَلين حتى إزاء نفسها، ولا تُقهر.

كل شيء من حولها أصبح حلماً: المتنزه سيء الإنارة، البحيرة المعتمة، الرجل الصامت، زوج أو اثنان يتنزهان دون أن يلاحظا بأنها حافية القدمين وتمشي بصعوبة. هل ذلك هو البرد أم الألم؟ فجأةً لم تعد تحس بجسدها، ودخلت في حالةٍ لا رغبة فيها ولا خوف ـ ماذا يمكن أن تسميها؟ ـ حالة «سلام» غامض. حدُّ الألم لم يكن حدَّها؛ فهي تستطيع المضي إلى ما وراء ذلك.

خطرت لها فكرة لأجل كل البشر الذين يتعذبون بصمت، بينما تصنع هي عذابَها الخاص ـ لكن لم يعد ذلك مهماً، لقد اجتازت حدود الجسد. لم يبق لها من الآن فصاعداً غير الروح، «الضوء» ـ نوع من الفراغ أسماهُ أحدهم، ذات يوم، جنةً. ثمة عذاباتٍ لا يمكن نسيانها إلاّ إذا كانت لنا القدرة على التحليق فوقها.

المشهد التالي الذي تذكرتْه كان رالف هارت وهو يحملها بين ذراعيه. فقد خلع سترته ووضعها فوق كتفيها. لا بدّ أنها سقطت مغشياً عليها من البرد، لا يهمّ: كانت مسرورة وغير خائفة ـ لقد ربحتْ. لم تَذلّ أمام ذلك الرجل.

باتت الدقائق ساعات، لا بدّ أنها نامت بين ذراعيه، لأنها عندما استيقظت وجدت نفسها في غرفة مجهزة في إحدى زواياها بجهاز تلفزيون ولا شيء آخر. بيضاء وفارغة.

ظهر رالف حاملاً شراب شوكولا ساخنة.

«حسناً جداً، قال، أنتِ في المكان الذي أردتِ الوصول إليه.

ـ لا أريد شوكولا، أريد نبيذاً. أريدُ الذهاب إلى غرفتنا، الموقد، والكتب المبعثرة في كل مكان».

لقد قالت «غرفتنا». وليس هذا ما خططتْ له.

نظرت إلى قدميها؛ باستثناء جرح صغير، لم يكن هناك سوى آثار حمراء ستختفي خلال بضع ساعات. نزلت السلم بشيء من الصعوبة، وأخذت مكانها في ركنها فوق البساط بجانب الموقد ـ كلما كانت هناك شعرت بالارتياح كما لو أن مكانها في هذا البيت.

«قال لي ذلك الحطاب إننا عندما نقوم بتمرين جسدي ونطلب من الجسد كل شيء، تكتسب النفسُ قوةً روحية غريبة تشبه «الضوء» الذي رأيته فيك. بماذا شعرتِ؟

ـ بأن الألم صديق للمرأة.

ـ هنا الخطر.

ـ وأن الألم له حدّ.

ـ هنا الخلاص. لا تنسي ذلك».

كان ذهن ماريا ما يزال مشوشاً. لقد شعرت بذلك «السلام» وهي تمضي إلى ما وراء حدودها. اكتشفت نوعاً جديداً من العذاب، وزوّدها هذا أيضاً بمتعةٍ فريدة.

تناول رالف طبقاً كبيراً من الكرتون المعد للرسم، وفتحه أمامه.

«قصة ممارسة البغاء. طلبتِ مني الاستعلام حول هذه النقطة يوم تعارفنا».

نعم لقد طلبتْ ذلك، لكنها طريقة تمضي بها الوقت وتجعل بها من نفسها شخصاً مهماً. لم يعد لذلك أية أهمية الآن.

«أبحرتُ في بحرٍ مجهول طيلة هذه الأيام الأخيرة. لم أكن أعتقد بوجود قصة، بل بأنها أقدم مهنة في العالم كما يقولون. لكن هذه القصة موجودة، أو إنهما بالأحرى قصتان.

ـ وهذه الرسوم؟»

بدا عليه قليل من الخيبة لكونها لم تفهم، لكنه استأنف:

«هذا ما وضعتُهُ على الورق وأنا أقرأ وأبحث وأتعلم.

ـ سنتكلم عن ذلك في يوم آخر. لا أريد تغيير الموضوع اليوم، فأنا أحتاج أن أفهم الألم.

ـ شعرتِ به البارحة واكتشفتِ أنه يقودكِ إلى المتعة. شعرتِ به اليوم وقادكِ إلى السلام. لهذا أقول لك: لا تعتادي عليه، فهو مخدّر قوي يمكن الاعتياد عليه. إنه موجود في حياتنا اليومية، في العذاب المخبوء، في زهدنا، وفي هزيمةِ أحلامنا التي نحمّل الحبَّ ذنب وقوعها. الألم يخيف عندما يُظهِر وجهَه الحقيقي، لكنه يَفتِنِ عندما يزدان بالتضحية بالزهد أو بالجُبن. يستطيع الإنسان ردَّه، ويجد على الدوام وسيلةً لمغازلته، لجعلِهِ جزءاً من حياته.

ـ لا أصدق ذلك. لا أحد يريد أن يتألم.

ـ إذا فهمتِ بأنك تستطيعين العيش دون ألم فهذه خطوة كبيرة لكن لا تظني أن الآخرين سوف يفعلون مثلكِ. لا أحد يريد أن يتألم، ومع ذلك يبحث الجميع تقريباً عن الألم، عن التضحية التي يشعرون بفضلها أن وجودهم مبرَّر أنهم أنقياء، وجديرون باحترام أبنائهم وأزواجهم وجيرانهم والله. دعينا لا نفكر الآن بالأمر، اعلَمي فقط أن ما يحرّك العالمَ ليس البحث عن المتعة، بل الزهدُ بكل ما هو جوهريّ. هل يذهب الجندي إلى الحرب لكي يقتل العدو؟ لا: بل لكي يموت من أجل بلده. هل تحب المرأة أن تُظهر لزوجها إلى أي حد هي راضية؟ لا: تريد أن يرى إلى أي درجةٍ تتفانى وتتعذب لكي يكون سعيداً. هل يذهب الزوج إلى العمل مفكراً أنه سيجد فيه تفتُّحَه الشخصي؟ لا: بل يقدّم عرَقَهُ ودموعه لرفاهِ أسرته. إلى غير ذلك: يزهد الأبناء بأحلامهم إرضاءً لآبائهم، ويزهد الآباء بالحياة إرضاءً لأبنائهم، وهكذا يصبح الألم والعذاب أدلةً على ما يُفترض ألاّ يجلب غير الفرح: الحب.

ـ كفى».

قطع رالف كلامه. إنها لحظة تغيير الموضوع. أخرجَ رسومه أحدها بعد الآخر. بدا كل شيءٍ مختلطاً في البداية، فهناك أشخاص، لكن هناك أيضاً خربشات، ألواناً، وخطوطاً نزقة أو هندسية. فهمت ماريا بالتدريج ما يقوله، لأنه يُرفق كل كلمةٍ بحركةٍ من يده، ولأن كل جملةٍ كانت تضعها في العالم الذي أنكرتْ حتى ذلك الوقت أنها جزء منه ـ بقولها لنفسها بأنّ هذا كله ليس أكثر من حقبةٍ من حياتها، ووسيلة لكسب النقود لا غير.

«اكتشفتُ أنه لا توجد قصة واحدة للبغاء، بل اثنتان. القصة الأولى تعرفينها، لأنها قصتكِ أيضاً: فتاةٌ جميلة تكتشف، لأسباب مختلفة، اختارتْها ـ أو فرضت عليها ـ أنّ الطريقة الوحيدة للبقاء

هي بيع جسدها. بهذه الوسيلة تتحكم بعضهن بأمم، مثل ميساليتا في روما؛ وتتحول أخرياتٌ إلى أساطير، مثل السيدة دي بَرّي؛ وتعيش أخرياتٌ المغامرةَ الممتعة والحظّ العاثر معاً، مثل الجاسوسة ماتا هاري. لكن الغالبية لا يعرفن لحظةَ مجدٍ واحدة ولا يَقْبَلْنَ تحدّيات كبرى: يبقين دوماً فتياتٍ باحثات عن الشهرة، عن زوج، أو عن المغامرة، ويكتشفن في النهاية واقعاً آخر، يستغرقن فيه بعض الوقت، يعتَدْن، ويعتقدنَ أنهن يسيطرن على الوضع، في حين أنهن لا يستطعن القيام بشيء آخر.

«منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، يصنع الفنانون تماثيل، لوحات، أو يؤلفون كتباً. كذلك تقوم المومسات بعملهن، كأن شيئاً لم يتغير كثيراً. هل تريدين تفاصيل؟».

أومأت ماريا برأسها موافقةً. إنها تحتاج لكسب الوقت لفهم الألم. لديها شعور بأن شيئاً ضاراً للغاية قد خرج من جسدها وهي تمشي في المتنزه.

«يُشار إلى المومسات في النصوص الكلاسيكية، والهيروغليفية المصرية، والمدوّنات السومرية، وفي العهد القديم والجديد. لكن المهنة بدأت تنتظم فقط في القرن السادس قبل المسيح في اليونان، عندما أسس المشرِّعُ صولون بيوتَ بغاءٍ بإشراف الدولة، وسنَّ ضريبةً لقاء «تجارة الأجساد». ابتهجَ رجالُ الأعمال الأثينيون بها، لأن هذه التجارة التي كانت ممنوعة من قبل، وأصبحت عندئذٍ شرعية. منذ ذلك الحين صُنِّفت المومسات تبعاً للضريبة التي يدفعنها.

«أرخصُهنّ ثمناً تدعى بورنه، وهي عبدة يملكها أصحابُ المؤسسة. تليها البيريباتيتيكه، التي تجد زبائنها في الشارع. أخيراً، وعلى مستوى المومسات الأرفع ثمناً ونوعيةً، تأتي الـ إيتاييره، «الصاحبة»، التي ترافق رجال الأعمال في أسفارهم

وترتاد المطاعم الفاخرة، وهي سيدة مالِها، تقدم النصحَ وتتدخل في الحياة السياسية للمدينة. كما ترين، ما وجد بالأمس ما يزال موجوداً اليوم. في القرون الوسطى، وبسبب الأمراض التي تنتقل بالجنس...».

صمتٌ، خوفٌ من الزكام، حرارةُ النار في الموقد ـ الضرورية الآن لتدفئةِ جسدها وروحها. لم تعد ماريا تريد سماع هذه القصة التي تعطيها الانطباع بأن العالم توقفَ، وأن كل شيء يتكرر، وأن الإنسان لن يولي الجنسَ أبداً ما يستحق من احترام.

«لا يبدو أن الأمر يهمك».

بذلت جهداً. إنه في النهاية الرجل الذي قررت تسليمه قلبها، مع أنها لم تعد الآن متأكدةً بالقدر نفسه من ذلك.

«لستُ مهتمةً لأني أعرف القصة؛ إنها تحزنني. قلتَ لي بأن هناك قصة أخرى.

ـ القصة الأخرى مناقضة حرفياً: إنها البغاء المقدس».

فجأةً خرجتْ من حالتها الغافية وراحت تصغي باهتمام. بغاء مقدس؟ كسب النقود بفضل الجنس، وأيضاً الاقتراب من الله؟

«كتبَ المؤرخ اليوناني هيرودوت حول بابل: تُرغَم كل امرأة مولودة في سومر على الذهاب مرة في حياتها على الأقل إلى معبد الربة عشتار، وتسليم جسدها لشخص مجهول كرمزٍ للضيافة، وبسعر رمزي».

ستستعلم لاحقاً عن هذه الربة؛ ربما تساعدها هي أيضاً على استعادة شيءٍ فقدتْهُ، ولا تعرف ما هو.

«انتشر تأثيرُ الربة عشتار في الشرق الأوسط بأسره، وبلغ سردينيا وصقلية وموانئ المتوسط. وفي ظل الامبراطورية الرومانية، طالبتْ ربةٌ أخرى، الربة فيستا، بعذرية كاملة أو مَنْحٍ

كاملٍ للجسد. ولأجل صَوْن النار المقدسة تكفّلتْ نساءُ معبدِها بإطلاع الشبان والملوك على أسرار الجنس ـ كنّ ينشدن أناشيد إيروسية، فتُصيبهن حالة من الارتعاش، ويهبنَ الكونَ نشوتَهُنَّ في نوعٍ من وحدة الشعور مع الآلهة».

عرض رالف هارت لها نسخة لبعض الحروف القديمة، مع ترجمتها بالألمانية أسفل الصفحة. وراح يقرأ بفخامة وبطء، مترجِماً كل شطر:

عندما أجلس أمام باب حانة،
أنا عشتار، الربة،
أنا مومس، أمّ، زوجة، ربّة،
أنا ما يُدعى حياة،
رغم أنكم تدعونني موتاً.
أنا ما يُدعى قانوناً،
رغم أنكم تدعونني هامشية.
أنا ما تبحثون عنه
وما وجدتموه.
أنا ما نثرتموه
والآن تجمعون أشلائي.

أصيبت ماريا بحازوقة وضحك رالف. عادت إليها طاقتها الحيوية، عاد «الضوء» يلمع من جديد. كان من الأفضل أن يكمل القصة، يُريها الرسوم، ويُشعرها بأنها محبوبة.

«لا أحد يعرف لماذا اختفى البغاء المقدس بعد أن دام ألفي

سنة على الأقل. ربما بسبب الأمراض، أو بسبب المجتمع الذي غيَّر قوانينه عندما تغيرت الأديان أيضاً. باختصار، إنه شيء ما عاد موجوداً ولن يوجد بعد الآن. في أيامنا يتحكم الرجال بالعالم، ويُستخدم تعبير «مومس» فقط من أجل وَصْمِ كل امرأة لا تسلك الطريق القويم.

ـ هل يمكنك الحضور غداً إلى الـ كوباكابانا؟».

لم يفهم رالف السؤال لكنه قَبِلَ فوراً.

من يوميات ماريا في المساءَ الذي مشت فيه حافية القدمين في المتنزه الإنجليزي بجنيف:

لا يهمني إن كان هذا مقدساً ذات يوم أو لم يكن، لكني أكره ما أفعله. إنه يدمّر روحي، يجعلني أفقد الصلة بنفسي، يعلِّمني أنّ الألم مكافأة، وأن المال يشتري كل شيء، ويبرر كل شيء. لا أحد من حولي سعيد؛ الزبائن يعرفون أن عليهم أن يَدفعوا ثمن ما يجب أن يحصلوا عليه مجاناً، وهذا شيء محبِط. تعرف النساء أن عليهن بيع ما يودّهنّ تقديمه فقط لأجل المتعة وبحنان، وهذا مدمّر. صارعتُ كثيراً قبل أن أخطّ هذه الكلمات، قبل أن أقبل الاعتراف بأني تعيسة وغير راضية ـ كنتُ وما زلتُ بحاجةٍ للصمود بضع أسابيع أخرى.

لكني لم أعد أستطيع التظاهر بهدوءٍ بأن كل شيء عادي، بأنها مجرد فترة من حياتي. أريد نسيانها، أحتاج للحب، هذا وحسب، أحتاج للحب.

الحياة قصيرة، أو أنها أطول من أن أَعيشها على هذا النحو السيء.

ليس بيتَهُ ولا بيتَها. ليست البرازيل ولا سويسرا، بل فندق يمكن أن يوجد في أي مكان، ويجعله أثاثُهُ المجرَّدُ عن الزمن، وديكورُه الذي يُراد له أن يكون أليفاً، أكثر افتقاراً لطابعٍ خاص.

ليس الفندقَ المطل على البحيرة، وذكرى الألم، والعذاب، والنشوة. النوافذ تطل على طريق القديس جاك، طريق حجٍّ ولكن لا تكفير، يلتقي الناس في المقاهي على جانبيه، يكتشفون «ضوءهم»، يتبادلون الأحاديث، يتصادَقون، ويتحابُّون. إنها تمطر والطريق مقفرٌ في هذه الساعة من الليل ـ ربما يرتاح الطريقُ من كل الخطى التي تسكّعت فوقه بشكل يومي منذ قرون.

يُشعَل الضوء، تُغلَق الستائر.

يُطلب منه نزع ثيابه، وثيابها أيضاً. كانت الوحيدةَ حتى ذلك الوقت التي عَرَّتْ قسماً من جسدها. العتمة لا تكون تامةً أبداً، وحين اعتادتْ عينا ماريا عليها استطاعت أن تُميِّز، في ضوءٍ ضعيفٍ يرشَح لا يُعرَف من أين، قامةَ الرجل.

أخرجتْ فولارَيْن، مطويين بعناية، غُسِلا مراراً بحيث لا يبقى أي أثرٍ لعطر أو صابون. اقتربت منه وطلبت منه عصبَ عينيه. تردَّد وقال شيئاً بخصوصِ جحيمٍ معينٍ سبق أن عبَرَهُ. فأكدت أن الأمر ليس ما ذَكَر، وأنها تريد فقط ظلاماً تاماً. إنه دورها الآن لكي تعلِّمه شيئاً، مثلما علَّمَها الألم بالأمس. أذعنَ وعقدَ العصبةَ.

فعلتْ الشيء نفسه. لم يعد أي ضوء يتسرب الآن، أصبحا حقاً في العتمة. أمسك أحدهما بيد الآخر لكي يصلا إلى السرير.

لا، يجب ألاّ نضطجع. سنجلس كما فعلنا دوماً، وجهاً لوجه، فقط أحدنا أقرب قليلاً إلى الآخر، بحيث تتلامس رُكَبُنا.

لطالما تمنت أن تفعل ذلك، دون أن يُتاح لها الوقت اللازم لذلك. لم تفعله، لا مع حبيبها الأول، ولا مع الرجل الذي ولجَها أول مرة، ولا مع العربي الذي دفع ألف فرنك، منتظراً ربما أكثر مما استطاعتْ تقديمه ـ حتى لو لم تكن الألف فرنك كافيةً لشراءِ كل ما اشتهته. ولا مع الرجال العديدين الذين مروا فوق جسدها، رائحين غادين بين فخذيها، أحياناً دون أن يفكروا إلاّ بأنفسهم، وأحياناً أخرى فكروا بها أيضاً، مسكونين أحياناً بالأحلام الرومانسية، وأحياناً مدفوعين بغريزة التكرار وحدها. حيث قيل لهم بأن هذه هي الطريقة التي يتصرف بها الرجل، وأنه لا يكون رجلاً إذا خرق القاعدة.

فكرت بيومياتها. لم تعد قادرة على الاحتمال. إنها تتمنى أن تمر الأسابيع القليلة الباقية لها سريعاً، وهذا هو السبب الذي يجعلها تعطي نفسَها لهذا الرجل: هنا يكمن ضوءُ حبِّها السرّي. ليست الخطيئة الأصلية في تناول حواء للتفاحة، بل في حاجتها لإشراك آدم في الانفعالات التي انتابتها، خوفاً من أن تسلك طريقاً بلا عونٍ من أحد.

ثمة أشياء لا يمكن إشراك أحد فيها. يجب ألاّ نخاف المحيطاتِ التي نغطس فيها بملء إرادتنا؛ فالخوف يفسدُ لعبةَ الجميع. يعبر الإنسان أشكالاً من الجحيمِ لكي يفهمها. فلْيحبَّ أحدُنا الآخر، لكنْ دون أن يسعى أحدُنا لامتلاك الآخر.

أحِبُ هذا الرجل الذي يمكث أمامي، لأني لا أملكه ولا يملكني. نحن حُرّان في أن يمنح أحدُنا نفسَهُ للآخر. عليّ أن أكرر هذه

الكلمات عشرات، مئات، ملايين المرات، إلى أن أؤمن أنا نفسي بها في النهاية.

تُفكرُ بالمومسات اللواتي يعملن معها. تفكر بأمها، بصديقاتها. جميعهن يعتقدن أن الرجال لا يعيشون إلاّ من أجل إحدى عشرة دقيقة في اليوم، وأنهم مستعدون لدفعِ ثروةٍ لهذا الغرض. لكن هذا غير صحيح؛ الرجل أيضاً يملك حصةً من الأنوثة، ويطمح إلى لقاء، إلى إعطاء معنى لحياته.

هل من الممكن أن أمَّها تسلك سلوكَها وتتظاهر بالوصول إلى النشوة مع أبيها؟ أم أنه ما يزال ممنوعاً في البرازيل أن تُظهر المرأةُ استمتاعَها في العلاقة الجنسية؟ إنها تعرف أشياء قليلة جداً عن الحياة، عن الحب، وتكتشف الآن بعينيها المعصوبتين أصل كل شيء: كل شيء يبدأ من النقطة التي تمنت أن يبدأ منها.

الاحتكاك. نسيت المومساتِ، والزبائنَ، وأمَّها وأباها، إنها الآن في العتمة الكليّة. لقد أمضت عصر اليوم في التساؤل عما يمكنها تقديمه لرجلٍ أعاد لها كرامتها وأفهمَها أن البحث عن الفرح أهمّ كثيراً من ضرورة الألم.

«أريد منْحهُ سعادةً جَعْلي أكتشفُ شيئاً جديداً، مثلما جعلني بالأمس أرى الألمَ، وأخبرني بقصة مومسات الشارع، والمومسات المقدَّسات. كان سعيداً لقيامه بذلك. فليُوَجِّهْني ويعلّمني إذن. وقبل الوصول إلى الروح أريد أن أعرف كيفية الوصول إلى الجسد، والإيلاج، والمتعة».

مدت ذراعها نحوه ورجته أن يفعل الشيء نفسه. همست ببضع كلمات: هذا المساء، في هذا المكان الخالي من الخصوصية تتمنى أن يكتشف ملمسَ جلدها الذي هو الحدّ بينها وبين العالم. طلبت منه أن يلمسها، أن يشعر بها بيديه، لأن الأجساد تتفاهم وإن لم تتفق الأرواح دوماً. لمسها ولمسته، وتجنَّبَ كلاهما، كما لو

أنهما رتبا كل شيء مسبقاً، مناطقَ الجسد التي تبرز فيها الطاقةُ الجنسية على أسرع نحوٍ.

الأصابع تداعب وجهها، أحست برائحةِ الألوان، الرّائحة التي تبقى وإنْ غسلَ يديه ملايين المرات، رائحة كانت حاضرةً منذ ولادته، عندما لمحَ أولَ شجرة، وأول بيتٍ قرر رسمَهُ في أحلامه. هو أيضاً لا بد أنه يحس برائحةٍ في يدها، لكنها تجهل ما هي ولا تريد أن تعرف، لأن كل شيء جسدٌ في هذه اللحظة، والباقي صمتٌ.

راحت تداعبه وتشعر بمداعبته لها. إنها تستطيع أن تمضي الليل بطوله على هذا النحو، لأنه شيء ممتع، ولا يؤدي بالضرورَة إلى علاقة جنسية ـ شعرت فجأةً، وبالضبط بسبب عدم وجودِ واجب، شعرت بسخونةٍ بين فخذيها وعرفت أنها رطبة. ستأتي اللحظةُ التي يلمس فيها عضوها ويكتشف أنه مبلل، ولا يهم أن يكون هذا جيداً أم سيئاً، هكذا يستجيب جسدها، ولا تنوي توجيهه ـ من هنا، من هناك، ببطء، أسرَع... راحت يدا الرجل تلامس الآن إبطيها، انتصب زغبُ ذراعيها، لديها رغبة بدفعهما ـ فحتى لو كان هذا لذيذاً فربما يكون الألم هو ما تشعر به. داعبته بدورها، لاحظت أن لإبطيه نسيجاً مختلفاً ـ هل ذلك بسبب مزيل الرائحة الذي يستعملونه؟ بماذا تفكر؟ عليها ألاّ تفكر. عليها أن تلمس وحسب.

كانت يداه ترسمان دوائر حول نهديها، على طريقةِ حيوانٍ يَرصد. تمنت أن يتحرك بشكل أسرع ويلمس حلمتيها. إنها تستبقُ حركاتِه بفكرها، لكنه ربما، مدركاً ذلك، يستثيرها، يتلذذ، ويؤخِّر الأمر إلى ما لانهاية. حلمتاها منتصبتان، لعبَ بهما قليلاً، اقشعرَّ جسدها، ذابَ عضوها من الرغبة. راح الآن يجول بأصابعه فوق بطنها، ينزل نحو فخذيها، قدميها، جابتْ يداه باطنَ فخذيها، وشعر بحرارتها دون أن يقترب. إنها مداعبة ناعمة، خفيفة، الخفة التي تُسبِّب الهلوسة.

كررتْ حركتَهُ فوقِ جسدِهِ هو، يداها بالكاد تلمسان شَعرَ ساقيه، وأحستْ أيضاً بالحرارة المنبعثة من عضوه. كأنها استعادت فجأةً وعلى نحوٍ غامضٍ عذريتها، كأنها تكتشف جسدَ رجل للمرة الأولى. لمست عضوه، إنه أقلّ صلابة مما تخيلت ـ وهي مبللة تماماً، هذا غير عادل، ربما يحتاج الرجل إلى وقت أطول، من يدري؟

أخذت تداعبه كما تعرف العذارى فقط أن يفعلن، لأن المومسات نَسينْ. استجاب الرجل، كبرَ عضوه، وزادتْ ماريا ببطءٍ ضغطَ يديها، وقد فهمت الآن أين تلمسه ـ في الأسفل أكثر مما في الأعلى ـ وكيف تحيطه بأصابعها، وكيف تسحب الجلد إلى الخلف. إنه الآن مستثار جداً. راح يداعب شفريها، بنعومةٍ دوماً في حين أنها ترغب باحتكاكٍ أكثر فعالية وأعمق. لكنه ينشر فوق بظرها شيئاً من السائل الذي ينبجس من جوفها، ويكرر من حوله الحركاتِ الدائرية نفسها التي رسمها حول حلمتيها. هذا الرجل يلمسها كما لو أنها هي نفسها من تفعل.

صعدتْ إحدى يدي رالف نحو نهدها ـ كم هذا لذيذ، كم تودّ أن يعصره الآن. لكن لا، إنهما يكتشفان جسديهما، لديهما الوقت، ويلزمهما كثير من الوقت. بإمكانهما الآن ممارسة الجنس، سيكون ذلك هو أكثر الأشياء طبيعيةً في العالم، ولذيذاً بدون شك، لكن ذلك كله جديد جداً، يجب أن تسيطر على نفسها، فهي لا تريد إفساد كل شيء. تذكرت النبيذ الذي شرباه ببطءٍ في أول أمسية مستمتِعَينْ بكل جرعة، وكيف كان ذلك المشروب يبث فيها الحرارة، يفتح لها آفاقاً، ويجعلها أكثر تحرراً وقرباً من الحياة.

تريد أن تَشرب هذا الرجلَ أيضاً؛ عندها ستنسى إلى الأبد النبيذَ الرديء الذي يُجرَع دفعة واحدة، ذاك الذي يمنح الإحساس بالثمل والذي ينتهي بجفاف الحلق وثقل الرأس، ويصنع ثقوباً في الروح.

توقفت، شبكتْ أصابعها بنعومةٍ في أصابع رالف، سمعت آهةً ورغبت أن تُطلق بدورها آهة، لكنها أمسكت نفسها، شعرت بالحرارة تنتشر في كل جسدها، ولا بُدّ أنه يشعر بالشيء نفسه. دون نشوةٍ تنتشر الطاقة، وتصل إلى دماغها. إنها لا تفكر بشيءٍ عدا المضي حتى النهاية، مع أن ما تريده هو أن تتوقف، تتوقف في المنتصف تماماً، تدعَ المتعةَ تجتاح جسدها بكامله وتغمر نفسها، تُجدِّد العلاقة والرغبة وتعود عذراء.

نَزَعت العصبتين بلطفٍ، وأضاءت مصباح السرير. كلاهما عاريان لا يبتسمان، بل ينظر أحدهما إلى الآخر وحسب. «أنا الحب، أنا الموسيقى، فكرتْ. لنرقُصْ».

لكنها لم تقل ذلك: تكلّما عن أشياء مبتذلة. متى سنلتقي ثانيةً؟ فاقترحتْ تاريخاً، ربما خلال يومين. قال لها بأنه يود دعوتها إلى معرض. ترددتْ. يقضي هذا بأن تتعرف على وسطه وأصدقائه. ماذا سيقولون؟ بمَ سيفكرون؟

رفضتْ. لكنه فهمَ أنها تتمنى أن تقبل فأصرّ، مستخدماً حجة سخيفة تشكّل جزءاً من الرقصة، فرضخت في النهاية. حدد المقهى الذي ذهبا إليه أول يوم مكاناً للموعد. لا، البرازيليون متطيِّرون، يجب عدم الاجتماع في المكان الذي تم فيه اللقاء، فربما يغلق ذلك دورةً ويضع نهايةً للقصة.

إنه مسرور لكونها لا تريد إغلاق هذه الدورة. لذا قررا اللقاء في كنيسة يمكن رؤية البلد منها على طريق القديس جاك، وهي جزء من الحج الغامض الذي بدآه منذ أن تعارَفا.

من يوميات ماريا عشية شرائها بطاقة العودة:

كان هناك مرةً عصفور، له جناحان تامّان بريشٍ برّاق وألوان خلابة. باختصار، حيوان خلق ليطير بحرية في السماء، للمتعةِ الكبرى لمن يراقبه.

ذات يوم شاهدت امرأةٌ هذا العصفور وفُتنت به. نظرت إليه وهو يطير فاغرةً فمها من الإعجاب، بقلبٍ يدق بجنون، وعينين تلمعان من التأثر. دعاها لمرافقته، وطارا معاً بانسجامٍ تام. كانت معجبةً بالعصفور، تجلُّهُ، وتكبره.

لكن المرأة فكرت يوماً: «هل سيحب اكتشاف جبال بعيدة؟» وخافت. خافت ألاّ تنتابها هذه الحالة مع عصفور آخر. وشعرت بالغيرة ـ غيرة من قدرة العصفور على الطيران.

شعرت بالوحدة.

«سأنصب له فخاً، فكرت. عندما يظهر العصفور في المرة القادمة لن يرحل ثانيةً أبداً».

في اليوم التالي، عاد العصفور، الذي كان هو أيضاً مأخوذاً جداً لرؤيتها. وقع في الفخ، وحُبِس في قفص.

كانت المرأة تتأمله كل يوم. كان موضوعَ شغفها، وكانت تُريه لصديقاتها اللواتي يقلن متعجّبات: «أنتِ شخص حصل على كل ما يتمناه!» إلاّ أنّ تغيُّراً غريباً بدأ يحدث: بما أن العصفور أصبح

مُلكاً للمرأة ولم تعد بحاجة للفوز به، فقد أمملتْهُ. ذبلَ العصفور الذي لم يعد يستطيع الطيران أو التعبير عن معنى حياته، وفَقَدَ ألقَه، وبشعَ مَنْظَرُه - وكفت المرأة عن الاهتمام به إلا لإطعامه وتنظيف قفصه.

ذات يوم جميل مات العصفور. حزنت على موته حزناً عميقاً ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف عن التفكير به. لكنها لم تكن تتذكر القفص، بل تتذكر فقط اليومَ الذي لمحته فيه للمرة الأولى وهو يطير سعيداً، عالياً بارتفاع الغيوم.

لو أنها راقبت نفسها لاكتشفت أنّ ما أثّر فيها بهذه القوة لدى العصفور هو حريته، قوة جناحيه وهما يتحركان، وليس مظهره الخارجي.

بدون العصفور فقدت حياتُها بالذات معناها، وجاء الموتُ يطرق بابها.

«لماذا جئتَ؟» سألته المرأة.

«لكي تستطيعي الطيران معه مجدداً في السماوات، أجاب الموتُ. لو أنكِ تركتِهِ يذهب ويعود كل مرة لأحببتِهِ وأعجبتِ به أكثر؛ أما من الآن وصاعداً فإنك تحتاجين لي كي تلتقي به».

بدأت ماريا نهارها بفعلٍ استعدتْ له منذ شهور: دخول وكالة سفر وشراء بطاقة إلى البرازيل في الموعد الذي دوّنته في روزنامتها.

لم يبق لها الآن سوى أسبوعين تقضيهما في أوروبا. عدا ذلك، ستكون جنيف بالنسبة لها وجهَ رجلٍ أحبّتْهُ وأحبَّها. سيُختزل شارعُ برن في اسم ـ هو تكريمٌ لعاصمةِ سويسرا. ستتذكر غرفتها، والبحيرةَ، واللغة الفرنسية، والحماقاتِ التي تستطيع شابةٌ في الثالثة والعشرين من العمر (احتفلتْ عشية أمس بيوم ميلادها) ارتكابَها ـ قبل أن تدرك أن هناك حَدّاً.

ليس وارداً أن تَسجن العصفور، ولا أن تطلب منه القدوم معها إلى البرازيل: إنه يمثّل أنقى ما حدثَ لها في الحياة. مثل هذا العصفور يجب أن يطير بحرية، يتغذى من الحنين إلى التحليقات التي اشترك بها مع صاحِبه. هي أيضاً كانت عصفوراً؛ وحضور رالف هارت بجانبها دوماً سيذكّرها بفترةِ الـ كوباكابانا، التي ستكون ماضيها وليست مستقبلها.

عاهدت نفسها ألاّ تقول «وداعاً» إلاّ لحظةَ الانطلاق كيلا تتألم كل مرةٍ تفكر فيها «قريباً لن أكون هنا». لذا خدعتْ قلبَها في ذلك الصباح وهي تسير في جنيف كما لو أنها طافتْ دوماً تلك الشوارعَ، والهضبةَ، وطريق القديس جاك، وجسر الجبل الأبيض،

كما لو أنها عرفتْ البارات التي اعتادت التردد إليها. تابعتْ بناظريها طيرانَ النوارس فوق النهر، راقبت التجارَ يرتّبون منصاتِ بضائعهم، الناسَ يخرجون من المكاتب للغداء، الطائرات تحطّ في البعيد؛ لاحظتْ لون التفاحة التي تأكلها ومذاقها، قوس قزح أعلى نافورةِ الماء التي ترتفع وسط البحيرة، الفرحَ الخجولَ المقنَّعَ للمارِّين بقربها، نظراتِ الرغبة، النظرات الخالية من التعبير، النظرات. من بين كل مدن العالم عاشت عاماً تقريباً في مدينةٍ كان يمكن، لولا عمارتها الخاصة ووفرة لافتات المصارف فيها، أن توجد في البرازيل. كان هناك المعرض، السوق، ورباتُ بيوتٍ يساومْن. كان هناك طلاب خرجوا من دروسهم قبل الموعد، ربما بحجةِ أبٍ مريض أو أمٍّ مريضة، وهم الآن يتنزهون ويتعانقون على ضفة البحيرة. كان هناك أناس يشعرون أنهم في بلدهم وآخرون يشعرون بأنهم غرباء. كانت هناك صحف فضائح، ومجلات محترمة لرجال الأعمال الذين لا يَراهم أحدٌ، والحق يُقال، يقرؤون سوى صحف الفضائح.

توجهت ماريا إلى المكتبة لإعادة كتاب الإدارة الزراعية. لم تفهم منه شيئاً، لكن هذا الكتاب ذكَّرها بهدفها عندما ظنت أنها فقدت السيطرة على نفسها وعلى مصيرها. كان رفيقاً صامتاً، غلافه أصفر متقشف، سلسلة من النقوش، وكان خصوصاً منارةً في الليالي الحالكة لهذه الأسابيع الأخيرة.

كانت تقول لنفسها، أفكر دوماً بمشاريع للمستقبل، وأفاجأ دوماً بالحاضر. راحت تفكر بالطريقة التي اكتشفت بها نفسَها عبر الاستقلالية، عبر اليأس والحب والألم، ثم ما لبثت أن التقت بالحب ـ وكانت تفضل لو أن الأمر يقف هنا.

أغرب ما في الأمر هو أن بعض زميلاتها في العمل، كنّ يذكرن الفضائل والنشوة التي يجدنها في النوم مع رجال معينين،

أما هي فلم يقدم لها الجنسُ شيئاً جيداً كان أم سيئاً. لم تَحلَّ مشكلتها: كانت عاجزة عن الوصول إلى النشوة أثناء الإيلاج، ولقد ابتذلَت الفعلَ الجنسي إلى درجة أنها قد لا تستطيع أبداً، في «عناقِ اللقاء» ـ حسب تعبير رالف هارت ـ اختبارَ النار والفرح اللذيْن تبحث عنهما فيه.

أو ربما (يحدث أن تُفكِّر بذلك من وقت لآخر) من المستحيل الحصول على المتعة في الفراش دون حب، مثلما تؤكد الأمهات والآباء، والأدب الرومانسي.

كانت أمينة المكتبة (صديقتها الوحيدة وإن لم تقل لها ذلك أبداً)، الجادّة في الأحوال العادية، بمزاج جيد. استقبلتها في ساعة الغداء ودعتها لمشاركتها شطيرتها؛ شكرتها ماريا قائلةً بأنها قد تناولت غداءها للتو.

«أَخذ منك وقتاً طويلاً لقراءته.

ـ لم أفهم منه شيئاً.

ـ هل تذكرين ما طلبتِه مني مرةً؟».

لا، لم تكن تذكر، لكنها عندما رأت الابتسامة الماكرة على وجه المرأة، فهمت: الجنس.

«منذ أن جئتِ تبحثين عن هذا الموضوع هنا طلبتُ كشفاً بكل ما لدينا. لم يكن هناك الكثير، وبما أن علينا تثقيف الشباب طلبتُ بعض المؤلفات، وبهذا لن يحتاجوا للاستعلام بأسوأ الطرق ـ مع مومسات مثلاً».

أشارت أمينة المكتبة إلى كومةِ كتبٍ في ركن، جميعها مجلَّدة بعناية بورق بني.

«لم يُتح لي الوقت لتصنيفها بعد، لكني ألقيت نظرةً وهالَني ما اكتشفته».

كان بوسع ماريا المراهنة على ما ستقوله: أوضاع غير مريحة، سادومازوخية، إلخ. كان من الأفضل الادّعاء بأنه وقت العودة إلى العمل (لم تعد تذكر هل قالت بأنها تعمل مستخدَمة في مصرف أم في محل تجاري ـ الكذب يتطلب من الذاكرة جهوداً كبيرة).

شكرت أمينةَ المكتبة، وأشارت بأنها ستنصرف، لكن الأخرى صرّحت: «أنتِ أيضاً ستشعرين بالفظاعة. مثلاً، هل كنتِ تعرفين أن البظرَ اختراعٌ معاصر؟».

اختراع؟ معاصر؟ هذا الأسبوع بالذات، لمسَ رجلٌ بظرَها الذي بدا أنه هناك دوماً، ورغم الظلام التام كانت يداه تعرفان غيباً المكان الذي تستطلعانه.

«أُقِرَّ وجودُه رسمياً عام 1559، بعد أن نَشر طبيبٌ يدعى ريالدو كولومبو كتاباً بعنوان *دي ري التشريح*. وصفَهُ كولومبو في كتابه كـ «شيء جميل ومفيد»، هل تعتقدين ذلك؟».

وضحكَتا.

«بعد عامين من ذلك، عام 1561، أكد طبيب آخر يُدعى غابرييل فالوبيو أن «الاكتشاف» يرجع إليه. رجُلان ـ إيطاليّان طبعاً، متفقان بشأن الموضوع ـ يتجادلان لمعرفة مَن منهما أدخَل البظَرَ رسمياً في تاريخ العالم!».

مهما بدت تلك المحادثة مهمةً لماريا، لم تشأ التفكير فيها ـ شعرت من جديد بالبلل في عضوها، لمجردِ تذَكُّر المداعبة، وعصبة العينين، واليدين اللتين تتنزهان فوق جسدها. لا، لم تمُتْ

من أجل الجنس. لقد حرَّرها هذا الرجل بطريقةٍ ما. كم هو جيد أنها ما تزال تحيا!

لكن أمينة المكتبة تحمّست: «ظلوا يحتقرونه حتى بعد ذلك» ـ بدت كأنها أصبحت خبيرة بالموضوع. «وأفعال البتْر التي يحكى عنها في أيامنا في الصحف، التي تَنتَزع فيها بعضُ القبائل الأفريقية من المرأة حقَّها في المتعة، ليست أمراً جديداً على الإطلاق. هنا في أوروبا بالذات، وفي القرن التاسع، كان الناس يمارسون ختان المرأة، مقتنعين بأن مصدر الهستيريا والصرع والنزوع إلى الزنى والعقم يكمن في هذا الجزء التافه من جسد المرأة».

مدت ماريا يدها لتستأذن، لكن أمينة المكتبة لم تُبدِ أي سأم.

«الأسوأ هو أن عزيزَنا فرويد، الذي أسس التحليل النفسي، قد أكد أن النشوة لدى امرأةٍ عادية التكوين يفترض أن تنتقل من البظر إلى المهبل. وطوَّرَ أكثرُ تلامذته إخلاصاً هذه الفرضية، ثم زعموا أن تركيز المتعة الجنسية في البظر هو دليل عدم نضج، أو، وذلك أخطر، دليل ثنائية جنسية.

«ومع ذلك، ونحن النساء جميعاً نعرف ذلك: من الصعب جداً الانتشاء بفضلِ الإيلاجِ فقط. شيء لذيذ للمرأة أن يدخلها رجل، لكن المتعة هي في تلك الحَبّة التي اكتشفَها شخص إيطالي!».

عرفتْ ماريا أنها مصابة بالقصور الذي شخَّصَه فرويد: إذ لم تنتقل طاقتها الجنسية من البظر إلى المهبل. أم أن فرويد هو الذي أخطأ؟

«وما رأيك بالنقطة G؟

ـ هل تعرفين أين تقع؟».

احمرَّت المرأة، تنحنحت، لكنها تجاسرت وأجابت: «لدى الدخول، في الطابق الأول، النافذة التي في صدر المكان».

مقارنة المهبل بمبنى شيء عبقري! كأنك أمام أحد كتب التربية الجنسية تلك الموجهة للفتيات، والممتلئة بصورٍ تمثل مجهولاً يطرق الباب، وهو على وشك أن يجعلهن يكتشفن عالماً في جسدهنّ ذاته. كلما داعبت ماريا نفسها كانت تفضّل النقطة G الشهيرة تلك من البظر، التي تسبِّب لها نوعاً من البلبلة ومتعةً ممزوجة بالقلق، فكانت تذهب في الحال دوماً إلى الطابق الأول، النافذة التي في الصدر!

ولما وجدت ماريا أن أمينة المكتبة لا ينضب لها معين ـ ربما وجدت فيها شريكةً في طاقتها الجنسية المفقودة ـ أشارت لها باليد وخرجت.

لم تعد ترغب بالعودة إلى الـ كوباكابانا. كانت تشعر مع ذلك شعوراً مشوشاً بواجبِ إتمامِ عملها، دون أن تفهم لماذا ـ لقد ادّخرت أساساً بما فيه الكفاية. تستطيع أن تتسوق عصر هذا اليوم، وتذهب إلى زبونٍ يعمل مدير مصرفٍ وعَدَ بنُصْحِها في موضوع مدّخراتها، تتناول قهوة، وترسل بالبريد بعضَ الحاجيات التي لا تَصمد في الحقائب. الغريب أنها كانت تشعر على نحوٍ غامض بالحزن؛ ربما لأنه بقي لها أسبوعان في أوروبا. عليها أن تمضي الوقت، وتنظر إلى المدينة بعينين جديدتين، وتبتهج لأنها عاشت هذا كله.

وصلت إلى منعطفٍ اجتازتهُ مئات المرات، يمتد المنظر منه إلى البحيرة ونافورة الماء، وفي وسط المتنزه تماماً في الناحية

الثانية للطريق المعبَّد حديقة الأزهار التي تَرسم ساعةً فخمة هي أحد رموز جنيف، والتي كانت تمنعها من الكذب...

فجأةً توقف الزمنُ والعالمُ. ما معنى قصة العذرية المستعادة التي تفكر بها منذ يقظتها؟

بدت الحياة جامدة، تلك الثانية لا تنقضي. وجدت ماريا نفسها أمام شيء خطير جداً وجوهري لا يحق لها نسيانه، لم يكن بمقدورها أن تفعل ما تفعله بأحلامها الليلية التي عاهدت نفسها دوماً على تدوينها، ولا تتذكرها أبداً...

«لا تفكّري بشيء. لقد توقف العالم. ما الذي يجري؟».

كفى!

العصفور. هل تنطبق قصة العصفور التي كتبَتْها منذ قليل على رالف هارت؟ لا، بل تنطبق عليها نفسها! نقطة، انتهى!

كانت الساعة هي الحادية عشرة صباحاً، وتنتهي قصتها في هذه اللحظة. اكتشفت ماريا، الغريبةُ عن نفسها بالذات، أن عذريتَها جديدة تماماً، لكن ولادتها الثانية كانت هشةً إلى درجة أنها إذا اكتفت بذلك ستضيع إلى الأبد. ربما عرفت النعيم، أما الجحيم فهذا مؤكد. لكن المغامرة كانت تقترب من نهايتها. من المستحيل الانتظار أسبوعين، عشرة أيام، أسبوعاً واحداً. كان يجب أن تمضي مسرعةً، لأنها وهي تنظر إلى تلك الساعة المزهرة والسياح الذين يلتقطون الصور، والأطفال الذين يلعبون حولها، اكتشفت سبب حزنها. والسبب هو التالي: إنها لا تريد العودة.

لم يكن الدافع رالف هارت ولا سويسرا ولا المغامرة. الدافع الحقيقي هو ببساطة: النقود.

النقود! قطعة ورق صغيرة من نوع خاص بألوان مقتضبة، يقول الجميع بأنها ذات قيمة ـ كانت تؤمن بذلك، والجميع يؤمنون. حتى تأتي لحظة ربما تتجه فيها حاملة جبلاً من الأوراق إلى مصرفٍ محترم وتقليدي، مصرف سويسري شديد السرّية، وتسأل: «هل يمكنني الحصول على بضع ساعاتٍ من حياتي؟» «لا يا سيدتي، نحن لا نبيع؛ نشتري فقط».

خرجت ماريا من هذيانها بصوت مكابح سيارة، واحتجاجاتِ سائقها، وعجوز مبتسم يطلب منها بالإنجليزية أن تتراجع ـ فإشارة المشاة كانت حمراء.

«أظن أني اكتشفتُ للتو شيئاً يجب أن يعرفه الجميع».

لكن أحداً لم يكن يعرف. نظرت من حولها: كان المارة يتقدمون مطأطئي الرؤوس، راكضين للوصول إلى العمل، إلى المدرسة، إلى وكالة تشغيل، إلى شارع برن، قائلين دوماً: «أستطيع الانتظار قليلاً أيضاً. ليس ضرورياً أن أعيش حلمي اليوم، لأن عليّ أن أكسب المال». بالطبع كانت مهنتها ملعونة، لكن الأمر في الحقيقة هو أنها تبيع وقتَها مثل الجميع. تفعل أشياء لا تحبها مثل الجميع، تتعامل مع أناس غير محتَمَلين مثل الجميع. تسلِّم جسدها الثمين وروحها الثمينة باسمِ مستقبلٍ لا يأتي أبداً مثل الجميع. تدّعي بأنها لم تجمع بعد ما فيه الكفاية مثل الجميع. تصبر قليلاً فقط مثل الجميع. تنتظر أن تكسب أكثر قليلاً، تؤجل تحقيق رغباتها إلى وقت لاحق ـ إنها حالياً مشغولة جداً. هناك من ينتظرها، زبائن باستطاعتهم أن يدفعوا في الليلة من ثلاثمئة وخمسين إلى ألف فرنك سويسري.

للمرة الأولى في حياتها، ورغم كل ما تستطيع شراءه بالمال الذي تكسبه بهذه الطريقة ـ من يدري، ربما عام آخر أيضاً؟ ـ قررت ماريا أن تدع فرصةً تفوت.

انتظرت أن يؤذن للمشاة بالمرور، عبرت الشارع، توقفت أمام الساعة المزهرة، فكرت برالف، شعرت أيضاً بنظرةِ الرغبة في عينه، في الأمسية التي عرت فيها صدرها، شعرت بيديه تلمس نهديها، عضوها، وجهها، وجهت نظرها نحو نافورة الماء الهائلة بعيداً، ودون حاجةٍ لملامسةِ جزءٍ واحد من جسدها ـ وصلت إلى نشوةٍ، هناك، أمام الجميع.

لم يلاحظ أحد ذلك: كان الجميع مشغولين، مشغولين جداً.

بالكاد دخلت حتى نادتها نياه، الوحيدة بين زميلات ماريا التي كانت لها معها علاقة يمكن وصفها بالودّية. كانت تجلس مع رجل شرقي، وكانا يضحكان.

«انظري إلى هذا! قالت. انظري ماذا يريدني أن أفعل معه!».

بنظرةٍ تواطؤ وابتسامة عريضة على الشفتين رفع الشرقي غطاءَ نوعٍ من صندوق سجائر. نظرت ماريا من بعيد داخل الصندوق لكي ترى إذا لم يكن الأمر يتعلق بحقنٍ أو مخدرات. لا، كان أداةً لا يعرف الرجل نفسه كيف تعمل.

«كأنها أداة من القرن الماضي! قالت ماريا.

- إنها أداة من القرن الماضي، أقرّ الشرقي مستنكِراً الجهل الذي يشي به هذا التعليق. تعود إلى أكثر من مئة عام وكلّفَتْني ثروة».

كانت جمعاً لصمّامات ومقبض ودارات كهربائية ووصلات معدنية صغيرة وبطاريات، شبيهاً بقلبِ راديو قديم، مع سِلْكَيْن رُبطَت نهاية كل منهما بقضيب زجاجي بحجم إصبع. لا شيء مما يمكن أن يكلف ثروة.

«كيف تعمل؟».

لم تثمّن نياه سؤالَ ماريا. مع أنها تثق بالبرازيلية، لكن الناس يتغيرون في لحظة، وربما تفكر هذه بمشروع مع زبونها.

«لقد شرح لي. إنه القضيب البنفسجي».

ثم اقترحتْ، ملتفتةً نحو الشرقي، أن يخرجا لأنها قررت قبول دعوته. لكن الرجل بدا متحمساً للاهتمام الذي تثيره لعبتُهُ.

«نحو عام 1900، عندما بدأت أولى البطاريات بالانتشار في السوق، زادَ الطبُّ التقليدي عددَ التجارب التي تستخدِم الكهرباء، لمعرفة ما إذا كانت تعالج الأمراض العقلية أو الهستيريا. واستُخدمت الكهرباء أيضاً لمكافحة حَب الشباب وإثارة حيوية البشرة. هل ترين هاتين النهايتين؟ كانتا توضعان هنا ـ وأشار إلى صدغيه ـ فتُحدث البطاريةُ تفريغاً سكونياً مثل ذاك الذي نشعر به عندما يكون الهواءِ شديد الجفاف».

إنها ظاهرة غير موجودة في البرازيل، لكنها شديدة الانتشار في سويسرا. اكتشفتها ماريا ذات يومٍ سمعت فيه فرقعةً، وهي تفتح باب سيارة أجرة، وشعرت بصدمة. احتجّتْ، ظانّةً بوجود مشكلة في السيارة، قائلةً بأنها لن تدفع أجر الطريق، فتَهَجَّمَ السائقُ تقريباً عليها ناعِتاً إياها بالجهل. كان على حق، ليست السيارة، بل الهواء الشديد الجفاف. بعد عدة حوادث من هذا النوع باتت تخشى ملامسة الأدوات المعدنية إلى يوم اكتشفت فيه، في سوبر ماركت، سواراً له ميزة تخفيف الشحنة الكهربائية في الجسم.

التفتت نحو الشرقي: «لكن هذا مزعج إلى أقصى حد!».

أبقتْ نياه، وقد ازداد تبَرُّمُها من تعليقات ماريا، ذراعَها حول كتفي الرجل بطريقةٍ تَمَلُّكية مُعلَنَة.

«تبعاً للمكان الذي تضعينه فيه»، قال الشرقي ضاحكاً.

حرّك المقبض الصغير فاصطبغ القضيبان بلون بنفسجي. بحركةٍ سريعة ضغَطَهما بملامسةِ المرأتين؛ فحدثت فرقعةٌ لكن الصدمة كانت أشبه بالحكّة منها بالألم.

اقترب ميلان: «لا أشياءَ من هذا النوع هنا، من فضلكم».

أعاد الرجل القضيبين إلى العلبة. انتهزت الفيليبينية الفرصة واقترحت عليه الذهاب حالاً إلى الفندق. بدا الشرقي خائباً قليلاً، فالقادمةُ الجديدة اهتمت بالقضيب البنفسجي أكثر كثيراً من المرأة التي تدعوه الآن للخروج. إلا أنه لبس سترته، وضع العلبة في حامل وثائق جلدي وأعلن: «يُصنع منها أشكال جديدة هذه الأيام. لقد باتت موضة عند الناس الباحثين عن متع خاصة، لكن النموذج الذي رأيته فريد تقريباً من نوعه، ولا نجده إلا في مجموعات طبية نادرة، في المتاحف، أو عند تجار العاديات».

لبث ميلان وماريا بلا حراك، لا يعرفان ماذا يقولان.

«هل رأيتَ مثله؟

- مثل هذا لا. لا بدّ أن هذا النموذج قد كلف ثروة صغيرة بالفعل. فهذا الرجل هو أحد الكوادر العليا في شركة بترول. لكني رأيت نماذج أخرى أكثر حداثة.

- وكيف يستخدمونه؟

- يضعه الناس فوق أجسادهم...ويطلبون من المرأة تحريك المقبض. فيتلقّون الصدمة في الداخل.

- ألا يمكنهم القيام بذلك بمفردهم؟

- في موضوع الجنس، يستطيع الناس القيام بأي شيء بمفردهم. لكن من الأفضل أن يظلوا يجدون متعةً أكبر برفقةِ أحد وإلاّ سارعَ ملهاي إلى الإفلاس، وعملِتِ عند بائع خضار. بالمناسبة، زبونكِ الخاص أخبَرَ بأنه سيأتي هذا المساء؛ ارفضي كل دعوة أخرى أرجوكِ.

- سأرفض كل دعوة، بما فيها دعوتَهُ. جئتُ أودّعكم. أنا مسافرة».

لم يبدُ أن ميلان قد استوعب ما سمع.

«الرسام؟

ـ لا، الـ كوباكابانا. هناك حدّ ـ ولقد بلغتُهُ هذا الصباح، أمام الساعة المزهرة قرب البحيرة.

ـ وما هو هذا الحد؟

ـ ثمن مزرعة في البرازيل. أعرف أن بوسعي أن أكسب المزيد، أن أعمل سنة إضافية. ما الذي سيختلف؟ أليس هذا صحيحاً؟ حسناً إني أعرف ما الذي سيختلف: سأبقى إلى الأبد داخل هذا الفخ، مثلكَ، مثل الزبائن، والكوادر، وأمناء الحسابات على السُفُن، وصيّادي الرؤوس، ومديري دور الأسطوانات، وجميع من عرفتُهم من الرجال الذين بعتُهُم جسدي والذين لا يستطيعون إعادته إليّ. إذا بقيتُ يوماً آخر بقيتُ عاماً آخر، وسأغلَق إلى الأبد».

أشار ميلان بموافقة متكتّمة، كما لو أنه يفهم ويؤيّد الكلام مع أنه لم يستطع أن يقول شيئاً ـ إذ يُخشى أن تنقل ماريا العدوى إلى جميع الفتيات العاملات لديه. لكنه رجل طيب، وحتى إن لم يَمنح البرازيليةَ برَكَته لم يفعل شيئاً لإقناعها بأنها ترتكب خطأً.

طلبت مشروباً ـ كأس شمبانيا، لم تعد تحتمل كوكتيل الفاكهة. تستطيع الآن أن تشرب الكحول، فهي ليست في الخدمة. قال لها ميلان بأنها تستطيع الاتصال به إذا احتاجت إلى أي شيء، وستلقى الترحيب دوماً.

أرادت أن تدفع ثمن كأس مشروبها فأجاب بأنه من الدار. قَبلتْ: لقد أعطتْ لهذه الدار أكثر بكثير من ثمن مشروب.

من يوميات ماريا العائدة إلى بلدها:

لم أعد أذكر متى، لكنني قررتُ ذاتَ يومِ أحدٍ دخول كنيسةٍ لحضور القداس. تبيَّنَ لي بعد انتظارٍ طويل أنّي لستُ في المكان الصحيح: كان ذلك معبداً بروتستانتياً.

كنتُ سأخرج عندما بدأ القسّ عظته. فكرت أنه سيكون من الفظاظة أن أنهض - وكان ذلك بركةً، لأني سمعتُ في ذلك اليوم أشياء كنتُ بأمسّ الحاجة لسماعها.

«يوجد المَثَل نفسه في جميع لغات العالم: البعيدُ عن العين، بعيدٌ عن القلب. أؤكد أنه لا يوجد ما هو أكثر خطأً من ذلك؛ فكلما ابتعدنا أكثر أصبحتْ العواطفُ التي نحاول خنقَها ونسيانها أقرب إلى القلب. إذا كنا في المنفى أردنا الاحتفاظ بأدنى ذكرى عن جذورنا، وإذا كنا بعيدين عمَّن نحب كل شخص يمر في الشارع يذكّرنا به.

«الأناجيل والكتب المقدسة لجميع الأديان كُتبت في المنفى، في محاولة لفهم الإله، لفهم الإيمان الذي يدفع الشعوب إلى الأمام، وفهمِ حَجِّ الأرواحِ المتنقلَة من مكان إلى مكان على سطح الأرض. لم يكن أجدادنا يعرفون، ونحن أيضاً لا نعرف ما الذي تنتظره الآلهةُ من حياة كل منا. عند ذلك بالضبط أُلِّفت الكتب، رُسمت اللوحات، لأننا لا نريد ولا نستطيع أن ننسى من نكون».

في نهاية الشعائر ذهبتُ إليه وعبرتُ له عن امتناني: قلتُ له بأني غريبة في بلدٍ غريب، وشكرتُهُ لأنه ذكّرني بأنّ ما لا تراه العين يشعر به القلب. ولأني شعرت بكل تلك المشاعر أنا اليوم ذاهبة.

أمسكت ماريا بالحقيبتين ووضعتهما فوق السرير. تخيلتْ أنها ستملؤهما بالهدايا، بالملابس الجديدة، بصور لمناظر ثلجية وللعواصم الأوروبية الكبرى، لذكرياتِ زمنٍ سعيد عاشته في البلد الأكثر أماناً وكرماً في العالم. صحيح أنه كان لديها بعض الملابس الجديدة وبعض صور الثلج الذي هطل مرةً فوق جنيف، لكن عدا ذلك لم يجرِ شيءٌ كما تخيلته.

جاءت إلى هنا وهي تحلم أن تكسب المال الكثير، تتعلم الحياة وتكتشف نفسها، تعثر على زوج وتأتي بعائلتها لتريها أين كانت تسكن. إنها راجعة إلى بلدها ومعها بالضبط المبلغ اللازم لتحقيق حلمها، دون زيارة الجبال، و ـ وهذا هو الأسوأ ـ غريبة عن نفسها. لكنها كانت مسرورة، وتعرف أن لحظة التوقف قد حانت.

قليل من الناس يعترفون بهذه اللحظة.

عرفت أربع مغامراتٍ فقط ـ عملت راقصة في كباريه، تعلمت الفرنسية، عملت مومساً، وأحبت رجلاً بشغف. كم شخص يستطيع التباهي بهذا القدر من الانفعالات خلال عام؟ كانت سعيدة رغم حزنها وهذا الحزن له اسم: ليس بغاء، وليس سويسرا، وليس نقوداً، بل رالف هارت. ورغم عدم اعترافها بذلك في أعماق قلبها كانت تتمنى الزواج منه، هو الذي ينتظرها الآن داخل كنيسة، متهيئاً لكي يُريها رسومه، ويعرّفها على أصدقائه ووسطه.

حسبت أنها لن تذهب إلى الموعد، بل ستنزل في فندق قرب المطار، لأن طائرتها تُقلع صباح غدٍ: وكل دقيقة تمضيها بجانبه اعتباراً من الآن ستكون عاماً قادماً من العذاب، بسبب كل ما كان يمكن أن تقوله ولم تقله، بسبب ذكرى يده، صوته، قصصه، والطريقة التي ساندها بها.

فتحت الحقيبة من جديد، أخرجت المقطورة الكهربائية التي أهداها إياها في أول أمسيةٍ في بيته. تأملتها بضع دقائق قبل أن تلقي بها في سلة المهملات. لا يستحق هذا القطار أن يتعرف على البرازيل، فقد كان ظالماً وبلا فائدة للطفل الذي اشتهاه دوماً.

لا، لن تذهب إلى الكنيسة. قد يطرح عليها أسئلة، وإذا أجابته بالحقيقة - «أنا راحلة» - ، سيطلب منها البقاء، ويعِدُها بأي شيء لكي لا يفقدها، ويعلن حبَّهُ لها بينما كان قد برهن لها عنه في كل دقيقةٍ أمضياها معاً. لكنهما اعتادا على عِشرة فيها حرية كاملة، ولن تنجح أية علاقة أخرى - ربما كان ذلك هو السبب الوحيد الذي جعلهما يتحابّان، لأنهما يعرفان أن أحدهما لا يحتاج إلى الآخر. الرجل يخاف دوماً عندما تقول له امرأةٌ: «أريد أن أكون تابعة لك»، وتمنَّتْ ماريا لو تَحمل معها صورةً رالف هارت العاشق، الذي هو ملْكُها تماماً، المستعد لأي شيء من أجلها.

ما زال لديها وقت لتقرِّر إن كانتْ ستذهب إلى الموعد أم لا. عليها في الوقت الحالي التركيز على أشياء أكثر عملية. شاهدت كل الأشياء التي ما تزال خارج الحقائب، ولا تعرف أين تضعها. عندما سيعثر مالكُ الشقة على الأدواتِ المنزلية الكهربائية، واللوحات التي اشترتها من سوق الأشياء الرخيصة، والمناشِف والشراشف، سيقرِّر التصرف بها كما يشاء. من المستحيل حمل ذلك كله إلى البرازيل، رغم كون أهلها أكثر حاجة إليها من أول متسولٍ

سويسريٌّ قادم: ستنكّرها هذه الأغراض إلى مالا نهاية بمغامرتها.

خرجت، اتجهت إلى المصرف، وطلبت سحب كل ما أودعته من نقود. شرح لها المدير ـ الذي عاشرته معاشرةً حميمة ـ بأنها فكرة سيئة، إن هذه النقود يمكن أن تعود عليها بالمزيد، مع احتمال قبْضِ فوائدها في البرازيل. علاوة على أنها إذا سُرقت، ستكون شهوراً ضائعة من العمل! ترددت ماريا لحظة وهي تفكر، كما تفعل دوماً، بأن الرجل يريد مساعدتها حقاً. وبعد أن فكرت قليلاً توصلت إلى أن الغاية من هذه النقود هي أن تتحول إلى مزرعة وبيت لأبويها وبعض الدواب وكثير من العمل، وليس أن تبقى أوراقاً نقدية.

سحبت نقودها حتى آخر مليم، ووضعتها في حقيبة يد صغيرة اشترتها لهذا الغرض، وربطتها إلى حزامها تحت ثيابها.

اتجهت إلى وكالة السفر، داعيةً أن تتوافر لها شجاعة المضي إلى أبعد. عندما أرادت تناول بطاقة سفرها، شُرح لها بأن رحلة اليوم التالي تتوقف في باريس لتبديل الطائرة. لا يهمّ ـ الشيء الجوهري هو أن تكون بعيدة من هنا قبل أن يتاح لها التفكير بالأمر مرتين.

سارت حتى أحد الجسور، اشترت بوظة ـ مع أن الطقس بدأ يبرد من جديد ـ وتأملت جنيف. بدا لها كل شيء عندئذٍ مختلفاً، كأنها وصلت للتو وتستعد لاكتشاف المتاحف والأوابد التاريخية، الحانات والمطاعم الحديثة. أمر غريب، فعندما نسكن في مدينة نؤجل استكشافها إلى وقت لاحق دوماً، ونظل عموماً نجهلها.

قالت لنفسها بأنه يُفترض أن تكون مسرورة بالعودة إلى ديارها، لكنها لا تستطيع. قالت لنفسها بأنه يُفترض أن تكون حزينةً لمغادرة مدينةٍ عاملَتْها هذه المعاملة الممتازة، ولا تستطيع

أيضاً. طفرت دمعاتٌ من عينيها، من خوفها من نفسها، فهي فتاة ذكية لديها كل ما يؤهلها للنجاح، لكنها عموماً تتخذ قرارات خاطئة.

وتمنت بحرارة ألا تكون مخطئة هذه المرة.

عندما دخلت كانت الكنيسة مقفرة تماماً، وفي الهدوء استطاعت تأمُّل الزخارف الزجاجية التي يُنيرها أَلَقُ سماءٍ نظَّفَتْها عاصفةُ الليلة الفائتة. أمامها مذبح وصليب فارغ؛ وليس أداةَ تعذيب تحمل رجلاً محتضَراً، بل رمزَ بعثٍ فقدت فيه أداةُ العقوبة كلَّ دلالتها، هولِها، وطأتِها. تذكرت السوط في ذلك المساء العاصف، إنه الشيء نفسه. «يا إلهي، ما الذي أفكر فيه؟».

سرَّها أيضاً عدم رؤية صور قديسين متألمين، بآثار دماء وجراح مفتوحة. كان ذلك فقط مكاناً يلتقي فيه الناس لعبادةِ شيءٍ يفوق إدراكهم.

توقفت عند بيت القربان حيث حُفظ جسد يسوع الذي ما تزال تؤمن به، مع أنها لم تعطِه مكاناً في تفكيرها. ركعتْ على ركبتيها، وأقسمت للرب، للعذراء، ليسوع، ولجميع القديسين، بأنها، مهما حصل خلال هذا النهار، لن تغير رأيها، وسترحل في جميع الأحوال. أعطت هذا العهد لأنها تعرف جيداً فِخاخَ الحب القادرةَ على تغيير إرادةِ امرأة.

بعد قليل أحست بيدٍ فوق كتفها، فأحنت وجهها حتى لمستها.

«كيف حالكِ؟

ـ جيدة، أجابت دون أي قلقٍ في صوتها.

ـ ممتاز. هيا نتناول قهوتنا».

خرجا يداً بيد مثل عاشقين يلتقيان بعد فراق طويل. تبادلا القبل علناً. نظر إليهما بعضُ المارة مستنكِرين هذا الفعل الفاضح. ابتسم الاثنان للضيق الذي سبَّباه وللشهوات التي أثاراها ـ إنهما يعرفان بأن هؤلاء الناس يتمنون في الحقيقة أن يفعلوا الشيء نفسه، وليست الفضيحةُ شيئاً غير ذلك بالضبط.

دخلا مقهىً يشبه كل المقاهي الأخرى، لكنه كان عصر هذا اليوم مختلفاً لأنهما دخلا إليه ولأنهما متحابان. تكلما عن جنيف، عن صعوبات اللغة الفرنسية، والزخارف الزجاجية في الكنيسة، وأضرار التبغ ـ كلاهما يدخنان، ولا ينويان التخلي أبداً عن هذا العيب.

أصرت أن تدفع الحساب وقبِلَ. اتجها إلى المعرض. اكتشفتْ وسطَهُ، الفنانين، والأثرياء الذين يبدون أشد ثراءً، وأصحابَ الملايين الذين يَبدون فقراء، والجمهور الذي يطرح أسئلةً حول أشياء لم تسمع بها قط. ثمَّنَ الجميعُ حضورَها، أعجِبوا بلغتها الفرنسية، سألوها عن الكرنفال، كرة القدم، وموسيقى بلدها. إنهم مثقفون جيداً، لطفاء، محبَّبون، وجذابون.

عندما خرجوا قال لها بأنه سيذهب هذا المساء لرؤيتها في الـ كوباكابانا. رجتْهُ ألاّ يفعل فهي ليست مرتبطة مساءً، وتحب أن تدعوه للعشاء.

قبِلَ. قبل أن يفترقا تواعَدا للعشاء في مطعم لطيف في ساحة كولونيي الصغيرة.

عندها تذكرت ماريا صديقتها الوحيدة وقررت زيارة أمينة المكتبة كي تعلن لها بأنها لن تعود ثانيةً.

بقيت دهراً أسيرة الزحام إلى أن أنهى الأكراد (من جديد!)

مظاهرتهم، وانتظم سير السيارات. لكن، وبعد أن باتت سيدةَ وقتِها، لم يعد للأمر أهمية.

عندما وصلت كانت المكتبة على وشك الإغلاق.

«ربما أُظهِر أكثر مما يجب من عدم الكلفة، لكن ليس لدي أية صديقة أثق بها»، قالت أمينةُ المكتبة حالَ دخولِ ماريا.

هذه المرأة ليس لديها صديقة؟ فبعد أن أمضت كل حياتها في المكان نفسه، والتقت بكم من الناس طوال النهار، ليس لديها شخص تتناقش معه؟ اكتشفت ماريا أخيراً شخصاً مثلها ـ أو بالأحرى، مثل الجميع.

«فكرتُ مجدداً بما قرأتُه عن البظر...

ـ لا! ألا يمكن الكلام عن شيء آخر؟

ـ لاحظتُ أنني، حتى لو كنتُ أشعر دوماً بكثير من المتعة في كل علاقة مع زوجي، أجد صعوبة في الوصول إلى نشوة أثناء العلاقة. هل تجدين الأمر عادياً؟

ـ هل تجدين عادياً أن يتظاهر الأكراد كل يوم؟ أن تهرب النساء العاشقات من فتى أحلامهن؟ أن يحلم الناس بالحصول على استثمار زراعي بدلاً من التفكير بالحب؟ أن يبيع رجالٌ ونساءٌ وقتَهم دون أن يستطيعوا شراءه بالمقابل؟ ومع ذلك، فذلك كله موجود. لا يهمّ ما أفكر به إذن، هذا عادي على أية حال. كل ما يمضي عكس الطبيعة، عكس أكثرِ رغباتنا حميميةً، عادي في نظرنا، حتى لو بدا ذلك شاذاً في نظر الإله. لقد بحثنا عن جحيمنا، أمضينا آلاف السنين في بنائه، وبعد جهود كثيرة بإمكاننا الآن أن نعيش بأسوأ طريقة ممكنة».

نظرت ماريا إلى أمينة المكتبة، وللمرة الأولى سألتها عن اسمها الأول (لم تكن تعرف سوى اسمها بالزواج). كانت تدعى

هايدي، وقد مضت ثلاثون سنة على زواجها، ولم تتساءل أبداً ـ أبداً! ـ إذا كان عادياً عدم حصولها على نشوة أثناء علاقاتها الجنسية مع زوجها.

«لا أدري إذا كان يفترض بي قراءة ذلك كله! ربما كان الأفضل العيش في الجهل، مع فكرةِ أن الحصول على زوج مخلص وشقة مطلة على البحيرة والعمل في وظيفة، هو كل ما يمكن أن تحلم به امرأة. منذ قدومك إلى هنا وبدء قراءاتي هذه أصبحتُ قلقة جداً بشأن ما فعلته بحياتي. هل الجميع هكذا؟

ـ أستطيع أن أؤكد لك أن الجميع هكذا»، وشعرت ماريا بامتلائها بالخبرة أمام هذه المرأة التي تطلب نصحها.

«هل تريدين أن أدخل في التفاصيل؟».

هزت ماريا رأسها موافقةً.

«أنت طبعاً صغيرة جداً على فهم هذه الأشياء، لكن لهذا السبب تحديداً أود أن أسرّ لك بقصتي كي لا تقعي في أخطائي.

«لماذا لم يهتم زوجي أبداً ببظري؟ كان يظن أن النشوة تحدث في المهبل، وكنت أجد صعوبة، صعوبة كبيرة في التظاهر بانفعالٍ يُفتَرَض أني، حسب زعمه، شعرتُ به. بالطبع كنت أجد متعة، لكنها متعة مختلفة. وفقط عندما يكون الاحتكاك في الجزء العلوي... هل تفهمين؟

ـ أفهم.

ـ الآن أفهم لماذا. إنه هناك»، قالت وهي تشير إلى كتاب فوق الطاولة لم تستطع ماريا قراءة عنوانه. «هناك شبكة من الأعصاب التي تمتد من البظر إلى النقطة G، التي هي نقطة أساسية. لكن الرجال يظنون أن كل شيء يكمن في الإيلاج. هل تعرفين ما هي النقطة G؟

- تكلمنا عنها في المرة الماضية»، قالت ماريا، الفتاة الصغيرة الساذجة هذه المرة. «عند الدخول في الطابق الأول، النافذة التي في الصدر.

- طبعاً، طبعاً!» برقت عينا أمينة المكتبة. «تأكدي بنفسك من عدد أصدقائك الذين سمعوا عن ذلك: لا أحد! شيء غير مفهوم! ولكن، مثلما أن البظر اختراع لذلك الإيطالي، فإن النقطة G فتحٌ تمّ في عصرنا. وقريباً سيتحدثون عنه في كل عناوين الصحف، ولن يعود بوسع أحد تجاهل دوره. هل تتخيلين أي عصر ثوري نعيش؟»

نظرت ماريا إلى ساعتها، وانتبهت هايدي إلى أن عليها الإسراع في إخبار هذه الفتاة الجميلة بأن للنساء كامل الحق في السعادة والتفتُّح، إذا أرادت أن يستفيد الجيل القادم من هذا الإنجاز العلمي الخارق.

«كان الدكتور فرويد يظن أن متعتنا تكمن حتماً في المهبل، مثلما تكمن متعة الرجل في القضيب. والحقّ أنه يجب العودة إلى النبع، إلى ما منحنا المتعةَ دوماً: البظر والنقطة G! قليل جداً من النساء يوفَّقن في علاقة جنسية مُرضية، لذا سأعطيك فكرة: اقلبي الوضع. دعي صديقك يتمدد وابقَيْ فوقه؛ سيحتكُّ بظرُك بقضيبه، وتحصلين على الإثارة التي تحتاجينها. أو بالأحرى: الإثارة التي تستحقينها!».

لكن ماريا تظاهرت بعدم الاهتمام بالمحادثة. فهكذا لا تكون معنية! المسألة كلها مسألة تشريح! شعرت برغبة في تقبيل أمينة المكتبة، فيما كان قلبها يتحرر من عبء هائل. كم كان من الجيد إجراء هذه المحادثة وهي ما تزال شابة! يا له من يوم رائع تعيشه!

ارتسمت ابتسامةُ تآمُرٍ على وجه هايدي.

«إنهم لا يعرفون ذلك، لكننا نحن أيضاً يحدث لدينا انتصاب!».

«إنهم» المقصود بهم الرجال حتماً. تجاسرت ماريا بما أن الحديث كان حميمياً جداً: «هل سبق أن نمتِ مع أحد خارج الزواج؟»

تلقت أمينة المكتبة صدمة. بثت عيناها نوعاً من نار مقدسة، وأصبح لون بشرتها قرمزياً. يستحيل معرفة إذا كان ذلك من الغضب أم من الخجل. وبعد مضي لحظة انتهى الصراع بين الحاجة إلى الكلام والحاجة إلى التظاهر بالاستنكار. فغيرت الموضوع.

«لنعُد إلى انتصابنا: البظر! إنه يصبح قاسياً، هل تعرفين ذلك؟

ـ منذ الطفولة».

بدت هايدي خائبةً. لكنها استأنفت:

«ويبدو أنك إذا داعبتِ نفسك حوله، دون حتى أن تلمسي الرأس، فإن المتعة قد تبرز بشكل أشدّ. سيُسارع بعض الرجال ويلمسون رأس البظر، دون أن يعرفوا بأن ذلك قد يكون مؤلماً أحياناً، ألا توافقين؟ ثم إن محادثة صريحة مع شريكك شيء مفيد دوماً، وفق الكتاب الذي أنا بصدد قراءته.

ـ هل فتحتِ حديثاً صريحاً مع زوجك؟».

من جديد تجنبت السؤال، بحجة أنه كان عصراً آخر. ما يهمها الآن هو المشاركة في تجاربه الفكرية.

نظرت ماريا إلى ساعتها أيضاً، وشرحت بأنها جاءت فقط لكي تودّعها، لأن دورتها التدريبية قد انتهت. بدا أن أمينة المكتبة لم تسمعها.

«ألا تريدين أخذ هذا الكتاب عن البظر؟

ـ لا، شكراً.

ـ ولا تريدين أخذ شيء آخر؟

ـ لا، أنا راجعة إلى بلدي، لكني أريد أن أشكرك لأنكِ عاملتِني دوماً باحترامٍ وتفهُّم. إلى اللقاء».

تصافحتا وتمنت كل منهما للأخرى الكثير من السعادة.

انتظرت أمينة المكتبة خروج الفتاة، ثم وكان الأمر أقوى منها ضربت الطاولةَ بقبضتها. لماذا لم تستفِد من الفرصة؟ كون الفتاة تجرأت وسألتها إن كانت قد خانت زوجها يوماً، لماذا لم تُجِب؟

«حسناً، ليس الأمر مهماً».

العالم ليس مصنوعاً من الجنس بالتأكيد، لكنه شيء مهم. نظرت من حولها: قسمٌ كبير من آلاف الكتب المحيطة بها يتناول قصة حب. القصة نفسها دوماً ـ شخص يلتقي بشريك، يقع في الحب، يفقد الحب، لقاء جديد. قصة أرواح تتواصل، بلدان بعيدة، مغامرة، عذاب، هموم، لكن نادراً ما يوجد مَن يقول: «انتبه يا سيدي إلى فهم جسد المرأة فهماً أفضل». لماذا لا تعالج الكتب ذلك على نحو مفتوح؟

ربما لا يثير ذلك اهتمام أحد في النهاية. فالرجل يصر بعناد على البحث عن الجديد، لأنه ما زال ذلك الصيادَ ساكن الكهوف الذي يتبع غريزة التكاثُر لديه. والمرأة؟ حسب تجربة هايدي الشخصية، إن رغبتها بالحصول على المتعة مع شريكها لا تدوم إلاّ بضع سنين ثم يقلّ تواترُها. لا تتحدث أية امرأة عن ذلك، كل منهن تظن أنها الوحيدة التي تعيش هذه الحالة. وتبدأ بالكذب، وتتظاهر بأنها لم تعد تتحمل رغبة زوجها الذي يطلب ممارسة الحب كل ليلة.

لا تلبث المرأة أن تكرس نفسها لمشاغل أخرى: الأطفال، المطبخ، برنامج اليوم، المهام المنزلية، الفواتير التي يجب دفعها، التسامح مع مغامرات الزوج، السفر في العطلة التي ينشغلان فيها بالأبناء أكثر من انشغالهما بنفسيهما، والشراكة - وحتى الحب، ولكن ليس الجنس.

كان عليها أن تنفتح أكثر مع البرازيلية الشابة، الفتاة التي من الواضح أنها بريئة وفي عمر ابنتها، وما تزال عاجزة عن معرفة الحياة. مهاجرة تعيش بعيداً عن بلدها الأصلي، وتجهد نفسها في عمل دون جانبية، وتنتظر اللقاء برجلٍ يمكنها الزواج منه، تتظاهر ببعض النشوات، تجد الأمان، تسهم في التكاثر المحاط بالألغاز للجنس البشري، ولا تلبث أن تنسى تلك الأشياء التي تسمى النشوة، البظر، النقطة G؛ وتكون زوجة صالحة، أمّاً صالحة، تُعنى بألاّ ينقص البيت شيء، تستمني سراً من وقت لآخر، وهي تفكر بذاك الذي صادفته في الشارع ونظر إليها باشتهاء. الحفاظ على المظاهر؛ لماذا ينشغل العالم إلى هذا الحد بالمظاهر؟

لهذا السبب لم تجب عن سؤال: «هل سبق أن أقمتِ علاقة خارج الزواج؟».

تموت هذه الأسرار معنا، فكرتْ. لطالما كان زوجُها رجُلَ حياتِها، وإن باتَ الجنسُ جزءاً من ماضيهما البعيد. إنه شريك ممتاز، نزيه، كريم، مزاجه غير متقلب، يصارع من أجل تلبية احتياجات أسرته ويجهد لإسعادِ الأشخاص الذين يعيشون تحت حمايته. إنه الرجل المثالي الذي تحلم به جميع النساء، وهذا تحديداً ما يؤلمها من فكرةِ أنها، ذات يوم، اشتهت رجلاً آخر لحقت به.

تذكرت لقاءهما. كانت عائدة من مدينة دافوس في الجبال عندما أعاق انهيارٌ ثلجي حركة القطارات لبضع ساعات. فاتصلت

للطمأنة، واشترت بعض المجلات واستعدت لانتظارٍ طويل في المحطة.

رأت آنذاك بقربها رجلاً يحمل حقيبة ظهر وكيس نوم. شعره أشيَب، وبشرته محروقة من الشمس، والوحيد الذي لا يبدو أن غياب القطار يزعجه. على العكس تماماً راح يبتسم وينظر حوله باحثاً عن شخصٍ يتحدث معه. فتحت هايدي مجلة، ولكن ـ آه! ألغاز الحياة! ـ التقت عيناها على عجلٍ بعيني المسافر ولم تستطع الابتعاد بهما بسرعةٍ كافية لمنعه من الاقتراب.

قبل أن تتمكن من إبعاده بشكل مهذب، توجه إليها بالكلام. قال لها بأنه كاتب، وأنه حضر ندوةً هنا، وأن تأخر القطارات سيجعله يتخلف عن رحلة العودة. عندما يصلان إلى جنيف هل ستتمكن من مساعدته في العثور على فندق؟

أخذت هايدي تنظر إليه: كيف يمكن لشخصٍ ستفوته رحلته وعليه الانتظار ساعات طويلة في محطة غير مريحة، أن يكون بهذا المزاج الطيب؟

لكن الرجل أخذ يناقش كأنهما صديقان قديمان. تطرَّقَ إلى أسفارِه، إلى لغز الإبداع الأدبي، وإلى ـ وهو ما فاجأها وأرعبَها ـ النساء اللواتي أحبَّهن والتقى بهن طوال حياته. كانت هايدي تكتفي بهزِّ رأسها بـِ «نعم» وهو ماضٍ في الكلام. كان من وقت لآخر يعتذر عن زلاقة لسانه ويطلب منها أن تتكلم عن نفسها قليلاً. كل ما توافرَ لديها لتقوله كان: «أنا شخص بسيط، ليس لدي ما هو خارق».

فجأةً أحسّت برغبة ألّا يأتي القطار أبداً. كان هذا الحديث جذاباً تماماً، وبدأت تكتشف أشياء لم تدخل عالمَها إلاّ عبر المؤلفات الخيالية. ونظراً لأنها لن تراه ثانيةً، تجاسرت (لن تستطيع أن تشرح لاحقاً لماذا) وسألته عن المواضيع التي تهمها

جداً. كان زواجُ هايدي يجتاز فترة عصيبة، فزوجُها يُطالب بحضورِها، وأرادت أن تعرف ما الذي يمكن أن يسعده. زوَّدَها ببعض التعليقات الحانقة، لكنه بدا أنه قليل الإعجاب باضطراره للكلام عن الزوج.

«أنت امرأة مثيرة جداً للاهتمام»، قال، مستخدِماً جملةً لم تسمعها منذ سنين.

لم تعرف كيف تستجيب. أخذ، مدركاً اضطرابَها، يتحدث عن الصحارى والجبال والمدن المفقودة والنساء المحجبات أو عاريات الخصور، عن المحاربين والقراصنة والحكماء العجائز.

وصل القطار. جلسا جنباً إلى جنب. لم تعد الآن امرأة متزوجة تقيم في شاليه مقابل البحيرة ولديها ثلاثة أطفال يجب أن تربيهم، بل مغامِرةٌ تأتي إلى جنيف للمرة الأولى. شعرت وهي تنظر إلى الجبال والنهر بالسرور لوجودها بجانب رجلٍ يريد الفوز بها (لا يفكر الرجال بغير هذا) وراحت تبذل ما تستطيع للتأثير فيه. فكرت بجميع أولئك الذين انتابتهم الحالةُ نفسها، ولم تترك لهم أدنى فرصة؛ لقد تغيرَ العالمُ هذا الصباح، وباتت مراهِقةً في الثامنة والثلاثين من العمر، تشهَدُ مبهورةً، المحاولات التي يبذلها لإغوائها. في خريف حياتها (المبكِّر حتماً)، وفيما كانت تعتقد أنَّ لديها كل ما تتمناه ظهر هذا الرجل في المحطة، ودخل دون استئذان.

نزلا إلى جنيف. دلَّتْهُ إلى فندق (متواضع، ألَحَّ لأنه لم يتوقع قضاء يوم إضافي في هذا البلد الغالي جداً)، طلب منها مرافقته حتى غرفته للتأكد من أن كل شيء على ما يرام. كانت هايدي تعرف ماذا ينتظرها إلا أنها قبلت. أغلقا الباب، تعانقا بشغف، نزع لها ثيابها، و ـ يا إلهي! ـ كان يعرف جسد النساء نتيجة معرفته لآلام الكثيرات منهن وحرماناتهنّ.

مارسا الحب طوال العصر، ولم يتبدد السحر إلا مع هبوط الليل. عندها لفظت الجملة التي لم تشأ قولها أبداً: «يجب أن أعود. زوجي ينتظرني».

أشعل سيجارةً. لبثا بضع دقائق صامتين، ولم يقل أي منهما «وداعاً». نهضت هايدي وخرجت دون نظرة إلى الوراء، مدركةً أنها مهما قالت لن يكون هناك معنى لأية كلمة، لأية جملة.

رغم أنها لن تراه من جديد أبداً، كفَّتْ خلال بضع ساعات، عن كونها زوجة مخلصة، ربة بيت، أماً رؤوماً، موظفة نموذجية، وفية في صداقاتها، لكي تعود من جديد امرأةً.

في بضعة أيام نَوَّهَ لها زوجُها بأنها قد تغيرت، بأنها باتت أكثر سعادة أو حزناً ـ ما كان ليستطيع أبداً وصفَ حالتها. بعد أسبوع عادت الأمور إلى سابق عهدها.

«خسارة أني لم أروِ ذلك للفتاة، فكرتْ أمينةُ المكتبة. على أية حال ما كانت لتفهم شيئاً، لأنها ما تزال تعيش في عالم الناس المخلصين وعهود الحب الأبدي».

من يوميات ماريا:

لا أعرف ماذا فكّرَ عندما فتحَ الباب ذلك المساء ورآني أحمل حقيبتين.

«لا تقلق، قلتُ في الحال. لستُ مستقرة هنا. هيا نتناول العشاء».

ساعدني، دون كلمة، على إدخال حقيبتيّ. بعدها، وقبلَ حتى أن يقول «ما هذا؟» أو «سعيدٌ بوجودكِ هنا»، أمسك بي ببساطة وراحَ يقبّلني، يلمس جسدي، نهديّ، عضوي، كأنه انتظر هذا طويلاً، ويشعر بأن هذه الفرصة قد تكون الأخيرة.

نزع عني سترتي، ثوبي، تركني عارية، وهناك في البهو، دون مقدمة، وفيما الهواء البارد يتسرب من أسفل الباب، مارسنا الحب للمرة الأولى. فكرتُ أن من الأفضل حتماً أن أقول له أن يتوقف، وأنّ علينا البحث عن مكان أكثر راحة، وأخذَ وقتنا في استكشاف عالمِ قدرتنا الجنسية الهائل، لكني كنتُ في الوقت ذاته أريدهُ في داخلي، لأنه الرجل الذي لم أملكه قط ولن أملكه ثانيةً قط. لذا كنت أستطيع أن أحبه بكل طاقتي، أن أحصل - لليلةٍ على الأقل - على ما لم أحصل عليه، وما قد لا أحصل عليه أبداً.

مدّدني على الأرض، وولجني قبل أن أبتلّ. لا، لم يزعجني الألم - على العكس، راقَ لي أن يتم الأمر على هذا النحو، لا بدّ أنه فهمَ

أني ملكٌ له وأنه لا يحتاج للاستئذان. لم أعد موجودة هنا لكي أعلِّم أي شيء على الإطلاق، ولا لكي أُريَ بأنّ حساسيتي تفوقُ حساسيةَ النساء الأخريات، بل فقط لكي أقول له بأنه، نعم، مرَحَّبٌ به، وأني أنا أيضاً كنتُ أنتظر هذا، وأنّ استخفافه الكامل بالقواعد التي وضعناها فيما بيننا يسعدني، ويقتضي الآن أن نترك القياد لغريزة الرجل والمرأة فينا. كنا في أكثر الأوضاع تقليديةً ـ أنا تحته، مباعِدَةً ما بين فخذيّ، وهو فوقي يذهب ويعود ـ بينما أنظر إليه دون أية رغبة بالتظاهر بالتأوه، بأي شيء، أريد فقط الاحتفاظ بعينيّ مفتوحتين لكي أتذكر كل لحظة، لكي أرى وجهه يتغيّر، يديه اللتين تمسكان بشعري، فمه الذي يعضّني ويقبّلني. لا مقدمات، لا مداعبات، ولا حذلقات، فقط هو بداخلي، وأنا داخل روحه.

كان يذهب ويعود، يسرّع الإيقاع أو يبطئه، يتوقف أحياناً لكي ينظر إليّ بدوره، لكنه لم يكن يسألني إذا كنتُ أستمتع، لأنه كان يعرف أنها طريقة التواصل الوحيدة لروحينا في تلك اللحظة. تسارع الإيقاع، وكنت أعرف أن الدقائق الإحدى عشرة تقترب من نهايتها. تمنيتُ لو يستمر دوماً، كان شيئاً لذيذاً ـ آه يا إلهي كم كان لذيذاً! ـ أن تُمتلَك ولا تَمتلِك! وذلك كله بعينين مفتوحتين على وسعهما. دوّنتُ اللحظةَ التي اختلطت فيها أحاسيسُنا، كأننا دخلنا بُعداً آخر كنتُ فيه الجدةَ، الكونَ، المرأة المحبوبة، المومسَ المقدسة في الطقوس القديمة التي شرحها لي أمام كأس نبيذ ونارٍ في موقد. استشعرتُ نشوتَهُ، تشبثت ذراعاه بذراعيّ، باتت حركاته أقوى، وعندها عوى ـ لم يتأوه، لم يعضّ فوق شفتيه، بل عوى! جأر مثل حيوان! خطرت لي فكرةُ أن الجيران ربما سيطلبون الشرطة، لكن ذلك لم يكن بذي أهمية، وشعرت بمتعة هائلة، لأن الأمر كان هكذا منذ أقدم العصور، عندما التقى أول رجل بأول امرأة ومارسا الحب للمرة الأولى: لقد جأرا.

ثم انهار جسده فوقي، ولا أعرف كم من الوقت بقي أحدنا في حضن الآخر. داعبتُ شعره كما فعلتُ في المساء الذي اختلينا فيه

في الظلام في الفندق، أحسستُ بدقاتِ قلبه وهي تهدأ، تنزهتْ يداه برقةٍ فوق ذراعيّ، وانتصب كل الزغب على جسدي.

لا بدَّ أنه فكرَ بتفصيلٍ عملي - مثل وزن جسده فوق جسدي - لأنه انقلبَ إلى الجانب، أخذ يديّ، وبقينا ننظر معاً إلى السقف والثريا.

«طابت ليلتك» قلتُ له.

شدَّني إليه وأسندَ رأسي فوق صدره. داعبني لحظة طويلة قبل أن يقول لي بدوره «طابت ليلتكِ».

«لا بدّ أن الجيران سمعوا كل شيء»، أعلنتُ كوني لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل، لأن قولَ «أحبك» في تلك اللحظة ليس له معنى عظيم، كان يعرف ذلك، وأنا أيضاً.

«يجري تيار بارد من تحت الباب» أجاب بدل أن يهتف: «كان ذلك رائعاً! لنذهب إلى المطبخ».

نهضنا، ولاحظتُ أنه حتى لم ينزع بنطاله. كان بثيابه وعضوه فقط في الخارج. لبستُ سترتي وذهبنا إلى المطبخ. أعدّ قهوةً، دخن سيجارتين وأنا دخنتُ واحدةً. كان يقول بعينيه «شكراً» وهو جالس إلى الطاولة، وأجيب «أريد أن أشكرك أيضاً»، لكننا لم نفتح فمينا.

تجاسر أخيراً وسألني ما تعنيه هاتان الحقيبتان.

«سأعود إلى البرازيل ظهر غدٍ».

تشعر المرأة بالرجل عندما يَغنيها. والرجال؟ هل ينتابهم هذا الحدس؟ أم كان عليّ أن أقول «أحبكَ»، «أتمنى البقاء هنا معك»، «اطلبْ مني البقاء»؟

«لا تذهبي». نعم، لقد فهمَ أن باستطاعته أن يقول لي ذلك.

«سأذهب. لقد قطعتُ عهداً».

لو لم أفعل ذلك لاعتقدتُ ربما بأن الأمر سيدوم إلى الأبد، وليس هذا هو الحال، فهذا جزء من حلمِ فتاةٍ قادمة من أعماق بلدٍ بعيد، ترحلُ إلى المدينةِ الكبيرة (ليست والحق يُقال بهذا الكبر)، تواجه ألف صعوبة ولكنها تلتقي بالرجل الذي تحبه. هكذا كانت النهاية سعيدة بعد كل اللحظات الصعبة التي مررتُ بها، وكلما فكرتُ بحياتي في أوروبا ستعودني قصةُ رجلٍ أحبّني، وسيكون لي دوماً لأني زرتُ روحه.

آهٍ يا رالف، أنت لا تعرف كم أحبك. أعتقد أننا، نحن النساء جميعاً، نقع ربما دوماً في الحب، لحظةَ رؤيتنا لرجلِ أحلامنا للمرة الأولى، حتى لو أملى علينا العقلُ بأننا على خطأ، ولو بدأنا نصارع ـ دون رغبة بالانتصار ـ ضد تلك الغريزة. ثم تأتي لحظة نَقبَل فيها أن يجتاحنا الانفعال، مثل المساء الذي مشيتُ فيه حافية القدمين في المتنزه، متحمّلةً الألم والبرد، لكني مدركة إلى أية درجةٍ تحبني.

نعم أحبكَ، كما لم أحب رجلاً آخر قط، ولهذا السبب بالضبط سأرحل. إذا بقيتُ سيصبح الحلم واقعاً، إرادةَ تملُّك، رغبةً بأن تكون حياتكَ ملكي... باختصار، كل هذه الأشياء التي تحوّل الحب إلى عبودية. هكذا أفضل: الحلم. يجب أن نعتني بما نجلبه من بلدٍ ما ـ أو من الحياة.

«لم تصلي إلى نشوة» قال لتغيير الموضوع، وإظهار المراعاة وكسر الموقف. كان خائفاً من أن يفقدني، وفكرَ أنّ لديه الليل كله لكي يجعلني أغير رأيي.

«لم أصل إلى نشوة، لكني حصلتُ على متعة هائلة.

ـ كان أفضل لو أنك انتشيتِ.

ـ كان باستطاعتي التظاهر، فقط لكي تكون مسروراً، لكنكَ تستحق أكثر من هذا. أنتَ رجل، رالف هارت، بكل ما لهذه الكلمة

من جمال وقوة. استطعتَ أن تساندني وتساعدني، قبلتَ أن أساندكَ وأساعدك، دون أن ينطوي ذلك على أدنى إذلال. نعم، كنت أتمنى أن أصل إلى نشوة، لكني لم أصل. إلا أنني استمتعتُ بالأرض الباردة، بجسدك الدافئ، وبالعنف الموافَق عليه الذي ولجّتَني به.

«ذهبتُ اليوم إلى المكتبة لإعادة الكتب التي ما تزال بحوزتي، وسألتني أمينة المكتبة إذا كنتُ أتكلم عن الجنس مع شريكي. لقد رغبتُ بأن أقول لها: «أي شريك؟ أي نوع من الجنس؟» لكنها لا تستحق أن أفعل بها هذا. لطالما كانت مثل الملاك معي.

«لم يكن لي في الحقيقة سوى شريكَيْن منذ وصولي إلى جنيف: أحدهما من أيقظَ أسوأ ما فيّ، لأنني سمحتُ له بذلك - بل توسلتُ إليه أن يفعل. والآخر أنتَ، الذي بفضله أشعر من جديد بانتمائي إلى العالم. أتمنى أن أستطيع تعليمك أين تلمس جسدي، وبأية كثافة، وكم من الوقت، وأعرف أنك لن تأخذ الأمر على أنه تهمة مضادة، بل كوسيلة تسمح لروحينا بتواصل أفضل. فن الحب مثل الرسم: يتطلب تكنيكاً، صبراً، ويتطلب بشكل خاص ممارسةً بين الزوجين. يتطلب جرأةً، ويجب المضي إلى أبعد مما اتُّفِق على تسميته: فعلُ الحب».

ذاك هو. عاد المعلِّم - لم أرِد ذلك، لكن رالف استطاع إخراجَنا من هناك. وبدلاً من أن يأخذ كلامي على أنه مسلَّم به أشعلَ سيجارته الثالثة خلال أقل من نصف ساعة.

«في المقام الأول، ستمضين الليل هنا».

لم يكن ذلك طلباً، بل أمراً.

«في المقام الثاني، سنمارس الحب من جديد، بقدر أقل من القلق، وقدر أكبر من الرغبة.

«أخيراً، أتمنى أن تتمكني أنت أيضاً من أن تفهمي الرجال فهماً أفضل».

أفهم الرجال فهماً أفضل؟ كنتُ أقضي لياليَّ معهم، بيضاً، سوداً، آسيويين، يهوداً، مسلمين، وبوذيين! ألا يعرف ذلك؟

أحسستُ بأني أكثر خفة. كان من الجيد أن يأخذ الحديث منحى مناقَشة. وصل بي الأمر في لحظة إلى أني فكرتُ أن أطلب من الله المغفرة، وأنقض وعدي. لكن الواقع كان حاضراً لإلزامي بالمحافظة على حلمي سليماً، وعدم السقوط في فخ القدر.

«نعم فهْم الرجال فهماً أفضل، كرر رالف، وقد رأى هيئتي الساخرة. تتكلمين عن التعبير عن طاقتك الجنسية الأنثوية، عن مساعدتي على الإبحار فوق جسدك، عن الصبر والوقت. أنا موافق، ولكن هل خطر ببالك أننا مختلفان، على الأقل في موضوع الوقت؟ لماذا لا تتوجهين إلى الله للشكوى من ذلك؟

«عندما التقينا، طلبتُ منك أن تعلِّميني الجنس، لأن رغبتي زالت. أتعرفين لماذا؟ لأن جميع علاقاتي الجنسية انتهت، بعد بضع سنين، بالضجر والإحباط. فهمتُ أن من الصعب جداً أن أمنح النساء اللواتي أحببتُهن المتعةَ التي يمنحنني إياها».

«النساء اللواتي أحببتهن» لم يرُق لي ذلك، لكني تظاهرت بعدم الاكتراث بإشعال سيجارة.

«لم أملك الشجاعة لأقول: «علِّميني جسدَكِ» لكني حين التقيتُ بك، رأيتُ ضوءَكِ وأحببتكِ في الحال. فكرتُ بأنني في هذه الفترة من حياتي ليس لدي ما أخسره من كوني صادقاً مع نفسي ومع المرأة التي أريدها بجانبي».

كانت السيجارة لذيذة، ووددتُ بشدة لو أنه يقدم لي شيئاً من النبيذ، لكني لم أشأ تحويل المحادثة.

«لماذا لا يفكر الرجال إلا بالجنس، بدل أن يفعلوا ما فعلتَهُ معي، فيحاولون معرفة ما أشعر به؟

ـ من قال بأننا لا نفكر إلاّ بالجنس؟ على العكس: نمضي سنوات في إقناع أنفسنا بأن الجنس مهم لنا. نتعلم الحبَّ مع

مومسات أو مع عذراوات، نروي قصصنا لمن يريد أن يسمع، ومع تقدمنا في السن نتنقل بين أذرُع عشيقات شابات، كل ذلك لكي نُري الآخرين بأننا حقاً ما تنتظره النساءُ منّا.

«لكن لا شيء من هذا صحيح. إننا لا نفهم شيئاً. نعتقد أن الجنس والقذف هما الشيء نفسه، وكما قلتِ للتو، هذا ليس صحيحاً. إننا لا نتعلم لأننا لا نملك الشجاعة لكي نقول لامرأة: «علِّميني جسدَكِ». إننا لا نتعلم لأن المرأة كذلك لا تملك الشجاعة لكي تقول: «حاول أن تعرفني». نكتفي بغريزة بقاء النوع البدائية، نقطة، انتهى. مهما بدا ذلك غير عقلاني هل تعرفين ما هو الشيء الأهمّ من الجنس عند الرجل؟».

ظننتُ بأنه ربما يكون المال أو السلطة، لكني لم أقل شيئاً.

«الرياضة. لأن الرجل يفهم جسد رجل آخر. وهنا في الرياضة يُلمَس الحوار بين أجسادٍ يفهم أحدها الآخر.

ـ أنت مجنون.

ـ ربما. لكن لهذا معنى. هل تساءلتِ مرةً عما يشعر به الرجال الذين كنت تضاجعينهم؟

ـ نعم، كانوا جميعاً يفتقرون إلى الثقة، كانوا يشعرون بالخوف.

ـ أسوأ من الخوف: كانوا هَشِّين، قابِلين للجَرح. وإن لم يفهموا جيداً ما يفعلون، كانوا يعرفون أن المجتمع والأصدقاء، والنساء أنفسهن، يزعمون بأن هذا شيء هام. تُعلِن الدعايات والناسُ والأفلام والكتب «الجنس، الجنس، الجنس، هذا هو ملح الحياة». لا أحد يعرف عن أي شيء يتحدث. ولأن الغريزة أقوى منّا جميعاً نعرف بأنه يجب القيام بذلك، لا غير».

كفى. حاولتُ أن أعطي دروساً لكي أحمي نفسي، وهذا ما

فعله هو كذلك. ومهما كانت كلماتنا حكيمةً ـ كان أحدنا يسعى للتأثير على الآخر ـ كان ذلك في منتهى الغباء، ولا يليق أبداً بعلاقتنا! لقد جذبتُه نحوي لأن الحياة ـ بمعزلٍ عما لديه ليقوله، أو عن رأيي بنفسي ـ علّمتْني الكثير. في بداية الزمن كان كل شيء حبّاً وإيثاراً، لكن ما لبثت الحية أن مثلت أمام حواء وقالت: «سوف تفقدين ما أعطيتِهِ». هذا ما حدث لي ـ طُردتُ من الجنة في المدرسة، ومنذ ذلك الوقت بحثتُ عن طريقة أقول بها للحية بأنها مخطئة، بأن العيش أهم من الاحتفاظ بالشيء لنفسك. لكن الحية هي التي كانت على صواب، وأنا على خطأ.

ركعتُ على ركبتيّ، خلعتُ عنه ثيابه بهدوء، ورأيتُ أن عضوه غافٍ بدون استجابة. لم يبدُ منزعجاً من الأمر. قبّلتُ داخلَ ساقيه، بدءاً من القدمين. استجاب عضوه ببطء، وداعبتُه، ثم أخذتُهُ في فمي دون عجلة، دون أن يؤوّل ذلك بـ «هيا، استعد للفعل!»، قبّلتُه بحنانِ من لا ينتظر شيئاً، ولهذا تحديداً حصلتُ على كل شيء. رأيتُ أنه مستَثار، وراح يداعب حلمتي نهديّ، ملتفاً حولهما كما في أمسية العتمة الكاملة تلك، باعثاً بي الرغبة بأن أجعله من جديد في داخلي، أو في فمي، أو بالطريقة التي يريدها لامتلاكي.

لم ينزع عني سترتي؛ جعلني أنبطح فوق الطاولة وساقاي ماتزالان تستندان إلى الأرض. وولجَني بهدوء، دون قلق هذه المرة، دون خوف من فقداني ـ لأنه فهمَ في أعماقه هو أيضاً بأن هذا حلم، وسيبقى حلماً إلى الأبد.

وفي الوقت الذي شعرت فيه بعضوه في داخلي، كنت أشعر بيده فوق نهدي، فوق ردفيّ، كان يلمسني كما تعرف المرأة وحدها أن تفعل. فهمتُ عندها بأن أحدنا قد خُلق للآخر، لأن باستطاعته أن يكون امرأةً، مثلما أستطيع أنا أن أكون رجلاً، عندما نتكلم، أو عندما يدرب أحدنا الآخر على اللقاء بين النصفين الضائعين، النصفين اللذين يجب أن يعثر أحدهما على الآخر لكي يكتمل الكون.

كلما ولجني وداعبني أكثر أحسستُ أنه لا يفعل ذلك لي وحدي، بل للكون كله. كان لدينا الوقت والحنان، ويعرف أحدنا الآخر. نعم، كان شيئاً رائعاً أن أحضر ومعي حقيبتين، مليئةً بالرغبة بالرحيل، أن يُلقي بي أرضاً في الحال، ويلجني بعنفٍ وخوف؛ لكنه كان لذيذاً أيضاً أن نعرف بأن الليل قد لا ينتهي أبداً، وأن النشوةَ الآن، فوق طاولة المطبخ، لم تكن النهايةَ، بل بداية هذا اللقاء.

جمدَ عضوه بداخلي، فيما راحت أصابعه تنتقل بسرعة، وحصلتُ على نشوة أولى ثم ثانية وثالثة. شعرت برغبة أن أدفعه، لأن ألمَ المتعة كان قوياً إلى درجة الهرس، لكنني احتملتُ بصلابة، قبلتُ أن يتم الأمر هكذا، كان بوسعي تحمُّل نشوةٍ أخرى، أو اثنتين، أو أكثر...

...وفجأةً انفجر ضوءٌ في داخلي. لم أعد أنا نفسي، بل صرتُ كائناً أعلى للغاية من كل ما عرفتُه. وعندما قادتْني يدُهُ إلى نشوتي الرابعة دخلتُ مكاناً كل شيء فيه سلام، وفي الخامسة عرفتُ الله. شعرتُ عندها أن عضوه يحفر فيّ من جديد، مع أن يده لم تكن قد توقفت، وقلتُ «يا إلهي»، استسلمتُ، دون أن أعرف هل استسلمتُ لجهنم أم للجنة.

لكنها كانت الجنة. كنتُ أنا الأرض والجبال والنمور، الأنهار التي تجري إلى البحيرات، والبحيرات التي تصبح بحراً. أخذ يُسرع أكثر فأكثر ويمتزج الألم بالمتعة، كان بوسعي أن أقول «لم أعد أستطيع الاحتمال» لكن ذلك لن يكون عدلاً، لأننا عند هذه المرحلة بتنا أنا وهو شخصاً واحداً.

تركته يلجني كل الوقت اللازم. كانت أظافره قد انغرزت الآن في ردفيّ، وأنا منبطحة فوق طاولة المطبخ، رحتُ أفكر بأنه ليس هناك مكان في العالم أفضل لممارسة الحب. من جديد، التنفس المتسارع، الأظافر التي تجرحني، وعضوه يضرب بقوة فوق

ردفي، جسد لجسد. واتجهتُ من جديد نحو نشوة أخرى، وهو أيضاً، ولا شيء من هذا كله ـ لا شيء من هذا كله، كان كذباً!

«تعالي!»

كان يعرف عن أي شيء يتكلم، وكنتُ أعرف أنها اللحظة. جسدي كله ارتخى، لم أعد أنا نفسي ـ لم أعد أسمع، ولا أرى، ولا أحس بطعم شيء ـ لم أعد سوى إحساس.

«تعالي!».

وأتيت إليه. لم تكن تلك إحدى عشرة دقيقة، بل دهراً، كأننا كلينا خرجنا من جسدينا ورحنا نتنزه، بفرح وتفاهُم وصداقة عميقة في حدائق الجنة. كنتُ امرأةً ورجلاً، وكان رجلاً وامرأة. لا أعرف كم من الوقت دام ذلك، لكن كل شيء كان يبدو صامتاً في صلاة، كما لو أن الكون والحياة أصبحا مقدَّسين، دون أسماء، خارج الزمن.

لكن الزمن ما لبث أن عاد، سمعتُ صراخَهُ وصرختُ معه، كانت قوائم الطاولة تصطدم بالأرض بقوة، ولم يفكر أي منا ما الذي كان بقيةُ العالم يفكر فيه.

خرج مني دون تنبيه. كنتُ أضحك، استدرتُ نحوه، وكان هو أيضاً يضحك؛ عانق أحدنا الآخر كما لو أننا مارسنا الحب لأول مرة في حياتنا.

«باركيني» قال.

باركتُهُ دون أن أعرف ما أفعله. رجوتُهُ أن يفعل ما فعلت، وقال: «لِتُبارَك هذه المرأة التي أحببتُها كثيراً». كانت كلماته جميلة، تعانقنا ثانيةً، وبقينا هناك دون أن نفهم كيف يمكن لإحدى عشرة دقيقة أن تقود رجلاً وامرأة إلى هذا كله.

لم يكن أي منا تعباً. ذهبنا إلى الصالون، وضع أسطوانة

موسيقى، وفعل ما انتظرتُه بالضبط: أشعلَ النار في الموقد وصب لي كاس نبيذ. ثم فتح كتاباً وقرأ:

لكلِ شيءٍ زمانٌ ولكل أمرٍ تحت السمواتِ وقتٌ.

للولادةِ وقتٌ وللموتِ وقتٌ.

للغرسِ وقتٌ ولقلعِ المغروسِ وقتٌ.

للقتلِ وقتٌ وللشّفاءِ وقتٌ.

للهدمِ وقتٌ وللبناءِ وقتٌ.

للبكاءِ وقتٌ وللضحكِ وقتٌ.

للنوحِ وقتٌ وللرقصِ وقتٌ.

لتفريقِ الحجارةِ وقتٌ ولجمعِ الحجارةِ وقتٌ.

للمعانقةِ وقتٌ وللانفصالِ عن المعانقةِ وقتٌ.

للكسبِ وقتٌ وللخسارةِ وقتٌ.

للصيانةِ وقتٌ وللطرحِ وقتٌ.

للتمزيقِ وقتٌ وللتخييطِ وقتٌ.

للسكوتِ وقتٌ وللتكلمِ وقتٌ.

للحبِ وقتٌ وللبغضةِ وقتٌ.

للحربِ وقتٌ وللصلحِ وقتٌ.

كان وقع ذلك يشبه الوداع، لكنه كان أجمل من كل ما عرفتُ في حياتي.

ضممتُه بين ذراعيّ، ضمني بين ذراعيه، وتمددنا فوق البساط أمام الموقد. كان شعور الامتلاء مستمراً، كما لو أنني كنتُ دوماً امرأة حكيمة، سعيدة، ومزدهرة.

«كيف أمكنك أن تقع في حب مومس؟

- في ذلك الوقت لم أفهم. أما اليوم، وعند التفكير قليلاً في الأمر، أظن أنني كنت أستطيع التركيز على الظفر بروحكِ، كوني أعرف أن جسدكِ لن يكون أبداً لي وحدي.

- والغيرة؟

- لا نستطيع أن نقول عن الربيع: «ليته يأتي قريباً ويدوم زمناً كافياً». بل فقط: «ليأتِ ويباركني بأملِهِ، وليبقَ قدر ما يستطيع».

كلمات ذُريت في الهواء، لكني كنت بحاجة لسماعها، وكان هو بحاجة لقولها. غفوتُ وحلمتُ بعطرٍ يغمر كل شيء.

عندما فتحت ماريا عينيها كانت بضع خيوط من الشمس تدخل من مصراعي النافذة المفتوحين.

«مارستُ الحب معه مرتين» فكرتْ وهي تنظر إلى الرجل النائم بجانبها. «ومع ذلك فكأننا كنا دوماً معاً، وكأنه عرف حياتي وروحي وجسدي وَضَوئي وألمي».

نهضت لتعدّ قهوة في المطبخ. عندها رأت الحقيبتين في الممر، واستعادت كل شيء: العهد، الصلاة في الكنيسة، حياتها، الحلم الذي يلحّ لكي يصبح واقعاً فيفقد سحرَه، الرجل الكامل، الحب الذي يكون الجسدُ والروحُ شيئاً واحداً فيه، وتكون المتعةُ والنشوة شيئين مختلفين

كان بوسعها أن تبقى؛ لم يكن لديها ما تخسره، سوى وهمٍ إضافي. فكرت بالقصيدة: وقت للبكاء ووقت للضحك. لكن هناكَ جملة أخرى: للمعانقةِ وقتٌ وللانفصالِ عن المعانقةِ وقتٌ. أعدت القهوة، أغلقت باب المطبخ، تناولت الهاتف وطلبت سيارة أجرة. جمعت كلَّ قوةِ إرادتها التي دفعتها بعيداً بهذا الشكل، نبعَ طاقةِ «ضوئها» الذي دلّها على موعد الرحيل، والذي كان يحميها وسيحفظ ذكرى هذه الليلة سليماً من أي أذى. لبست ثيابها، حملت حقيبتيها وخرجت، وكلُّها أملٌ بأن يستيقظ ويطلب منها البقاء.

لكنه لم يستيقظ. وأثناء انتظارها لسيارة الأجرة في الخارج مرت غجرية تحمل باقة زهر.

«هل تريدين واحدة؟».

اشترتها ماريا منها؛ إنها مؤشر على قدوم الخريف وانقضاء الصيف. قد يمر وقت طويل لا تُشاهَد فيه، في جنيف، الطاولات فوق أرصفة المقاهي، ولا المتنزهات الغارقة بالشمس مليئةً بالمتنزهين. يجب ألاّ تحزن؛ إنها راحلة لأنه خيارها، وليس هناك ما تشتكي منه.

وصلت إلى المطار، طلبت فنجان قهوة، انتظرت الطائرة المتجهة إلى باريس لمدة أربع ساعات، وهي ماتزال تأمل بأنه سيظهر فجاةً بين لحظة وأخرى، لأنها قبل أن يناما بقليل، أخبرته بساعةِ انطلاقها. هذا ما يجري في الأفلام: في المشهد الأخير، وبينما تكون المرأة على وشك الصعود إلى الطائرة، يأتي الرجل يائساً، يمسك بها، يقبّلها، ويعيدها إلى عالمه، أمام أنظارِ طاقمِ شركة الطيران اللاهيةِ والمُراعِية. تَظهر كلمة «النهاية» ويكونُ المشاهدون جميعاً واثقين من أنهما سيعيشان، من الآن وصاعداً، سعيدين إلى الأبد.

«لا تروي الأفلام أبداً ما يحدث لاحقاً»، قالت لنفسها مؤاسيةً. الزواج، المطبخ، الأبناء، علاقات جنسية تُمسي أندر فأندر، اكتشاف أول بطاقةٍ عذبة من العشيقة وقرار إثارةِ فضيحة، وعدُ الزوج بعدم تكرار الأمر، ثم البطاقة الثانية العذبة من عشيقة أخرى - فضيحة أخرى وتهديد بالانفصال، لكن الرجل لا يتصرف هذه المرة بالقدر نفسه من الثقة، ويكتفي بأن يقول لزوجته بأنه يحبها. ومع البطاقة العذبة الثالثة من العشيقة الثالثة، تختار الصمت،

متظاهرةً بعدم معرفة شيء، خوفاً من أن يقول لها بأنه ما عاد يحبها، وأنّ لها حرية الرحيل.

لا، لا تروي الأفلامُ ذلك. إنها تنتهي قبل أن يبدأ العالمُ الحقيقي. الأفضل عدم التفكير في ذلك.

قرأت مجلةً، اثنتين، ثلاث مجلات. أخيراً أُعلن عن رحلتها، بعد دهرٍ أو يكاد، أمضتها في غرفة انتظار المطار هذه. صعدت إلى الطائرة. تخيلت أيضاً المشهد الشهير الذي تشعر فيه، حال ربطها للحزام بيدٍ فوق كتفها، تلتفت فتجده هناك مبتسماً.

ولم يحدث شيء.

نامت أثناء المسافة القصيرة من جنيف إلى باريس. لم يُتح لها الوقت للتفكير بالقصة التي سترويها - لكنِ والديها سيُسَرّان حتماً لعودةِ ابنتهما، لامتلاكهما مزرعةً وضماناً لشيخوخةٍ مرفّهة.

أيقظتها هزةُ هبوط الطائرة. جاءت المضيفة تشرح لها بأن عليها تغيير محطة الانطلاق، لأن الطائرة المتجهة إلى البرازيل تنطلق من المحطة F في حين أنها في المحطة G. لكن لا داعي للقلق، فليس هناك تأخير، ولديها متسع من الوقت، وإذا أرادت يمكن أن يساعدها الطاقم الأرضي في العثور على طريقها.

وبينما كانت الطائرة تقترب من معبر الهبوط، تساءلت إذا كان قضاءُ يوم في باريس أمراً يستحق العناء، فقط لكي تلتقط صوراً، وتستطيع عند وصولها أن تحكي بأنها زارت المدينة. كانت بحاجة للوقت لتفكر، لتكونَ بمفردها مع نفسها، لتُواريَ في أعماقِها ذكرياتِ الليلة الفائتة، بحيث تستطيع أن تنهل منها كلما احتاجت للشعور بأنها حية. نعم، باريس فكرة ممتازة. استعلمت لدى المضيفة عن موعد الرحلة القادمة إلى البرازيل، في حال قررت عدم السفر في اليوم نفسه.

تناولت المضيفة بطاقتها وأعربت عن أسفها لأن تَعرِفتَها لا تسمح بهذا النوع من التوقُّف. عزَّتْ ماريا نفسَها قائلةً بأن اكتشاف مدينة بهذا الجمال، بمفردها، قد يُشعرها بالإحباط. استطاعت الحفاظ على هدوء أعصابها، وقوة إرادتها. فلن تُفسِد كل شيء بسبب افتقادها لإنسان.

خرجت، مرت بشرطة التفتيش. سيتم نقل حقيبتيها فوراً إلى الطائرة الأخرى. انفتحت الأبواب، ذهب الركاب لعناقِ من حضر لانتظارهم، زوجاتهم، أمهاتهم، أبنائهم. تظاهرت ماريا كأن الأمر لا يعنيها، فيما كانت تفكر من جديد بوحدتها. هذه المرة فقط كان لها سر، حلمٌ، لم تكن تشعر بالمرارة نفسها، وستكون الحياة أسهل.

«ستكون باريس هناك دوماً».

لم يكن ذلك مرشداً سياحياً، ولم يكن سائق سيارة أجرة. راحت ساقاها ترتجفان عندما سمعت صوته.

«ستكون باريس هناك دوماً؟

- إنها جملة من فيلم أعشقُه. هل تودين رؤية برج إيفل؟».

نعم، تود كثيراً. كان رالف يحمل في يده باقة زهر، وعيناه ممتلئتان بالضوء، الضوء الذي رأتهُ فيهما في اليوم الأول وهو يرسم صورتها فيما كان الهواءُ البارد يُشعِرها بالضيق.

«كيف وصلتَ إلى هنا قبلي؟» سألتْ لتمويه مفاجأتها. لم يكن للجواب أدنى أهمية، لكنها كانت تحتاج لوقتٍ لكي تتمالك نفسها من جديد.

«رأيتُكِ تقرئين مجلة. كان بوسعي الاقتراب منك، لكني رومانسي، رومانسيٌ على نحوٍ لا شفاء منه، وفكرت أن من الأفضل أن أستقل أول جسر جوي إلى باريس، أن أتنزه في المطار، أنتظر

ثلاث ساعات، أطّلع، عدداً لا يحصى من المرات على مواعيد الرحلات، أشتري لك زهوراً، أقول الجملةَ التي قالها ريكي لحبيبته في فيلم كازابلانكا، وأتخيل المفاجأة على وجهك. وأكون على يقين من أن هذا هو ما تريدينه، من أنك تنتظرينني، إن كل التصميم وكل إرادة العالم لا تكفي لمنعِ الحب من تغييرِ قواعدِ اللعب بين الساعة والأخرى. فأن يكون المرء رومانسياً، كما في السينما، لا يكلفه ذلك شيئاً، ألا تعتقدين ذلك؟»

لم تكن تعرف إن كان يكلف أم لا، لكن الثمن كان حالياً أقل همومها شأناً. كانت تعرف أنها التقت للتو بهذا الرجل، بأنهما مارسا الحب للمرة الأولى قبل بضع ساعات، بأنها قُدِّمت عشية الأمس لأصدقائه، لكن بأنه أيضاً ارتادَ الملهى الليلي الذي كانت تعمل فيه، وأنه تزوج مرتين. لم تكن تلك تزكية خالية من العيوب. من ناحية أخرى، كان لديها نقود لشراء مزرعة، وأمامها شبابُها وتجربةٌ حياتية كبيرة، واستقلالية روحٍ عظيمة. مع ذلك، وبما أن القدر يختار لها دوماً، فكرت أنها تستطيع مرة أخرى أن تخاطِر.

ونظراً لأنها لم يعد لديها فضول لمعرفة ما يجري بعد كتابة كلمة «النهاية» على شاشة السينما، قبّلتهُ. فقط، إذا عزم أحدٌ أن يروي قصتها ذات يوم، ستطلب بأن تبدأ كما تبدأ حكايات المغامرات الساحرة بِـ: كان يا ما كان...

ملاحظة من المؤلف

مثل الجميع ـ ونظراً لذلك أُعَمِّمُ بلا تردد ـ أمضيتُ وقتاً في اكتشافِ المعنى المقدس للنزعة الجنسية. فقد تزامن شبابي مع حقبةٍ من الحرية القصوى، من الاكتشافات ومن أشكال الإفراط، تلتها حقبةٌ محافِظة وقمعية ـ الثمن الذي يُدفع لقاء انفلاتاتٍ لم تكن بلا نتائج.

أثناء هذا العقد من المجون (السبعينيات)، نشر الكاتب إرفينغ والاش كتاباً عن الرقابة في الولايات المتحدة، يُسطر فيه الحيل القضائية الرامية إلى منع نشر نصٍّ عن الجنس بعنوان «الدقائق السبع».

في رواية والاش، ليس الكتابُ الذي هو موضوعُ الرقابة سوى ذريعة، ونادراً ما تَظهر تيمةُ النزعة الجنسية باعتبارها كذلك. وكثيراً ما تساءلتُ ما الذي يرويه ذاك المؤلِّف. وماذا لو حاولتُ كتابته؟

صادَفَ أنّ والاش يُورِد، على طول روايته، إحالاتٍ كثيرة إلى ذلك الكتاب الخيالي، مما جعل المهمة التي تخيَّلتُها مستحيلةً في النهاية. لم يبق لي غيرُ ذكرى العنوان (أجد والاش اختزالياً حقاً بشأن هذه المدة التي قررتُ إطالتَها)، وفكرةُ أن من المهم تناول النزعة الجنسية تناولاً جدياً ـ وهو أصلاً ما سبق أن فعله عددٌ من الكتّاب.

في العام 1997، بعد وقت قليل من إنهاء محاضرة في مانتوي بإيطاليا، وجدتُ في الفندق الذي نزلتُ فيه، مخطوطاً تُرك لأجلي في مكتب الاستقبال. لا أقرأ المخطوطات لكني قرأتُ ذلك المخطوط ـ القصة الحقيقية لمومس برازيلية، زيجاتها، مصاعبها مع القانون، ومغامراتها. في العام 2000، اتصلتُ، لدى مروري بزوريخ، هاتفياً بهذه المومس، التي اسمُها الحَرَكي هو سونيا. أخبرتُها بأني أحببتُ نصَّها وأوصيتُها بإرساله إلى ناشري البرازيلي، الذي قرر في النهاية عدم نشره. استقلتْ سونيا قطاراً إلى زوريخ ودَعَتْنا ـ أنا وصديق يعمل مراسلاً لصحيفة بليك التي كانت قد أجرت لقاءً معي للتو ـ للذهاب إلى لانغستراس، شارع البغاء المحلي. كنت أجهل أن سونيا قد أخطرت زميلاتها بزيارتنا، ولمفاجأتي العظيمة وجدتُ نفسي أوقع على كتبي المنشورة بلغاتٍ عديدة.

عند تلك المرحلة كان قراري بشأن الكتابة عن الجنس قد اتُّخذ، لكن لم يكن لدي بعد السيناريو ولا الشخصية الأساسية؛ كنتُ أفكر بقصةٍ تنحو منحى البحث عن المقدَّس، لكن تلك الزيارة قد أنارتني: لأجل الكتابة عن البعد المقدس للجنس من الضروري أن أفهم لماذا دُنِّست قدسيته إلى هذا الحد.

عندما أجرى صحافي من مجلة L'illustrée لقاءً معي، رويتُ طُرفةَ حفل التوقيع المرتجَل على كتبي في لانغستراس، الأمر الذي أدى إلى إعداد تحقيق صحافي كبير حول هذا الموضوع. النتيجة، أثناء جلسة توقيع في جنيف، حضرت عدةُ مومسات مع نسَخِهِنّ. جذبت واحدة منهن انتباهي على نحو خاص. فخرجنا ـ مع وكيلة أعمالي وصديقتي مونيكا أنتونس ـ لتناول قهوة، تحوَّلتْ إلى عشاء، ثم إلى مواعيد أخرى في الأيام التالية. هناك ولد الخيط الرئيسي لـِ إحدى عشرة دقيقة.

أصرُّ أن أشكر آنا فون بلانتا، ناشرتي السويسرية، التي زوّدتْني بمعطياتٍ أساسية حول الوضع القانوني للمومسات في بلدها، كما أشكر النساء التالية أسماؤهن في زوريخ (وهي أسماء حَرَكيَّة): سونيا التي التقيتُ بها لأول مرة في مانتوي (ربما يهتم أحد ما بكتابها ذات يوم!)، مارتا، أنتينورا، إيزابيلا. وفي جنيف (وهي أسماء حركية أيضاً)، إيمي، لوتشيا، أندريه، فانيسا، باتريك، تيريز، أنا كريستينا.

أشكر أيضاً أنتونيلا زارا التي سمحتْ لي باستخدام مقاطع من كتابها عِلم الهوى لتمثيل بعض أجزاء يوميات ماريا.

أخيراً أشكر ماريا (اسم حرَكيّ)، المقيمة الآن في لوزان، المتزوجة ولديها ابنتان، والتي شاركتنا، أنا ومونيكا، أثناء لقاءاتنا المتعددة، قصتَها التي قام عليها هذا الكتاب.

باولو كويلهو



إحدى عشرة دقيقة

لم تكن ماريا، الفتاة الشابة القادمة من شمال شرق أمريكا اللاتينية، تتطلع إلا إلى المغامرة في بحثها عن الحب الكبير. عملت كبائعة في متجر أقمشة وحصلت على إجازة قضتها في ريو دي جانيرو، على شاطئ كوباكابانا. عرض عليها رجل سويسري أن تصبح راقصة كباريه في جنيف، فرأت في ذلك العرض بداية حكاية سحرية، لكن الواقع سيكون شيئاً آخر تماماً.

وصل الأمر بماريا إلى أنها عملت في البغاء - دون خجل - لأنها علّمت روحها ألا تتذمر مما يفعله جسدها، ومنعت نفسها من الوقوع في الحب فالبغاء أساساً هو مهنة مثل غيره، وله قواعد ومواعيد وأيام راحة. لكن الجنس - مثل الحب - بقي بالنسبة لها لغزاً. وسيتوجب على ماريا العثور على طريق المصالحة مع نفسها لكي تكتشف المعنى المقدس للجنس. إن باولو كويلهو يصف بحرفية عالية، ونص خلاّق، خطوة خطوة مسار انتساب شابة إلى عالم جديد، مسار يبيّن حدود التحرر الجنسي المزعوم وينتهي بعودة رومانسية إلى قيم القلب والروح.

الناشر